الفصل الثاني

الجهاد في القرآن الكريم
الحثُّ عليه
وبيانُ ثوابه وفضله

والترهيب من تركه والنكوص عنه

فضل الجهاد والترغيب فيه والترهيب من تركه في القرآن الكريم

هذه آيات من كتاب اللَّه المجيد «**القرآن الكريم**».. وكلامُ الملوكِ ملوكُ الكلامِ.

وهذه آيات تتحدث عن ذروة السنام «**وهو الجهاد**»، والترغيب فيه، والحض عليه، والترهيب من التقاعس عنه، والتثاقل إلى الأرض.. وفيها **بيان فضل الجهاد:**

١ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ابن جرير الطبري شيخُ المفسرين: «يقول ـ تعَالَى ذكره ـ للمؤمنين باللَّه وبرسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: صدَّقوا باللَّه ورسوله، وأقروا بما جاء به نبيهم محمد ﷺ.

﴿مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾: من يرجع منكم عن دين الحق الذي هو عليه اليوم، فيبدِّله ويغيره بدخوله في الكفر، إما في اليهودية أو النصرانية أو غير ذلك من صنوف الكفر فلن يضر اللَّه شيئًا، وسيأتي اللَّه بقوم ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ يقول: فسوف يجيء اللَّه بدلًا منهم بالمؤمنين الذين لم يبدلوا ولم يغيروا ولم يرتدوا، بقوم خير من الذين ارتدوا وبدلوا دينهم، يحبهم الله، ويحبون الله. وكان هذا الوعيد من اللَّه لمن سبق في علمه أنه سيرتد بعد وفاة نبيه محمد ﷺ، وكذلك وعده مَنْ وَعَدَ من المؤمنين ما وعده في هذه الآية لمن سبق له في علمه أنه لا يبدل ولا يغير دينه ولا يرتد. فلما قبض اللَّه نبيه ﷺ ارتد أقوام من أهل الوبر وبعض أهل المدر، أبدل اللَّه المؤمنين بخير منهم كما قال ـ تَعَالَى ذكره ـ ووفَّى للمؤمنين، وأنفذ فيمن

ارتد منهم وعيده»[١].

«ثم اختلف أهل التأويل في أعيان القوم الذين أتى اللَّه بهم المؤمنين، وأبدل المؤمنين مكان من ارتد منهم؛ فقال بعضهم: هو أبو بكر الصديق وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة حتى أدخلوهم من الباب الذي خرجوا منه»[٢] وممن قال بذلك: الحسن، والضحاك، وقتادة، وابن جريج.

«وقال آخرون: يعني بذلك قومًا من أهل اليمن، وقال بعض من قال ذلك منهم: هم رهط أبي موسى الأشعري عبداللَّه بن قيس»[٣]، وممن قال بذلك عياض الأشعري، ومجاهد محمد بن كعب القرظي.

ثم قال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب ما رُوي به الخبر عن رسول اللَّه ﷺ أنهم أهل اليمن قوم أبي موسى الأشعري، ولولا الخبر الذي روي في ذلك عن رسول اللَّه ﷺ بالخبر الذي رُوي عنه ما كان القول عندي في ذلك إلا قول من قال: هم أبو بكر وأصحابه، وذلك أنه لم يقاتل قومًا كانوا أظهروا الإسلام على عهد رسول اللَّه ﷺ ثم ارتدوا على أعقابهم كفارًا غير أبي بكر ومن كان معه ممن قاتل أهل الردة بعد رسول اللَّه ﷺ، ولكنا تركنا القول في ذلك للخبر الذي روي فيه عن رسول اللَّه ﷺ أن كان ﷺ معدن البيان عن تأويل ما أنزل اللَّه من وحيه وآي كتابه»[٤].

ثم قال عن أهل اليمن: «جاء بهم على عهد عمر، فكان موقعهم من الإسلام وأهله أحسن موقع، وكانوا أعوان أهل الإسلام، وأنفع لهم ممن كان ارتد بعد رسول اللَّه ﷺ من طغام الأعراب وجفاة أهل البوادي الذين كانوا على أهل

---

(١) تفسير ابن جرير (٦/١٨٢).

(٢) المصدر السابق (٦/١٨٢).

(٣) المصدر السابق (٦/١٨٣).

(٤) المصدر السابق (٦/١٨٤، ١٨٥).

الإسلام كَلًّا لا نفعًا»[١].

قال القرطبي: «قال الحسن وقتادة وغيرهما: نزلت في أبي بكر الصديق وأصحابه.. وقيل: هي إشارة إلى قوم لم يكونوا موجودين في ذلك الوقت، وأن أبا بكر قاتل أهل الردَّة بقوم لم يكونوا وقت نزول الآية، وهم أحياء من اليمن؛ من كندة وبجيلة، ومن أشجع. وقيل: إنها نزلت في الأشعريين، ففي الخبر أنها لما نزلت قدِم بعد ذلك بيسير سفائن الأشعريين، وقبائل اليمن من طريق البحر، فكان لهم بلاء في الإسلام في زمن رسول اللَّه ﷺ، وكانت عَامَة فتوح العراق في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يدي قبائل اليمن، وهذا أصح ما قيل في نزولها. واللَّه أعلم.»[٢].

ويقول ابن كثير: «يقول ـ تَعَالَى ـ مخبرًا عن قدرته العظيمة: أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن اللَّه يستبدل من هو خير لها منه؛ وأشد منعة، وأقوم سبيلًا، كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٠]، وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠]؛أي: بممتنع ولا صعب. وقال ـ تَعَالَى ـ ها هنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾؛ أي: يرجع عن الحق إلى الباطل»[٣].

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قال رسول اللَّه ﷺ: **«هم قوم هذا»**[٤].

---

(١) تفسير الطبري (١٨٥/٦).

(٢) تفسير القرطبي (٢٢١٧/٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٢٥٨/٥، ٢٥٩)، طبعة أولاد الشيخ.

(٤) **إسناده صحيح**: رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٦٠/٤) (٦٥٣٥)، وابن جرير في «تفسيره» (٤١٥/١٠) (١٢١٨٩، ١٢١٩١)، وابن سعد في الطبقات (٨٠/٤)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢٣/١٢) وفي «مسنده» (٦٦٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٥١٥).

عن جابر بن عبدالله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: «**سُئِل رسول الله** ﷺ عن قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]قال: هؤلاء قوم من أهل اليمن، ثم من كندة، ثم من السكون، ثم من تجيب»[١].

ثم وصف الله. ثم يحبهم ويحبونه من سادات أولياء الله ﷻ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ابن جرير: «أرقاء عليهم، رحماء بهم، ويعني بقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أشداء عليهم، غلظاء بهم».

عن علي بن أبي طالب «أهل رقة على أهل دينهم، أعزة على الكافرين، أهل غلظة على من خالفهم في دينهم».

وقال ابن عباس: يعني بالذلة: الرحمة[٢].

قال ابن كثير: «﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] هذه صفات المؤمنين الكُمَّل؛ أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه، متعززًا على خصمه وعدوه، كما قال ـ تعَالَى ـ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وفي صفة رسول الله ﷺ: أنه الضحوك القتَّال، فهو ضحوك لأوليائه، قتَّال لأعدائه»[٣].

قال القرطبي: قال ابن عباس: «هم للمؤمنين كالوالد للولد، والسيد للعبد، وهم في الغلظة على الكفار كالسبع على فريسته»[٤].

---

(١) **إسناده حسن**: رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٦٠/٤) (٦٥٣٤)، والطبراني في «الأوسط» (١٣٩٢)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٩/٧)، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وإسناده حسن، وَحَسَّنَهُ السيوطي في «الدر المنثور» (٥١٨/٢)، وزاد نسبته إلى الحاكم، وقال ابن كثير: غريب جدًّا.

(٢) تفسير الطبري (١٨٥/٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٢٦٠/٥).

(٤) تفسير القرطبي (٢٢١٧/٤).

﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾[المائدة: ٥٤].

قال ابن جرير: «يجاهدون في قتال أعداء اللَّه على النحو الذي أمر اللَّه بقتالهم والوجه الذي أذن لهم به، ويجاهدون عدوهم، فذلك مجاهدتهم في سبيل الله.

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾[المائدة: ٥٤] يقول: ولا يخافون في ذات اللَّه أحدًا، ولا يصدهم عن العمل بما أمرهم اللَّه به من قتال عدوهم لومة لائم لهم في ذلك»[(١)].

قال ابن كثير ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾[المائدة: ٥٤]؛ أي: لا يردُّهم عما هم فيه من طاعة الله، وإقامة الحدود، وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك رادٌّ، ولا يصدهم عنه صادٌّ، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل»[(٢)].

عن أبي ذر قال: أمرني خليلي ﷺ بحب المساكين، والدنوِّ منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحدًا شيئًا، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرًّا، وأمرني أن لا أخاف في اللَّه لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن من كنز تحت العرش»[(٣)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرِّب من أجل، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق، أو أن يذكر بعظم»[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري (١٨٥/٦، ١٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٢٦١/٥).

(٣) **إسناده صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» (١٥٩/٥)، والنسائي في «الكبرى» (١٠١٨٦)، وفي «عمل اليوم والليلة» (٣٥٤)، والطبراني في «الأوسط» (٧٧٣٩)، وفي «الصغير» (٢٦٨/١)، والبيهقي في «الكبرى» (٩١/١٠)، وفي «الشعب» (٩٣/٦، ٩٤) (٧٥٨٣).

(٤) **صحيح**: رواه أحمد «مسنده» (٥/٣، ٤٤، ٤٦، ٥٠، ٥٣، ٧١، ٨٧، ٩٢)، واللفظ له، وأبو يعلى في «مسنده» (١٤١١)، والطبراني في «الأوسط» (٢٨٠٤)، وعبد بن حميد في «مسنده» كما في=

قال القرطبي: «قوله ـ تعَالَى ـ: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في موضع الصفة ـ أيضًا ـ. ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ [المائدة: ٥٤] بخلاف المنافقين يخافون الدوائر، فدلَّ بهذا على تثبيت إمامة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ؛ لأنهم جاهدوا في اللَّه عَزَّلَ وَجَلَّ في حياة رسول اللَّه ﷺ، وقاتلوا المرتدين بعده، ومعلوم أن من كانت فيه هذه الصفات فهو ولي لله ـ تعَالَى ـ. وقيل: الآية عامة في كل من يجاهد الكفار إلى قيام الساعة. واللَّه أعلم»[(١)].

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٥٤] من خلقه؛ مِنَّة عليه وتطوُّلًا. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤] يقول: واللَّه جواد بفضله على من جاد به عليه، لا يخاف نفاد خزائنه فيكف من عطائه، عليم بموضع جوده وعطائه، فلا يبذله إلا لمن استحقه، ولا يبذل لمن استحقه إلا على قدر المصلحة؛ لعلمه بموضع صلاحه له من موضع ضره»[(٢)].

«هنا ـ في صفة العصبة المؤمنة المختارة لهذا الدين ـ يرد ذلك النص العجيب: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، ويطلق شحنته كلها في هذا الجو، الذي يحتاج إليه القلب المؤمن، وهو يضطلع بهذا العبء الشاق شاعرًا أنه الاختيار والتفضل والقربى من المنعم الجليل.

ثم يمضي السياق يعرض بقية السمات: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].. وهي صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين.. فالمؤمن ذلول للمؤمن.. غير

= «المنتخب» من المسند (٨٦٩)، والطيالسي في «مسنده» (٢١٥١، ٢١٥٦، ٢١٥٨)، والترمذي في كتاب الفتن ـ باب ما جاء فيما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة، حديث (٢١٩١)، وابن ماجه (٤٠٠٧)، والحاكم (٤/٥٠٦)، وأبو يعلى (١٢١٢)، وابن حبان (٢٧٥، ٢٧٨)، والطبراني في «الأوسط» (٤٩٠٦)، و«الصغير» (١/٢٥٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/٩٨، ٩٩)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/٩٠)، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» (١٦٨).

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٢١٧، ٢٢١٨).

(٢) تفسير الطبري (٦/١٨٦).

عصيٌّ عليه ولا صعب. هين لين.. ميسر مستجيب.. سمح ودود.. وهذه هي الذلة للمؤمنين.

وما في الذلة للمؤمنين من ذلة ولا مهانة، إنما هي الأخوة، ترفع الحواجز، وتزيل التكلف، وتخلط النفس بالنفس، فلا يبقى فيها ما يستعصي وما يحتجز دون الآخرين.

إن حساسية الفرد بذاته متحوصلة متحيزة هي التي تجعله شموسًا عصيًّا شحيحًا على أخيه. فأما حين يخلط نفسه بنفوس العصبة المؤمنة معه، فلن يجد فيها ما يمنعه وما يستعصي به.. وماذا يبقى له في نفسه دونهم، وقد اجتمعوا في اللَّه إخوانًا؛ يحبهم ويحبونه، ويشيع هذا الحب العلوي بينهم ويتقاسمونه؟!

﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[المائدة: ٥٤]..

فيهم على الكافرين شِمَاسٌ وإبَاءٌ واستعلاءٌ.. ولهذا الخصائص هنا موضع.. إنها ليست العزة للذات، ولا الاستعلاء للنفس. إنما هي العزة للعقيدة، والاستعلاء للراية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين.

إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير، وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذي معهم، لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم، ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين وما عند الآخرين.

ثم هي الثقة بغلبة دين اللَّه دينَ الهوى؛ وبغلبة قوة اللَّه على تلك القوى؛ وبغلبة حزب اللَّه على أحزاب الجاهلية.. فهم الأعلون حتى وهم ينهزمون في بعض المعارك، في أثناء الطريق الطويل..

﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ [المائدة: ٥٤]..

فالجهاد في سبيل الله؛ لإقرار منهج اللَّه في الأرض، وإعلان سلطانه على البشر، وتحكيم شريعته في الحياة؛ لتحقيق الخير والصلاح والنماء للناس.. هي صفة العصبة المؤمنة التي يختارها الله؛ ليصنع بها في الأرض ما يريد.. وهم يجاهدون في سبيل

الله؛ لا في سبيل أنفسهم، ولا في سبيل قومهم؛ ولا في سبيل وطنهم؛ ولا في سبيل جنسهم.. في سبيل الله؛ لتحقيق منهج الله، وتقرير سلطانه، وتنفيذ شريعته، وتحقيق الخير للبشر عامة عن هذا الطريق.. وليس لهم في هذا الأمر شيء، وليس لأنفسهم من هذا حظ، إنما هو لله، وفي سبيل الله بلا شريك..

وهم ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]..

وفيم الخوف من لوم الناس، وهم قد ضمنوا حب رب الناس؟ وفيم الوقوف عند مألوف الناس، وعرف الجيل، ومتعارف الجاهلية، وهم يتبعون سنة الله، ويعرضون منهج اللَّه للحياة؟ إنما يخشى لوم الناس من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس؛ ومن يستمد عونه ومدده من عند الناس؛ أما من يرجع إلى موازين اللَّه ومقاييسه وقيمه؛ ليجعلها تسيطر على أهواء الناس وشهواتهم وقيمهم؛ ومن يستمد قوته وعزته من قوة اللَّه وعزته، فما يبالي ما يقول الناس وما يفعلون، كائنًا هؤلاء الناس ما كانوا؛ وكائنًا واقع هؤلاء الناس ما كان، وكائنة «**حضارة**» هؤلاء الناس وعلمهم وثقافتهم ما تكون!

إننا نحسب حسابًا لما يقول الناس، ولما يفعل الناس، ولما يملك الناس، ولما يصطلح عليه الناس، ولما يتخذه الناس في واقع حياتهم من قيم واعتبارات وموازين.. لأننا نغفل أو نسهو عن الأصل الذي يجب أن نرجع إليه في الوزن والقياس والتقويم.. إنه منهج اللَّه وشريعته وحكمه.. فهو وحده الحق، وكل ما خالفه فهو باطل؛ ولو كان عرف ملايين الملايين، ولو أقرته الأجيال في عشرات القرون!

إنه ليست قيمة أي موضع، أو أي عرف، أو أي تقليد، أو أية قيمة.. أنه موجود، وأنه واقع، وأن ملايين البشر يعتنقونه، ويعيشون به، ويتخذونه قاعدة حياتهم. فهذا ميزان لا يعترف به التصور الإسلامي. إنما قيمة أي وضع، وأي عرف، وأي تقليد، وأية قيمة، أن يكون لها أصل في منهج الله، الذي منه ـ وحده

تستمد القوانين»(١).

هذه سمة المؤمنين المختارين، وذلك فضل الله، يعطي عن سعة، ويعطي عن علم.. وما أوسع هذا العطاء؛ الذي يختار اللَّه له من يشاء عن علم، وعن تقدير.

٢- قال - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ۝٤﴾ **[الصف: ٤]**.

«عن عبداللَّه بن سلام رضي الله عنه قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول اللَّه ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى اللَّه لعملناه، فأنزل اللَّه - تعالى -: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: ١، ٢] قال عبداللَّه بن سلام: فقرأها علينا رسول اللَّه ﷺ»(٢).

وأخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: ٢] قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يُفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن اللَّه دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعمل به، فأخبر اللَّه نبيه أن أحب الأعمال إليه إيمان باللَّه لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد، كره ذلك أناس من المؤمنين وشقَّ عليهم أمره، فقال اللَّه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ۝٤﴾.

---

(١) في ظلال القرآن (٢/٩١٩، ٩٢٠).

(٢) **إسناده صحيح**: أخرجه الترمذي (٥/٤١٢، ٤١٣) حديث (٣٣٠٩)، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الصف، وأخرجه الدارمي (٢/٢٠٠)، وابن حبان في «صحيحه» (الإحسان - ١٠/٤) حديث (٤٥٩٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢/٦٩) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وأشار إليه الحافظ ابن حجر فقال: «إسناده صحيح قَلَّ أن وقع في المسلسلات مثله مع مزيد علوّه» (فتح الباري) (٨/٥٠٩).

وأخرج الطبري - أيضًا - بسنده الحسن عن قتادة قوله: «ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه، كذلك تبارك وتعالى لا يختلف أمره، وإن اللَّه وصف المؤمنين في قتالهم وصفهم في صلاتهم، فعليهم بأمر اللَّه فإنه عصمة لمن أخذ به»[1].

قال سعيد بن جبير: «كان رسول اللَّه ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم، وهذا تعليم من اللَّه للمؤمنين»[2].

قال القرطبي: يصفون صفًّا؛ أي: يصفُّون أنفسهم صفًّا - ومعنى الآية: يحب من يثبت في الجهاد في سبيل اللَّه ويلزم مكانه كثبوت البناء»[3].

وقال القاسمي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ قال القاشاني: لأن بذل النفس في سبيل اللَّه لا يكون إلا عند خلوص النفس في محبة الله؛ إذ المرء إنما يحب كل ما يحب من دون اللَّه لنفسه. فأصل الشرك ومحبة الأنداد محبة النفس، فإذا سمح بالنفس، كان غير محب لنفسه، وإذا لم يحب نفسه فبالضرورة لم يحب شيئًا من الدنيا. وإذا كان بذله للنفس في اللَّه وفي سبيله لا للنفس، كما قال: ترك الدنيا للدنيا، كانت محبة اللَّه في قلبه راجحة على محبة كل شيء، فكان من الذين قال فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وإذا كانوا كذلك يلزم محبة اللَّه إياهم؛ لقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. انتهى.

في ذكر هذه الآية عقيب مقت المخلف دليل على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا بالثبات في قتال الكفار، فلم يفوا. انتهى.

---

(١) التفسير الصحيح موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، للأستاذ الدكتور حكمت بن بشير بن ياسين (٤٨١/٤، ٤٨٢)، دار المآثر - المدينة النبوية.

(٢) تفسير ابن كثير - مختصر تفسير ابن كثير، لهاني الحاج (٥٣٧/٣).

(٣) تفسير القرطبي (٦٥٦٠/٩).

وأيده الناصر من الوجهة البيانية بأن الأول كالبسطة العامة لهذه القصة»[1]

وقفة مع آيات سورة الصف:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٢- ٤].

نقف أمام موضوعات شتى للحديث، والملاحظة، والعبرة.

نقف أولاً أمام النفس البشرية التي تلم بها لحظات الضعف الطارئة، فلا يعصمها منها إلا عون الله، وإلا التذكير الدائم، والتوجيه الدائم، والتربية الدائمة.. فهؤلاء جماعة من المسلمين قيل في بعض الروايات: إنهم من المهاجرين الذين كانوا يتمنون أن يأذن اللَّه لهم في القتال وهم في مكة من شدة الحماس والاندفاع. وكانوا يؤمرون بكف أيديهم وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ [النساء: ٧٧] في المدينة في الوقت المناسب الذي قدره اللَّه ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ﴾ [النساء: ٧٧].. أو هم جماعة من المسلمين في المدينة كانوا يسألون عن أحب الأعمال إلى الله؛ ليفعلوه، فلما أمروا بالجهاد كرهوه!

وهذه الوقفة كفيلة بأن تفتح أعيننا على ضرورة الموالاة للنفس البشرية بالتقوية والتثبيت والتوجيه، وهي تواجه التكاليف الشاقة؛ لتستقيم في طريقها، وتتغلب على لحظات ضعفها، وتتطلع دائمًا إلى الأفق البعيد. كما تلهمنا أن نتواضع في طلب التكاليف وتمنيها ونحن في حالة العافية! فلعلنا لا نقوى على ما نقترح على اللَّه حين يكلفنا إياه! وهؤلاء جماعة من المسلمين الأوائل يضعفون ويقولون ما لا يفعلون؛ حتى يعاتبهم اللَّه هذا العتاب الشديد، وينكر عليهم هذا الإنكار المخيف!

---

(١) محاسن التأويل، للقاسمي (١٦/٥٧٨٢ - ٥٧٨٣)، طبعة عيسى الحلبي.

ونقف ثانية أمام حب الله للذين ﴿يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

نقف أمام هذا الإغراء القوي العميق على القتال في سبيل الله.. وأول ما يسجل هنا أنه كان لمواجهة حالة تقاعس وتخلف وكراهية للقتال. ولكن هذا السبب الغريب في الحادث المحدود لا ينفي أن الحض عام، وأن وراءه حكمة دائمة.

إن الإسلام لا يتشهي القتال، ولا يريده حبًّا فيه. ولكنه يفرضه؛ لأن الواقع يحتمه، ولأن الهدف الذي وراءه كبير. فالإسلام يواجه البشرية بالمنهج الإلهي في صورته الأخيرة المستقرة. وهذا المنهج ـ ولو أنه يلبي الفطرة المستقيمة ـ إلا أنه يكلف النفوس جهدًا لتسمو إلى مستواه، ولتستقر على هذا المستوى الرفيع.

وهناك قوى كثيرة في هذه الأرض لا تحب لهذا المنهج أن يستقر؛ لأنه يسلبها كثيرًا من الامتيازات، التي تستند إلى قيم باطلة زائفة، يحاربها هذا المنهج ويقضي عليها حين يستقر في حياة البشر. وهذه القوى تستغل ضعف النفوس عن البقاء في المستوى الإيماني وتكاليفه، كما تستغل جهل العقول، وموروثات الأجيال؛ لتعارض هذا المنهج، وتقف في طريقه. والشر عارم. والباطل متبجح. والشيطان لئيم!

ومن ثم يتعين على حملة الإيمان وحراس المنهج أن يكونوا أقوياء؛ ليغلبوا عملاء الشر وأعوان الشيطان. أقوياء في أخلاقهم، وأقوياء في قتال خصومهم على السواء. ويتعين عليهم أن يقاتلوا عندما يصبح القتال هو الأداة الوحيدة لضمان حرية الدعوة للمنهج الجديد، وحرية الاعتقاد به، وحرية العمل وفق نظامه المرسوم.

وهم يقاتلون في سبيل الله.. لا في سبيل ذواتهم أو عصبيتهم من أي لون.. عصبية الجنس، وعصبية الأرض، وعصبية العشيرة، وعصبية البيت.. في سبيل الله وحده؛ لتكون كلمة الله هي العليا. والرسول ﷺ يقول: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي.

ومنهج اللَّه في صورته الأخيرة التي جاء بها الإسلام هو الذي يتناسق مع ذلك الناموس، ويجعل الكون كله ـ والناس من ضمنه ـ يحكمون بشريعة الله. لا بشريعة يضعها سواه.

ولم يكن بد أن يقاومه أفراد، وأن تقاومه طبقات، وأن تقاومه دول. ولم يكن بد كذلك أن يمضي الإسلام في وجه هذه المقاومة، ولم يكن بد أن يكتب الجهاد على المسلمين؛ لنصرة هذا المنهج، وتحقيق كلمة اللَّه في الأرض. ولهذا أحب اللَّه ـ سبحانه ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾ .

ونقف ثالثًا أمام الحالة التي يحب اللَّه للمجاهدين أن يقاتلوا وهم عليها: ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾ .. فهو تكليف فردي في ذاته، ولكنه فردي في صورة جماعية. في جماعة ذات نظام. ذلك أن الذين يواجهون الإسلام يواجهونه بقوى جماعية، ويؤلبون عليه تجمعات ضخمة؛ فلا بد لجنود الإسلام أن يواجهوا أعداءه صفًّا؛ صفًّا سويًّا منتظمًا، وصفًّا متينًا راسخًا، ذلك إلى أن طبيعة هذا الدين حين يغلب ويهيمن أن يهيمن على جماعة، وأن ينشئ مجتمعًا متماسكًا.. متناسقًا. فصورة الفرد المنعزل الذي يعبد وحده، ويجاهد وحده، ويعيش وحده، صورة بعيدة عن طبيعة هذا الدين، وعن مقتضياته في حالة الجهاد، وفي حالة الهيمنة بعد ذلك على الحياة.

وهذه الصورة التي يحبها اللَّه للمؤمنين ترسم لهم طبيعة دينهم، وتوضح لهم معالم الطريق، وتكشف لهم عن طبيعة التضامن الوثيق الذي يرسمه التعبير القرآني المبدع: ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾ .. بنيان تتعاون لبناته وتتضام وتتماسك، وتؤدي كل لبنة دورها، وتسد ثغرتها؛ لأن البنيان كله ينهار إذا تخلت منه لبنة عن مكانها. تقدمت أو تأخرت سواء. وإذا تخلت منه لبنة عن أن تمسك بأختها تحتها أو فوقها أو على جانبيها سواء.. إنه التعبير المصور للحقيقة لا لمجرد التشبيه العام. التعبير المصور لطبيعة الجماعة، ولطبيعة ارتباط الأفراد في الجماعة. ارتباط الشعور،

وارتباط الحركة، داخل النظام المرسوم، المتجه إلى هدف مرسوم[١].

❏ تجارة مع الله.. فيها غفران الذنوب، ودخول جنات عدن.. والنصر على الأعداء، ورضا الله:

٣ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [**الصف: ١٠ـ ١٣**].

قال ابن جرير الطبري: «يقول ـ تعالى ذكره ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ موجع، وذلك عذاب جهنم، ثم بين لنا ـ جل ثناؤه ـ ما تلك التجارة التي تنجينا من العذاب الأليم، فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ، ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾؛ يقول ـ تعالى ذكره ـ: وتجاهدون في دين الله وطريقه الذي شرعه لكم بأموالكم وأنفسكم، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تضيع ذلك والتفريط، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مضار الأشياء ومنافعها.

عن قتادة: قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم﴾ الآية، فلولا أن الله بيَّنها، ودلَّ عليها المؤمنين لتلهَّف عليها رجال أن يكونوا يعلمونها، حتى يضنوا بها، وقد دلكم الله عليها، وأعلمكم إياها، فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾»[٢].

قال الحافظ ابن كثير: «فسَّر هذه التجارة العظيمة، التي لا تبور، والتي هي محصلة للمقصود، ومزيلة للمحذور، فقال ـ تعالى ـ: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾؛ أي: من تجارة

---

(١) الظلال (٦/٣٥٥٥).

(٢) الطبري (١١/٩٠).

الدنيا والكدِّ لها والتصدي لها وحدها. ثم قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؛ أي: إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه غفرت لكم الزلَّات وأدخلتكم الجنات والمساكن الطيبات والدرجات العاليات، ولهذا قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١).

قال ابن جرير «يستر عليكم ربكم ذنوبكم إذا أنتم فعلتم ذلك، فيصفح عنكم ويعفو، ويدخلكم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار، ويدخلكم ـ أيضًا ـ مساكن ﴿طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ يعني: في بساتين إقامة، لا ظعن فيها»(٢).

قال القرطبي: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ أي: السعادة الدائمة الكبيرة، وأصل الفوز: الظفر بالمطلوب(٣).

قال ابن كثير: ثم قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾؛ أي: وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها، وهي: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾؛ أي: إذا قاتلتم في سبيله ونصرتم دينه تكفَّل اللَّه بنصركم، كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد: ٧]، وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾؛ أي: عاجل، فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع اللَّه ورسوله ونصر اللَّه ودينه، ولهذا قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: قال ابن جرير: «وبشر يا محمد المؤمنين بنصر اللَّه إياهم على عدوهم، وفتح عاجل لهم»(٥).

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٥٤٠).
(٢) الطبري (١١/٩٠).
(٣) تفسير القرطبي (٩/٦٥٦٧).
(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٥٤٠).
(٥) تفسير الطبري (١١/٩١).

قال القرطبي: «وبشر المؤمنين برضا اللّه عنهم»[١].

قال القاسمي عن سورة الصف: «كان القصد منها تشجيع المؤمنين على قتال محاربيهم، والثبات أمامه، والتحذير من الزيغ عن ذلك، والترغيب في السخاوة ببذل الأنفس والأموال في سبيل الحق؛ لإعلاء شأنه، وإزهاق الباطل»[٢].

«في ظلال قصة العقيدة، وفي مواجهة وعد اللّه بالتمكين لهذا الدين الأخير، يهتف القرآن الكريم بالذين آمنوا.. من كان يواجه ذلك الخطاب ومن يأتي بعدهم من المؤمنين إلى يوم الدين.. يهتف بهم إلى أربح تجارة في الدنيا والآخرة؛ تجارة الإيمان باللّه والجهاد في سبيل الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

وصيغة التعبير بما فيها من فصل ووصل، واستفهام وجواب، وتقديم وتأخير، صيغة ظاهر فيها القصد إلى إقرار هذا الهتاف في القلوب بكل وسائل التأثير التعبيرية.

يبدأ بالنداء باسم الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.. يليه الاستفهام الموحي، فاللّه ـ سبحانه ـ هو الذي يسألهم ويشوقهم إلى الجواب: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

ومن ذا الذي لا يشتاق لأن يدله اللّه على هذه التجارة؟ وهنا تنتهي هذه الآية، وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق، ثم يجيء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.. وهم مؤمنون باللّه ورسوله، فتشرق

---

(١) تفسير القرطبي (٩/٦٥٦٨).

(٢) محاسن التأويل، للقاسمي (١٦/٥٧٩٣).

قلوبهم عند سماع شطر الجواب، هذا المتحقق فيهم! ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾.. وهو الموضوع الرئيس الذي تعالجه السورة، يجيء في هذا الأسلوب، ويكرر هذا التكرار، ويساق في هذا السياق، فقد علم اللَّه أن النفس البشرية في حاجة إلى هذا التكرار، وهذا التنويع، وهذه الموحيات؛ لتنهض بهذا التكليف الشاق، الضروري الذي لا مفرَّ منه لإقامة هذا المنهج وحراسته في الأرض.. ثم يعقب على عرض هذه التجارة التي دلهم عليها بالتحسين والتزيين: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.. فعلم الحقيقة يقود من يعلم إلى ذلك الخير الأكيد.. ثم يفَصِّل هذا الخير في آية تالية مستقلة؛ لأن التفصيل بعد الإجمال يشوق القلب إليه، ويقره في الحس، ويمكن له: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.. وهذه وحدها تكفي، فمن ذا الذي يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شيء؟ أو يدخر في سبيلها شيئًا؟ ولكن فضل اللَّه ليس له حدود. ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾.. وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة - حتى حين يفقد هذه الحياة كلها -، ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم.. وحقًّا.. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وكأنما ينتهي هنا حساب التجارة الرابحة، وإنه لربح ضخم هائل أن يعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة، فالذي يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من في السوق، فكيف بمن يتجر في أيام قليلة معدودة في هذه الأرض، ومتاع محدود في هذه الحياة الدنيا، فيكسب به خلودًا لا يعلم له نهاية إلا ما شاء الله، ومتاعًا غير مقطوع ولا ممنوع؟

ولقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول اللَّه ﷺ وعبداللَّه بن رواحة رضي الله عنه ليلة العقبة؛ قال لرسول اللَّه ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال ﷺ: **«أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم»**.. قال: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: **«الجنة»** قالوا: ربح البيع

لا نقيل ولا نستقيل! ولكن فضل اللَّه عظيم. وهو يعلم من تلك النفوس أنها تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض، يناسب تركيبها البشري المحدود، وهو يستجيب لها فيبشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض، وتحقيق منهجه وهيمنته على الحياة في ذلك الجيل: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾..

وهنا تبلغ الصفقة ذروة الربح الذي لا يعطيه إلا الله. اللَّه الذي لا تنفد خزائنه، والذي لا ممسك لرحمته، فهي المغفرة والجنات والمساكن الطيبة والنعيم المقيم في الآخرة. وفوقها ـ فوق البيعة الرابحة والصفقة الكاسبة ـ النصر والفتح القريب.. فمن الذي يدله اللَّه على هذه التجارة ثم يتقاعس عنها أو يحيد؟!

وهنا يعن للنفس خاطر أمام هذا الترغيب والتحبيب.. إن المؤمن الذي يدرك حقيقة التصور الإيماني للكون والحياة، ويعيش بقلبه في هذا التصور، ويطلع على آفاقه وآماده، ثم ينظر للحياة بغير إيمان، في حدودها الضيقة الصغيرة، وفي مستوياتها الهابطة الواطية، وفي اهتماماتها الهزيلة الزهيدة.. هذا القلب لا يطيق أن يعيش لحظة واحدة بغير ذلك الإيمان، ولا يتردد لحظة واحدة في الجهاد لتحقيق ذلك التصور الضخم الوسيع الرفيع في عالم الواقع؛ ليعيش فيه، وليرى الناس من حوله يعيشون فيه كذلك.. ولعله لا يطلب على جهاده هذا أجرًا خارجًا عن ذاته، فهو ذاته أجر.. هذا الجهاد.. وما يسكبه في القلب من رضىً وارتياح، ثم إنه لا يطيق أن يعيش في عالم بلا إيمان، ولا يطيق أن يقعد بلا جهاد لتحقيق عالم يسوده الإيمان، فهو مدفوع دفعًا إلى الجهاد، كائنًا مصيره فيه ما يكون.

ولكن اللَّه ـ سبحانه ـ يعلم أن النفس تضعف، وأن الاندفاع يهبط، وأن الجهد يكل، وأن حب السلامة قد يهبط بتلك المشاعر كلها، ويقودها إلى الرضى بالواقع الهابط..

ومن ثم يجاهد القرآن هذه النفس ذلك الجهاد، ويعالجها ذلك العلاج، ويهتف

لها بالموحيات والمؤثرات ذلك الهتاف المتكرر المتنوع، في شتى المناسبات. ولا يَكِلُها إلى مجرد الإيمان، ولا إلى نداء واحد باسم هذا الإيمان»[(١)].

❑ **المجاهدون أنصار الله:**

٤ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤].

فيها قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى، فقراة عامة قراء المدينة والبصرة بتنوين الأنصار ﴿كونوا أنصارًا لله﴾[(٢)]، وقرأ عامة قُرَّاء الكوفة بإضافة الأنصار إلى الله «ومعنى الكلام: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، كونوا أنصار الله، ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ يعني: من أنصاري منكم إلى نصرة الله.

قال قتادة: «قد كانت لله أنصار من هذه الأمة، تجاهد على كتابه وحقه، وذُكِر لنا أنه بايعه ليلة العقبة اثنان وسبعون رجلًا من الأنصار. ذُكِر لنا أن بعضهم قال: هل تدرون علام تُبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعون على محاربة العرب كلها أو يسلموا. ذُكر لنا أن رجلًا قال: يا نبي الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت. قال: «**أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما منعتم منه أنفسكم وأبناءكم**»؛ قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا نبي الله؟ قال: «**لكم النصر في الدنيا، والجنة في الآخرة**»، ففعلوا ففعل الله».

وعن معمر قال: تلا قتادة: ﴿كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال: قد كان ذلك بحمد الله، جاءه سبعون رجلًا فبايعوه عند العقبة، فنصروه وآووه حتى أظهر الله دينه».

---

(١) الظلال (٦/٣٥٥٩، ٣٥٦٠).

(٢) قراءة نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر.

قال مجاهد: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟ قال: من يتبعني إلى الله؟[١]

قال ابن كثير: «يقول - تَعَالَى - آمرًا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصارًا لله في جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم، وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: مَن معيني في الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؟ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: نحن أنصارك على ما أرسلت به، ومؤازروك على ذلك؛ ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام؛ في الإسرائيليين واليونانيين، وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: «**من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي؟ فإن قريشًا قد منعوني أن أُبلِّغ رسالة ربي**»[٢] حتى قيَّض الله عَزَّ وَجَلَّ له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه، ووازروه، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه، ولهذا سمَّاهم الله ورسوله الأنصار، وصار ذلك علمًا عليهم - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وأرضاهم.

فأمة محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ - لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، حتى يقاتل آخرهم الدَّجال مع المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح. والله أعلم»[٣].

وقال القرطبي: «أكَّد أمر الجهاد؛ أي: كونوا حَوَارِيِّ نبيكم؛ ليظهركم الله على من خالفكم، كما أظهر حواري عيسى على من خالفهم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمر ونافع ﴿كونوا أنصارًا لله﴾ بالتنوين. قالوا: لأن معناه اثبتوا وكونوا أعوانًا لله بالسيف على أعدائه.

---

(١) تفسير الطبري (١١/٩١، ٩٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح السنن».

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٥٤٠، ٥٤١).

وقرأ الباقون من أهل البصرة والكوفة والشام ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ بلا تنوين، وحذفوا لام الإضافة من اسم الله ـ تَعَالَى ـ واختاره أبو عبيد، ومعناه: كونوا أنصارًا لدين الله[1].

قال القاسمي: «فيه بشارة للمؤمنين بالتأييد الرَّباني لهم، ما داموا متناصرين على الحق، مجتمعين عليه، غير متفرقين عنه ولا متخاذلين، كما وقع لسلفهم؛ اتفقوا فملكوا، وإلا فإذا تفرَّقوا هلكوا»[2].

«الآية هنا تهدف إلى تصوير موقف، لا إلى تفصيل قصة، فنسير نحن معها في ظلالها المقصودة إلى الغاية من سردها في هذا الموضع من السورة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾.. في هذا الموضع الكريم الذي يرفعكم إليه الله. وهل أرفع من مكان يكون فيه العبد نصيرًا للرب؟!

إن هذه الصفة تحمل من التكريم ما هو أكبر من الجنة والنعيم.. ﴿كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ﴾.. فانتدبوا لهذا الأمر ونالوا هذا التكريم. وعيسى جاء ليبشر بالنبي الجديد والدين الجديد.. فما أجدر أتباع محمد أن ينتدبوا لهذا الأمر الدائم، كما انتدب الحواريون للأمر الموقوت! وهذه هي اللمسة الواضحة في عرض هذا الحوار في هذا السياق.

والعبرة المستفادة من هذه الإشارة ومن هذا النداء هي استنهاض همة المؤمنين بالدين الأخير، الأمناء على منهج الله في الأرض، ورثة العقيدة والرسالة الإلهية، المختارين لهذه المهمة الكبرى استنهاض همتهم لنصرة الله ونصرة دينه.. والنصر في النهاية لأنصار الله المؤمنين»[3].

---

(١) تفسير القرطبي (٩/٦٥٦٨).

(٢) محاسن التأويل، للقاسمي (١٦/٥٧٩٤).

(٣) الظلال (٦/٣٥٥٦، ٣٥٥٧).

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما من نبي بعثه اللَّه في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويتقيَّدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»(١).

❑ **الجهاد سبيل النبيين والصالحين، وثوابه عظيم في الدنيا، وحسن الثواب في الآخرة.**

٤- قال - تعالى -: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ **[آل عمران: ١٤٦- ١٤٨]**.

قال الطبري - رحمه اللَّه -: «اختلف القُرَّاء في قراءة ذلك؛ فقرأ بعضهم: ﴿وَكَأَيِّن﴾ بهمز الألف وتشديد الياء، وقرأ آخرون بمد الألف وتخفيف الياء، وهما قراءتان مشهورتان في قراءة المسلمين، ولغتان معروفتان لا اختلاف في معناهما.. ومعناه: وكم من نبي.

القول في تأويل: ﴿قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ اختلفت القرَّاء في قراءة قوله: ﴿قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾؛ فقرأ ذلك جماعة من قرَّاء الحجاز والبصرة ﴿قُتِلَ﴾ بضم القاف، وقرأ جماعة أخرى بفتح القاف وبالألف، وهي قراءة جماعة من قُرَّاء الحجاز والكوفة.

فأما من قرأ: ﴿قَـٰتَلَ﴾ فإنه اختار ذلك؛ لأنه قال لو قُتِلوا لم يكن لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟﴾ وجه معروف؛ لأنه يستحيل أن يوصفوا بأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا بعد ما

(١) رواه أحمد ومسلم.

قُتِلوا.

وأما الذين قرءوا ﴿قَٰتَلَ﴾ فإنهم قالوا: إنما عني بالقتل النبي وبعض من معه من الربيين دون جميعهم، وإنما نفى الوهن والضعف عمن بقي من الربيين ممن لم يُقتل.

وأَوْلَى القراءتين في ذلك عندنا بالصواب قراءة من قرأ بضم القاف ﴿قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾؛ لأن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ إنما عاتب بهذه الآية والآيات التي قبلها من قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

الذين انهزموا يوم «أحد» وتركوا القتال أو سمعوا الصائح يصيح: إن محمدًا قد قُتل، فعذلهم اللَّه عَزَّ وَجَلَّ على فرارهم وتركهم القتال، فقال: أفإن مات محمد أو قتل أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم وانقلبتم على أعقابكم، ثم أخبرهم عما كان من فعل كثير من أتباع الأنبياء قبلهم، وقال لهم: هلَّا فعلتم كما كان أهل الفضل والعلم من أتباع الأنبياء قبلكم يفعلون؛ إذ قُتِل نبيهم من المضي على منهاج نبيهم والقتال ـ على دينه ـ أعداء دين اللَّه على نحو ما كانوا يقاتلون مع نبيهم، ولم تهنوا ولم تضعفوا كما لم يضعف الذين كانوا قبلكم من أهل العلم والبصائر من أتباع الأنبياء إذ قُتِل نبيهم، ولكنهم صبروا لأعدائهم حتى حكم اللَّه بينهم وبينهم»[١].

والربيون هم الجماعة، واحدهم: رِبِيٌّ.

قال عبداللَّه بن مسعود: الربيون: الألوف، وقال ابن عباس: ربيون: جموع كثيرة، وعنه أيضًا: علماء كثيرون. وقال الحسن: فقهاء علماء، وعنه: الجموع الكثيرة، وهو قول عكرمة أيضًا، ومجاهد، والضحاك.

﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

---

(١) تفسير الطبري (٤/٧٧).

قال ابن جرير: «فما عجزوا لما نالهم من ألم الجراح الذي نالهم في سبيل الله، ولا لقتل من قُتل منهم عن حرب أعداء الله، ولا نكلوا عن جهادهم.

﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾: وما ذلوا فيتخشعوا لعدوِّهم بالدخول في دينهم ومداهنتهم فيه؛ خيفة منهم، ولكنهم مضوا قدمًا على بصائرهم ومنهاج نبيهم صبرًا على أمر الله وأمر نبيهم، وطاعة لله، واتباعًا لتنزيله ووحيه.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يقول: والله يحب هؤلاء وأمثالهم من الصابرين لأمره وطاعته وطاعة رسوله في جهاد عدوه، لا من فشل ففرَّ عن عدوه، ولا من انقلب على عقبيه فذلَّ لعدوه؛ لِأَنْ قُتل نبيه أو مات، ولا من دخله وهن عن عدوه، وضعف لفقد نبيه»[1].

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

«وما كان قول الربيين؛ يعني: ما كان لهم قول سوى هذا القول إذ قُتِل نبيهم.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾: لم يعتصموا إذْ قُتِل نبيهم إلا بالصبر على ما أصابهم ومجاهدة عدوهم، وبمسألة ربهم المغفرة والنصر على عدوهم.

﴿ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ الصغار منها، وما أسرفنا فيه منها، فتخطينا إلى العظام.

قال ابن عباس في قول الله: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾؛ قال: خطايانا. وقال الضحاك بن مزاحم: الكبائر.

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾: اجعلنا ممن يثبت لحرب عدوك وقتالهم، ولا تجعلنا ممن ينهزم فيفرُّ منهم ولا يثبت قدمه في مكان واحد لحربهم، وانصرنا على الذين جحدوا وحدانيتك ونبوة نبيك.

---

(١) تفسير الطبري (٤/٧٨).

وإنما هذا تأنيبٌ من اللهﻷ عباده الذين فروا عن العدو يوم «**أحد**» وتركوا قتالهم، وتأديبٌ لهم[1].

قال ابن القيم: «أخبر ـ سبحانه ـ عما استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم، وتوبتهم، واستغفارهم، وسؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم، وأن ينصرهم على أعدائهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

لما علم القوم أن العدو إنما يُدال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصير في حق، أو تجاوز لحد، وأن النصرة منوطة بالطاعة، قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾، ثم علموا أن ربهم ـ تبارك وتعالى ـ إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم، لم يقدروا هم على تثبيت أقدام أنفسهم، ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم، وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم لم يثبتوا ولم ينتصروا، فوفَّوا المقامين حقهما: مقام المقتضى، وهو التوحيد والالتجاء إليه ـ سبحانه ـ. ومقام إزالة المانع من النصرة، وهو الذنوب والإسراف»[2].

وفي «**صحيح مسلم**» عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري**».

قال القرطبي «﴿وَكَأَيِّن﴾ بمعنى كم. قال الخليل وسيبويه: هي أن دخلت عليها كاف التشبيه، وبُنيت معها، فصار في الكلام بمعنى كم.

قرأ ابن كثير: ﴿وَكَائِن﴾ على وزن فاعل، وأصله كَيْءٍ، فقلبت الياء ألفًا، قال الشاعر:

وكـائِـنْ بـالأبـاطِـح مـن صَـدِيـقٍ ... يَـرَانـي لـو أُصـبـتُ هـو المصـابَـا

---

(١) الطبري (٤/٧٩).

(٢) زاد المعاد، لابن القيم.

ومعنى الآية تشجيع المؤمنين، والأمر بالاقتداء بمن تقدَّم من خيار أتباع الأنبياء؛ أي: كثير من الأنبياء قتل معه ربيون كثيرون، أو كثير من الأنبياء قُتِلوا فما ارتدت أممهم؛ قولان: الأول للحسن، وسعيد بن جبير، قال الحسن: ما قُتِل نبي في حرب قط. وقال ابن جبير: ما سمعنا أن نبيًّا قُتِل في القتال. والثاني عن قتادة وعكرمة. والوقف على هذا القول على ﴿قَـٰتَلَ﴾ جائز، وهي قراءة نافع، وابن جبير، وأبي عمرو، ويعقوب. وفيه وجهان: **أحدهما**: أن تكون ﴿قَـٰتَلَ﴾ واقعًا على النبي وحده، وحينئذ يكون تمام الكلام عند قوله: ﴿قَـٰتَلَ﴾، ويكون في الكلام إضمار؛ أي: ومعه ربيون كثير؛ كما يُقال: قاتل الأمير ومعه جيش عظيم. وخرجت معي تجارة؛ أي: ومعي.

الوجه الثاني: أن يكون القتل نال النبي ومن معه من الرِّبيِّين، ويكون وجه الكلام: قُتِل بعض من كان معه، تقول العرب: قتلنا بني تميم وبني سُليم، وإنما قتلوا بعضهم. ويكون قوله ﴿فَمَا وَهَنُوا۟﴾ راجعًا إلى من بقي منهم.

قلت: وهذا القول أشبه بنزول الآية وأنسب، فإن النبي ﷺ لم يُقتل، وقُتِل معه جماعة من أصحابه. وقرأ الكوفيون وابن عامر: ﴿قَـٰتَلَ﴾ وهي قراءة ابن مسعود، واختارها أبو عبيد وقال: إن اللَّه إذا حمد من قاتل كان من قُتِل داخلًا فيه، وإذا حَمِد من قُتِل لم يدخل فيه غيرهم؛ فـ﴿قَـٰتَلَ﴾ أعمُّ وأمدح»[١].

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

ثواب الدنيا يعني: جزاء في الدنيا، وذلك النصر على عدوِّهم وعدو الله، والظفر والفتح عليهم، والتمكين لهم في البلاد.

وحسن ثواب الآخرة يعني: وخير جزاء الآخرة؛ وذلك الجنة ونعيمها.

قال قتادة: أي: والله لآتاهم الله الفتح، والظهور، والتمكين، والنصر على

(١) تفسير القرطبي (٢/١٤٧٠، ١٤٧١، ١٤٧٢).

عدوهم في الدنيا، وحسن الثواب في الآخرة هي الجنة[١].

«يضرب اللَّه للمسلمين المثل من إخوانهم المؤمنين قبلهم. من موكب الإيمان اللاحب الممتد على طول الطريق، الضارب في جذور الزمان.. من أولئك الذين صدقوا في إيمانهم، وقاتلوا مع أنبيائهم، فلم يجزعوا عند الابتلاء، وتأدبوا ـ وهم مقدمون على الموت ـ بالأدب الإيماني في هذا المقام.. مقام الجهاد.. فلم يزيدوا على أن يستغفروا ربهم، وأن يجسموا أخطاءهم فيروها «**إسرافًا**» في أمرهم، وأن يطلبوا من ربهم الثبات والنصر على الكفار.. وبذلك نالوا ثواب الدارين، جزاء إحسانهم في أدب الدعاء، وإحسانهم في وقت الجهاد. وكانوا مثلًا يضربه اللَّه للمسلمين:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

لقد كانت الهزيمة في «**أحد**»، هي أول هزيمة تصدم المسلمين، الذين نصرهم اللَّه ببدر وهم ضعاف قليل؛ فكأنما وقر في نفوسهم أن النصر في كل موقعة هو السنة الكونية. فلما أن صدمتهم «**أحد**»، فوجئوا بالابتلاء كأنهم لا ينتظرونه!

ولعله لهذا طال الحديث حول هذه الواقعة في القرآن الكريم. واستطرد السياق يأخذ المسلمين بالتأسية تارة، وبالاستنكار تارة، وبالتقرير تارة، وبالمثل تارة، تربية لنفوسهم، وتصحيحًا لتصورهم، وإعدادًا لهم. فالطريق أمامهم طويل، والتجارب أمامهم شاقة، والتكاليف عليهم باهظة، والأمر الذي يندبون له عظيم.

والمثل الذي يضربه لهم هنا مثل عام، لا يحدد فيه نبيًّا، ولا يحدد فيه قومًا. إنما

(١) تفسير الطبري (٤/ ٨٠).

يربطهم بموكب الإيمان، ويعلمهم أدب المؤمنين، ويصور لهم الابتلاء كأنه الأمر المطرد في كل دعوة وفي كل دين، ويربطهم بأسلافهم من أتباع الأنبياء؛ ليقرر في حسهم قرابة المؤمنين للمؤمنين، ويقر في أخلادهم أن أمر العقيدة كله واحد. وأنهم كتيبة في الجيش الإيماني الكبير:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾..

وكم من نبي قاتلت معه جماعات كثيرة، فما ضعفت نفوسهم لما أصابهم من البلاء والكرب والشدة والجراح، وما ضعفت قواهم عن الاستمرار في الكفاح، وما استسلموا للجزع ولا للأعداء.. فهذا هو شأن المؤمنين المنافحين عن عقيدة ودين..

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾..

الذين لا تضعف نفوسهم، ولا تتضعضع قواهم، ولا تلين عزائمهم، ولا يستكينون أو يستسلمون.

والتعبير بالحب من اللَّه للصابرين له وقعه، وله إيحاؤه، فهو الحب الذي يأسو الجراح، ويمسح على القرح، ويعوض ويربو عن الضر والقرح والكفاح المرير!

وإلى هنا كان السياق قد رسم الصورة الظاهرة لهؤلاء المؤمنين في موقفهم من الشدة والابتلاء. فهو يمضي بعدها ليرسم الصورة الباطنة لنفوسهم ومشاعرهم؛ صورة الأدب في حق الله، وهم يواجهون الهول الذي يذهل النفوس، ويقيدها بالخطر الراهق لا تتعداه. ولكنه لا يذهل نفوس المؤمنين عن التوجه إلى الله.. لا لتطلب النصر أول ما تطلب ـ وهو ما يتبادر عادة إلى النفوس ـ ولكن لتطلب العفو والمغفرة، ولتعترف بالذنب والخطيئة قبل أن تطلب الثبات والنصر على الأعداء:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

إنهم لم يطلبوا نعمة ولا ثراءً، بل لم يطلبوا ثوابًا ولا جزاءً.. لم يطلبوا ثواب

الدنيا ولا ثواب الآخرة. لقد كانوا أكثر أدبًا مع الله، وهم يتوجهون إليه، بينما هم يقاتلون في سبيله، فلم يطلبوا منه ـ سبحانه ـ إلا غفران الذنوب، وتثبيت الأقدام.. والنصر على الكفار. فحتى النصر لا يطلبونه لأنفسهم إنما يطلبونه هزيمة للكفر وعقوبة للكفار.. إنه الأدب اللائق بالمؤمنين في حق الله الكريم.

وهؤلاء الذين لم يطلبوا لأنفسهم شيئًا، أعطاهم الله من عنده كل شيء؛ أعطاهم من عنده كل ما يتمناه طلاب الدنيا وزيادة، وأعطاهم كذلك كل ما يتمناه طلاب الآخرة ويرجونه:

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

وشهد لهم ـ سبحانه ـ بالإحسان؛ فقد أحسنوا الأدب وأحسنوا الجهاد، وأعلن حبه لهم، وهو أكبر من النعمة، وأكبر من الثواب:

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾..

وهكذا تنتهي هذه الفقرة في الاستعراض، وقد تضمنت تلك الحقائق الكبيرة في التصور الإسلامي. وقد أدت هذا الدور في تربية الجماعة المسلمة، وقد ادخرت هذا الرصيد للأمة المسلمة في كل جيل»[(١)].

٥ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ **[آل عمران: ١٥٧، ١٥٨]**

قال ابن جرير الطبري: «خاطب ـ جل ثناؤه ـ عباده المؤمنين؛ يقول لهم: لا تكونوا ـ أيها المؤمنون ـ في شك من أن الأمور كلها بيد الله وأن إليه الإحياء والإماتة ـ كما شك المنافقون في ذلك ـ ولكن جاهِدُوا في سبيل الله، وقاتِلُوا أعداء الله على يقين منكم بأنه لا يقتل في حرب ولا يموت في سفر إلا من بلغ أجله وحانت وفاته. ثم وعدهم على جهادهم في سبيله المغفرة والرحمة، وأخبرهم أن

---

(١) الظلال (٤٨٨/١، ٤٨٩).

موتًا في سبيل اللَّه وقتلًا في اللَّه خير لهم مما يجمعون في الدنيا من حطامها ورغيد عيشها الذي من أجله يتثاقلون عن الجهاد في سبيل اللَّه ويتأخرون عن لقاء العدو»[1].

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

فالموت أو القتل في سبيل اللَّه ـ بهذا القيد، وبهذا الاعتبار ـ خير من الحياة، وخير مما يجمعه الناس في الحياة من أعراضها الصغار؛ من مال، ومن جاه، ومن سلطان، ومن متاع. خير بما يعقبه من مغفرة اللَّه ورحمته، وهي في ميزان الحقيقة خير مما يجمعون. وإلى هذه المغفرة وهذه الرحمة يكل اللَّه المؤمنين.. إنه لا يكلهم ـ في هذا المقام ـ إلى أمجاد شخصية، ولا إلى اعتبارات بشرية، إنما يكلهم إلى ما عند الله، ويعلق قلوبهم برحمة الله. وهي خير مما يجمع الناس على الإطلاق، وخير مما تتعلق به القلوب من أعراض..

وكلهم مرجوعون إلى الله، محشورون إليه على كل حال؛ ماتوا على فراشهم، أو ماتوا وهم يضربون في الأرض، أو قتلوا وهم يجاهدون في الميدان. فما لهم مرجع سوى هذا المرجع، وما لهم مصير سوى هذا المصير.. والتفاوت إذن إنما يكون في العمل والنية وفي الاتجاه والاهتمام.. أما النهاية فواحدة: موت أو قتل في الوعد المحتوم، والأجل المقسوم، ورجعة إلى اللَّه وحشر في يوم الجمع والحشر.. ومغفرة من اللَّه ورحمة، أو غضب من اللَّه وعذاب.. فأحمق الحمقى من يختار لنفسه المصير البائس.. وهو ميت على كل حال!

بذلك تستقر في القلوب حقيقة الموت والحياة، وحقيقة قدر الله. وبذلك تطمئن القلوب إلى ما كان من ابتلاء جرى به القدر، وإلى ما وراء القدر من

---

(١) تفسير الطبري (٤/٩٨).

حكمة، وما وراء الابتلاء من جزاء.. وبذلك تنتهي هذه الجولة في صميم أحداث المعركة، وفيما صاحبها من ملابسات..»[(١)].

٦- **قال - تعالَى -:** ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [**آل عمران: ١٩٥**].

وقرأ ابن كثير وابن عامر: ﴿وَقَٰتَلُوا۟ وقُتِّلوا﴾؛ أي: قاتلوا المشركين، وقتلهم المشركون بعضًا بعد بعض وقتلًا بعد قتل.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ يعني: لأمحونها عنهم، ولأتفضلن عليهم بعفوي ورحمتي، ولأغفرنها لهم، ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار. ﴿ثَوَابًا﴾؛ يعني: جزاءً لهم على ما عملوا وأبلوا في الله وفي سبيله. ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: من قِبَل الله لهم. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾؛ يعني: أن الله عنده من جزاء أعمالهم جميع صنوفه، وذلك ما لا يبلغه وصف واصف؛ لأنه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[(٢)].

قال ابن كثير: «﴿وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾ هذا أعلى المقامات أن يُقاتل في سبيل الله فيُعقر جوادُه ويعفَّر وجهه بدمه وترابه. وقد ثبت في الصحيحين أن رجلًا قال: يا رسول الله أرأيت إن قُتلتُ في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، يكفر الله عني خطاياي؟ قال: «**نعم**»، ثم قال: «**كيف قلت؟**»، فأعاد عليه ما قال. فقال: «**نعم إلا الذي قاله لي جبريل آنفًا**»[(٣)] ولهذا قال - تعالَى -: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: تجري في خلالها الأنهار من

---

(١) الظلال (٤٩٩).

(٢) تفسير الطبري (١٤٤/٤).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٨٥)، وأما عزوه للصحيحين فوَهْمٌ.

أنواع المشارب؛ من لبن، وعسل، وخمر، وماء، غير آسن، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقوله ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أضافه إليه، ونسبه إليه؛ ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يُعطي إلا جزيلًا كثيرًا.

وقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾؛ أي: عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحًا»(١).

٧ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾﴾ **[الأنفال: ٧٤]**.

قال ابن جرير الطبري: «يقول ـ تَعَالَى ذكره ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ آووا رسول اللَّه ﷺ والمهاجرين معه ونصروهم، ونصروا دين اللَّه أولئك هم أهل الإيمان حقًّا... ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾: لهم ستر من اللَّه على ذنوبهم بعفوه لهم عنها، ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ لهم في الجنة طُعْم ومشرب هَنِيٌّ كريم، لا يتغيَّر في أجوافهم فيصير نجوا، ولكنه يصير رشحًا كرشح المسك»(٢).

هؤلاء ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.. والرزق يذكر هنا بمناسبة الجهاد والإنفاق والإيواء والنصرة وتكاليف هذا كله.. وفوقه المغفرة وهي من الرزق الكريم، بل هي أكرم الرزق الكريم.

٨ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ **[العنكبوت: ٦٩]**.

قال ابن جرير: (٢١/١١): «يقول ـ تَعَالَى ذكره ـ: والذين قاتلوا هؤلاء المفترين على اللَّه كذبًا، من كفار قريش المكذبين بالحق لما جاءهم، فينا، مبتغين بقتالهم علوَّ

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٤١٨/١، ٤١٩).

(٢) تفسير الطبري (٤٠/١٠).

كلمتنا ونصرة ديننا؛ ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ يقول: لنوفقنهم لإصابة الطرق المستقيمة، وذلك إصابة دين الله الذي هو الإسلام الذي بعث الله به محمدًا ﷺ، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يقول: وإن الله لمع من أحسن من خلقه، فجاهد فيه أهل الشرك؛ مصدقًا رسوله فيما جاء به من عند الله بالعون له والنصرة على من جاهد من أعدائه».

قال ابن كثير: «﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾؛ يعني: الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾؛ أي: لنبصرنهم. ﴿سُبُلَنَا﴾؛ أي: طرقنا في الدنيا والآخرة»[1].

لن يتركهم الله وحدهم، ولن يضيع إيمانهم، ولن ينس جهادهم، إنه سينظر إليهم من عليائه، فيرضاهم. وسينظر إلى جهادهم إليه، فيهديهم، وسينظر إلى محاولتهم الوصول، فيأخذ بأيديهم. وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم، فيجازيهم خير الجزاء.

٩ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ **[التوبة: ١٩، ٢٠].**

قال الطبري (١٠/٦٧): «﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾، وهذا توبيخ من الله ـ تعالى ذكره ـ لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت، فأعلمهم ـ جل ثناؤه ـ أن الفخر في الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله، لا في الذي افتخروا به من السدانة والسقاية».

---

(١) تفسير ابن كثير (١٠/٥٣٠).

قال ابن الجوزي: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾: في سبب نزولها ستة أقوال:

أحدها: رواه مسلم في «**صحيحه**» من حديث النعمان بن بشير قال: «**كنت عند منبر رسول الله** ﷺ فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملًا بعد [الإسلام إلا] أن أسقي الحاج، وقال الآخر: ما أبالي أن لا أعمل عملًا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، قال الآخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم، فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة، ولكني إذا صليت الجمعة، دخلت فاستفتيت رسول الله فيما اختلفتم فيه، فنزلت هذه الآية»[١].

والثاني: أن العباس بن عبدالمطلب قال يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفكُّ العاني[٢]، فنزلت هذه الآية[٣]. رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس»[٤].

قال ابن جرير: «فتأويل الكلام إذا جعلتم ـ أيها القوم ـ سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، لا يستوون هؤلاء وأولئك، ولا تعتدل أحوالهما عند الله ومنازلهما؛ لأن الله لا يقبل بغير الإيمان به وباليوم الآخر عملًا، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: والله لا يوفق لصالح الأعمال من كان به كافرًا ولتوحيده جاحدًا».

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾: وهذا قضاء من الله بين فرق المفتخرين الذين افتخر

---

(١) رواه مسلم (١٣/٢٦)، والطبري (١٤/١٦٩)، وأبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأورده السيوطي في «الدرر» (٣/٢١٨).
انظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول»، لمقبل بن هادي ص (١٠٦).

(٢) العاني: الأسير.

(٣) الطبري (١٤/١٧٠).

(٤) «زاد المسير في علم التفسير»، لابن الجوزي (٣/٤٠٩، ٤١٠)، المكتب الإسلامي.

أحدهم بالسقاية والآخر بالسدانة والآخر بالإيمان بالله والجهاد في سبيله؛ يقول - تَعَالَى ذكره -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وصدقوا بتوحيده، ﴿وَهَاجَرُوا۟﴾ دور قومهم، ﴿وَجَٰهَدُوا۟﴾ المشركين في دين الله ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ وأرفع منزلة عنده من سقاة الحاج وعمار المسجد الحرام وهم بالله مشركون. وهؤلاء الذين وصفنا صفتهم أنهم ﴿ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟﴾ هم ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالجنة والناجون من النار»[1] اهـ.

قال ابن الجوزي «قوله - تَعَالَى - ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ قال الزجاج: هو منصوب على التمييز، والمعنى: أعظم من غيرهم درجة.

والفائز: الذي يظفر بأمنيته من الخير. فأمَّا النعيم، فهو لين العيش. والمقيم: الدائم»[2].

«وأفعل التفضيل هنا في قوله: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ ليس على وجهه، فهو لا يعني أن للآخرين درجة أقل، إنما هو التفضيل المطلق. فالآخرون[3] ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾، فلا مفاضلة بينهم وبين المؤمنين المهاجرين المجاهدين في درجة ولا في نعيم»[4].

قال القرطبي: «﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في موضع رفع بالابتداء، وخبره ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من الذين افتخروا بالسقي والعمارة. وليس للكافرين درجة عند الله حتى يُقال: المؤمن أعظم درجة. والمراد أنهم قدَّروا لأنفسهم الدرجة بالعمارة والسقي؛ فخاطبهم على ما قدَّروه في أنفسهم وإن كان التقدير خطأً؛ كقوله - تَعَالَى -: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤] الآية.

---

(١) تفسير الطبري (١٠/٦٨، ٦٩).

(٢) زاد المسير (٣/٤١١).

(٣) أي: المشركون.

(٤) الظلال (٣/١٦١٤).

١٠ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦].

يقول ابن جرير الطبري في تفسيره (١٤٤/٥): ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾: لا يعتدل المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله من أهل الإيمان بالله وبرسوله، المؤثرون الدعة والخفض والقعود في منازلهم على مقاساة حزونة الأسفار والسير في الأرض ومشقة ملاقاة أعداء الله بجهادهم في ذات الله وقتالهم في طاعة الله ـ لا أهل العذر منهم بذهاب أبصارهم وغير ذلك من العلل التي لا سبيل لأهلها للضرر الذي بهم إلى قتالهم وجهادهم في سبيل الله، والمجاهدون في سبيل الله ومنهاج دينه؛ لتكون كلمة الله هي العليا، المستفرغون طاقتهم في قتال أعداء الله وأعداء دينه بأموالهم إنفاقًا لها فيما أوهن كيد أعداء أهل الإيمان بالله، وبأنفسهم مباشرة بها قتالهم بما تكون به كلمة الله العالية وكلمة الذين كفروا السافلة».

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ درجة واحدة يعني فضيلة واحدة، وذلك بفضل جهاده بنفسه، فأما فيما سوى ذلك فهما مستويان، ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وعد الله الكل من المجاهدين بأموالهم وأنفسهم والقاعدين من أهل الضرر الحسنى، ويعني ـ جلَّ ثناؤه ـ بالحسنى الجنة.

«عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال: لما نزلت** ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ **دعا رسول الله زيدًا فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله** ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾» [١].

---

(١) رواه البخاري (٢٨٣١، ٤٩٩٠، ٤٥٩٣، ٤٥٩٤)، ومسلم (١٤١، ١٤٢، ١٨٩٨)، والترمذي (١٦٧٠، ٣٠٣١)، والنسائي (١٠/٦، ٤٣)، وأحمد (٢٨٢/٤، ٢٨٤، ٢٩٠، ٢٩٩، ٣٠١).

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه «**أن رسول الله** ﷺ أملى عليَّ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها عليَّ، قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان أعمى، فأنزل الله على رسوله، وفخذه على فخذي، فثقلت علي حتى خفت أن ترضَّ فخذي، ثم سُرِّي عنه، فأنزل الله ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾»[١].

وعن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عن بدر، والخارجون إلى بدر[٢].

قال الحافظ ابن كثير: «وقوله ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كان مطلقًا، فلما نزل بوحي سريع ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ صار ذلك مخرجًا لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد: من العمى، والعرج، والمرض عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم من مسير، ولا قطعتم من واد، إلا وهم معكم فيه**» قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال «**نعم، حبسهم العذر**»[٣].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لقد تركتم بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من واد، إلا وهم معكم فيه**» قالوا: يا رسول الله، كيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «**حبسهم العذر**»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٢٨٣٢، ٤٥٩٢)، والترمذي (٣٠٣٣)، والنسائي (٦/٩)، وأحمد (٥/١٨٤).

(٢) تفسير عبدالرزاق (١/١٧٠)، ومن طريقه رواه البخاري (٣٩٥٤، ٤٥٩٥)، وابن جرير (٩/ ١٠٢٤١)، وابن أبي حاتم (٣/٥٨٤٨).

(٣) رواه البخاري (٢٨٣٨/٩، ٢٨٣٩، ٤٤٢٣)، وأحمد (٣/١٠٣، ١٨٢)، وابن ماجه (٢٧٦٤)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٤٠٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦/٣٨٣٩)، وابن حبان (١١/ ٤٧٣١ ـ الإحسان)، والبغوي في «شرح السنة» (١٠/٢٦٣٧).

(٤) **حديث حسن صحيح**: أخرجه البخاري معلقًا عقب حديث (٢٨٣٩)، وابن حجر في «تغليق التعليق» (٣/٤٣٤)، وأحمد (٣/١٦٠، ٢١٤)، وأبو داود (٢٥٠٨).

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد سرتم جسومًا وسرْنا نحن أرواحَا
إنا أقمنا على عذرٍ وعنْ قَدَرٍ ومن أقام على عذرٍ فقد راحَا[١]

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ثم أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ بما فضلهم به من الدرجات، في غرف الجنان العاليات، ومغفرة الذنوب والزلات، وحلول الرحمة والبركات؛ إحسانًا منه وتكريمًا، ولهذا قال: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ درجات منه: فضائل منه ومنازل من منازل الكرامة.

قال قتادة: درجات منه ومغفرة ورحمة: كان يُقال الإسلام درجة، والهجرة في الإسلام درجة، والجهاد في الهجرة درجة، والقتل في الجهاد درجة».

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن في الجنة مئة درجة أعدها اللَّه للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**»[٢].

وعن كعب بن مُرَّة قال: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من بلغ العدو بسهم، رفع اللَّه به درجة له**»، فقال له عبدالرحمن بن النحَّام: يا رسول الله، وما الدرجة؟ قال: «**أما إنها ليست بعتبة أمك، ما بين الدرجتين مئة عام**»[٣].

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ

قال الحافظ في «الفتح» (٦/٤٧) عقب رواية أبي داود: «هذا عندي حديث صحيح حسن؛ لحسن سياقه وجودة رجاله»، ورواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/٢٤).

(١) تفسير ابن كثير (٤/٢٢٤، ٢٢٥).

(٢) رواه مسلم (١١٦) (١٨٨٤) بلفظ: «وأخرى يُرْفَعُ بها العبد مئة درجة من الجنة، ما بين كل درجتين؛ كما بين السماء والأرض. قال: يا رسول الله، وما هي؟ قال: الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله»، وأخرجه البخاري (٢٧٩٠) واللفظ له.

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/٢٣٥)، والنسائي (٦/٢٧)، وابن حبان (١٠/٤٦١٦)، وَصَحَّحَهُ الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٦/٣٢٤).

ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

«إن هذا النص القرآني كان يواجه حالة خاصة في المجتمع المسلم وما حوله، وكان يعالج حالة خاصة في هذا المجتمع من التراخي من بعض عناصره في النهوض بتكاليف الجهاد بالأموال والأنفس. سواء كان المقصود أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة؛ احتفاظًا بأموالهم، إذ لم يكن المشركون يسمحون لمهاجر أن يحمل معه شيئًا من ماله، أو توفيرًا لعناء الهجرة وما فيها من مخاطر، إذ لم يكن المشركون يتركون المسلمين يهاجرون، وكثيرًا ما كانوا يحبسونهم ويؤذونهم ـ أو يزيدون في إيذائهم بتعبير أدق ـ إذا عرفوا منهم نية الهجرة.. سواء كان المقصود هم أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة ـ وهو ما نرجحه ـ، أو كان المقصود بعض المسلمين في دار الإسلام، الذين لم ينشطوا للجهاد بالأموال والأنفس ـ من غير المنافقين المبطئين الذين ورد ذكرهم في درس سابق ـ أو كان المقصود هؤلاء وهؤلاء ممن لم ينشطوا للجهاد بالأموال والأنفس في دار الحرب ودار الإسلام سواء.

إن هذا النص كان يواجه هذه الحالة الخاصة، ولكن التعبير القرآني يقرر قاعدة عامة، يطلقها من قيود الزمان، وملابسات البيئة، ويجعلها هي القاعدة التي ينظر الله بها إلى المؤمنين في كل زمان وفي كل مكان؛ قاعدة عدم الاستواء بين القاعدين من المؤمنين عن الجهاد بالأموال والأنفس ـ غير أولي الضرر الذين يقعدهم العجز عن الجهاد بالنفس، أو يقعدهم الفقر والعجز عن الجهاد بالنفس والمال ـ؛ عدم الاستواء بين هؤلاء القاعدين والآخرين الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم.. قاعدة عامة على الإطلاق:

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ﴾ .

ولا يتركها هكذا مبهمة، بل يوضحها ويقررها، ويبين طبيعة عدم الاستواء بين

الفريقين:

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾

وهذه الدرجة يمثلها رسول الله ﷺ في مقامهم في الجنة.

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**».

وهذه المسافات التي يمثل بها رسول الله ﷺ، نحسب أننا اليوم أقدر على تصورها، بعد الذي عرفناه من بعض أبعاد الكون. حتى إن الضوء ليصل من نجم إلى كوكب في مئات السنين الضوئية! وقد كان الذين يسمعون رسول الله ﷺ يصدقونه بما يقول. ولكننا ـ كما قلت ـ ربما كنا أقدر ـ فوق الإيمان ـ على تصور هذه الأبعاد بما عرفناه من بعض أبعاد الكون العجيب!

ثم يعود السياق بعد تقرير هذا الفارق في المستوى بين القاعدين من المؤمنين ـ غير أولي الضرر ـ والمجاهدين بأموالهم وأنفسهم، فيقرر أن الله وعد جميعهم الحسنى:

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

فللإيمان وزنه وقيمته على كل حال؛ مع تفاضل أهله في الدرجات وفق تفاضلهم في النهوض بتكاليف الإيمان؛ فيما يتعلق بالجهاد بالأموال والأنفس.. وهذا الاستدراك هو الذي نفهم منه أن هؤلاء القاعدين ليسوا هم المنافقين المبطئين، إنما هم طائفة أخرى صالحة في الصف المسلم ومخلصة، ولكنها قصرت في هذا الجانب، والقرآن يستحثها لتلافي التقصير، والخير مرجو فيها، والأمل قائم في أن تستجيب.

فإذا انتهى من هذا الاستدراك عاد لتقرير القاعدة الأولى؛ مؤكدًا لها، متوسعًا في عرضها؛ ممعنًا في الترغيب فيما وراءها من أجر عظيم:

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

وهذا التوكيد.. وهذه الوعود.. وهذا التمجيد للمجاهدين.. والتفضيل على القاعدين.. والتلويح بكل ما تهفو له نفس المؤمن من درجات الأجر العظيم.. ومن مغفرة اللَّه ورحمته للذنوب والتقصير.

هذا كله يشي بحقيقتين هامتين:

الحقيقة الأولى: هي أن هذه النصوص كانت تواجه حالات قائمة في الجماعة المسلمة ـ كما أسلفنا ـ وتعالجها، وهذا كفيل بأن يجعلنا أكثر إدراكًا لطبيعة النفس البشرية، ولطبيعة الجماعات البشرية، وأنها مهما بلغت في مجموعها من التفوق في الإيمان والتربية فهي دائمًا في حاجة إلى علاج ما يطرأ عليها من الضعف والحرص والشح والتقصير في مواجهة التكاليف، وبخاصة تكاليف الجهاد بالأموال والأنفس، مع خلوص النفس لله، وفي سبيل الله. وظهور هذه الخصائص البشرية ـ من الضعف والحرص والشح والتقصير ـ لا يدعو لليأس من النفس أو الجماعة، ولا إلى نفض اليد منها، وازدرائها؛ طالما أن عناصر الإخلاص، والجد والتعلق بالصف والرغبة في التعامل مع اللَّه موفورة فيها.. ولكن ليس معنى هذا هو إقرار النفس أو الجماعة على ما بدا منها من الضعف والحرص والشح والتقصير، والهتاف لها بالانبطاح في السفح، باعتبار أن هذا كله جزء من «واقعها»! بل لا بد لها من الهتاف؛ لتنهض من السفح، والحداء؛ لتسير في المرتقى الصاعد، إلى القمة السامقة. بكل ألوان الهتاف والحداء.. كما نرى هنا في المنهج الرباني الحكيم.

والحقيقة الثانية: هي قيمة الجهاد بالأموال والأنفس في ميزان اللَّه واعتبارات هذا الدين وأصالة هذا العنصر في طبيعة هذه العقيدة وهذا النظام؛ لما يعلمه اللَّه ـ سبحانه ـ من طبيعة الطريق، وطبيعة البشر، وطبيعة المعسكرات المعادية للإسلام في كل حين.

إن «**الجهاد**» ليس ملابسة طارئة من ملابسات تلك الفترة، إنما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة.

وليست المسألة - كما توهم بعض المخلصين - أن الإسلام نشأ في عصر الإمبراطوريات؛ فاندس في تصورات أهله - اقتباسًا مما حولهم - أنه لا بد لهم من قوة قاهرة لحفظ التوازن.

هذه المقررات تشهد - على الأقل - بقلة ملابسة طبيعة الإسلام الأصيلة لنفوس هؤلاء القائلين بهذه التكهنات والظنون.

لو كان الجهاد ملابسة طارئة في حياة الأمة المسلمة ما استغرق كل هذه الفصول من صلب كتاب الله؛ في مثل هذا الأسلوب! ولما استغرق كذلك كل هذه الفصول من سنة رسول الله ﷺ وفي مثل هذا الأسلوب.

لو كان الجهاد ملابسة طارئة ما قال رسول الله ﷺ تلك الكلمة الشاملة لكل مسلم إلى قيام الساعة: «**من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق**»[1].

ولئن كان ﷺ رد في حالات فردية بعض المجاهدين؛ لظروف عائلية لهم خاصة، كالذي جاء في الصحيح أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أجاهد؟ قال: «**لك أبوان؟**» قال: نعم. قال: «**ففيهما جاهد**».. لئن كان ذلك فإنما هي حالة فردية لا تنقض القاعدة العامة، وفرد واحد لا ينقص المجاهدين الكثيرين. ولعله ﷺ على عادته في معرفة كل ظروف جنوده فردًا فردًا، كان يعلم من حال هذا الرجل وأبويه ما جعله يوجهه هذا التوجيه.

فلا يقولن أحد - بسبب ذلك - إنما كان الجهاد ملابسة طارئة بسبب ظروف، وقد تغيرت هذه الظروف! وليس ذلك لأن الإسلام يجب أن يشهر سيفه ويمشي

---

(١) رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي عن أبي هريرة.

به في الطريق يقطع به الرءوس! ولكن لأن واقع حياة الناس وطبيعة طريق الدعوة تلزمه أن يمسك بهذا السيف ويأخذ حذره في كل حين!

إن اللّه ـ سبحانه ـ يعلم أن هذا أمر تكرهه الملوك! ويعلم أن لا بد لأصحاب السلطان أن يقاوموه؛ لأنه طريق غير طريقهم، ومنهج غير منهجهم. ليس بالأمس فقط، ولكن اليوم وغدًا. وفي كل أرض، وفي كل جيل!

وإن اللّه ـ سبحانه ـ يعلم أن الشر متبجح، ولا يمكن أن يكون منصفًا، ولا يمكن أن يدع الخير ينمو ـ مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة! ـ فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر. ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل. ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان، ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة!

هذه جبلة! وليست ملابسة وقتية..

هذه فطرة! وليست حالة طارئة..

ومن ثم لا بد من الجهاد.. لا بد منه في كل صورة.. ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير، ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود. ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح. ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة.. وإلا كان الأمر انتحارًا، أو كان هزلًا لا يليق بالمؤمنين!

ولا بد من بذل الأموال والأنفس، كما طلب اللّه من المؤمنين، وكما اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.. فأما أن يقدر لهم الغلب، أو يقدر لهم الاستشهاد؛ فذلك شأنه ـ سبحانه ـ وذلك قدره المصحوب بحكمته.. أما هم فلهم إحدى الحسنيين عند ربهم.. والناس كلهم يموتون عندما يحين الأجل.. والشهداء وحدهم هم الذين يستشهدون..

هناك نقط ارتكاز أصيلة في هذه العقيدة، وفي منهجها الواقعي، وفي خط سيرها المرسوم، وفي طبيعة هذا الخط وحتمياته الفطرية، التي لا علاقة لها بتغيير

الظروف.

وهذه النقط لا يجوز أن تتميع في حس المؤمنين ـ تحت أي ظرف من الظروف. ومن هذه النقط.. الجهاد.. الذي يتحدث عنه اللَّه ـ سبحانه ـ هذا الحديث.. الجهاد في سبيل اللَّه وحده، وتحت رايته وحدها.. وهذا هو الجهاد الذي يسمى من يقتلون فيه «**شهداء**» ويتلقاهم الملأ الأعلى بالتكريم»[1].

١١ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠)﴾ [**الحديد: ١٠**]

قال ابن كثير: «أي: أنفقوا ولا تخشوا فقرًا وإقلالًا، فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السماوات والأرض بيده مقاليدهما وعنده خزائنهما، وهو مالك العرش بما حوى: وهو القائل: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]. وقال: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. فمن توكل على اللَّه أنفق ولم يخش من ذي العرش إقلالًا وعلم أن اللَّه سيخلفه عليه.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾؛ أي: لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديدًا فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهورًا عظيمًا، ودخل الناس في دين اللَّه أفواجًا، ولهذا قال ـ تعالى ـ ﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾، والجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا فتح مكة، وعن الشعبي وغيره أن المراد بالفتح هاهنا صلح الحديبية، وقد يستدل لهذا القول بما رواه الإمام أحمد عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد

---

(١) الظلال (٢/٧٤٠ ـ ٧٤٣).

وبين عبدالرحمن بن عوف كلام فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها، فبلغنا أن ذلك ذُكِر للنبي ﷺ، فقال: «**دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبًا ما بلغتم أعمالهم**»(١) ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة.. والذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**»(٢).

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ يعني: المنفقين قبل الفتح وبعده، كلهم لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء، كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء: ٩٥]. وهكذا الحديث الذي في الصحيح: «**المؤمن القوي خير من وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير**»(٣). وإنما نبَّه بهذا لئلا يهدر جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر فيتوهم متوهم ذمه، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه مع تفضيل الأول عليه، ولهذا قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ أي: فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن فعل ذلك بعد ذلك، وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق، وفي الحديث: «**سبق درهم مئة ألف**»، ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر رضي الله عنه له الحظ

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد ولفظه: «دعوا لي أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده، لو أنفقتم مثل أحد ذهبًا ما بلغتم أعمالهم»، ورواه البزار عن ابن أبي أوفى، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» رقم (١٩٢٣)، و«صحيح الجامع» رقم (٣٣٨٦).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب المناقب (٣٦٧٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد وأيضًا عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

الأوفر من هذه الآية، فإنه سيد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله عَزَّ وَجَلَّ ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها»[١].

١٢- قال - تعالَى -: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ **[التوبة: ٨٨، ٨٩]**.

قال ابن جرير الطبري (١٠/١٤٣، ١٤٤): «يقول - تعَالَى ذكره -: لم يجاهد هؤلاء المنافقون (الذين اقتصصت قصصهم) المشركين، لكن الرسول محمد ﷺ والذي صدقوا الله ورسوله معه هم الذين جاهدوا المشركين بأموالهم وأنفسهم، فأنفقوا في جهادهم أموالهم، وأتعبوا في قتالهم أنفسهم وأجهدوها. وللرسول وللذين آمنوا معه الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم الخيرات، وهي خيرات الآخرة، وذلك نساؤها وجناتها ونعيمها. والخيرة من كل شيء: الفاضلة. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: وأولئك هم المخلدون في الجنات، الباقون فيها، الفائزون بها».

١٣- قال - تعَالَى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ **[البقرة: ٢١٨]**.

قال ابن جرير الطبري: «إن الذين صدَّقوا بالله وبرسوله وبما جاء به، والذين هجروا مساكنة المشركين في أمصارهم ومجاورتهم في ديارهم كراهة منهم النزول بين أظهر المشركين وفي سلطانهم بحيث لا يأمنون فتنتهم على أنفسهم، فتحولوا عنهم وعن جوارهم وبلادهم إلى غيرها.

﴿وَجَٰهَدُوا۟﴾، يعني: وقاتلوا وحاربوا، وأصل المجاهدة المفاعلة من قول الرجل: قد جهد فلان فلانًا على كذا إذا كَربه وشقَّ عليه يجهده جهدًا، وأما ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فطريقه ودينه. فمعنى قوله إذًا: والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٤٩٣، ٤٩٤).

والذين تحوَّلوا من سلطان أهل الشرك هجرة لهم وخوف فتنتهم على أديانهم، وحاربوهم في دين الله؛ ليدخلوهم فيه وفيما يرضي اللَّه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: يطمعون أن يرحمهم الله، فيدخلهم جنته بفضل رحمته إياهم، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾؛ أي: ساتر ذنوب عباده بعفوه عنها، متفضل عليهم بالرحمة.

وهذه الآية ذكر أنها نزلت في عبداللَّه بن جحش وأصحابه.

> ١٤- ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: ١٢٠].

قال ابن جرير في تفسيره (١١/٤٧، ٤٨): «**لم يكن** ﴿لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾: مدينة رسول اللَّه ﷺ، ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾: سكان البوادي، الذين تخلفوا عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة «**تبوك**» وهم من أهل الإيمان به ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ﴾ في أهليهم ولا دارهم، ولا أن ﴿يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ﴾ في صحبته، وفي سفره والجهاد معه، ومعاونته على ما يعانيه في غزوه ذلك؛ يقول: إنه لم يكن لهم هذا لأجل أنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ﴾ في سفرهم إذا كانوا معه ﴿ظَمَأٌ﴾ وهو العطش، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ ولا تعب، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: ولا مجاعة في إقامة دين اللَّه ونصرته وهدم منار الكفر، ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا﴾؛ يعني: أرضًا. يقول: ولا يطئون أرضًا. ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ وطؤهم إياهم، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾؛ يقول: ولا يصيبون من عدو اللَّه وعدوهم شيئًا في أموالهم وأنفسهم وأولادهم إلا كتب اللَّه لهم بذلك كله ثواب عمل صالح قد ارتضاه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ يقول: إن اللَّه لا يدع محسنًا من خلقه أحسن في عمله فأطاعه فيما أمره وانتهى عما نهاه عنه أن يجازيه على إحسانه ويثيبه على

صالح عمله».

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة في سبيل الله، ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ ولا يقطعون مع رسول الله ﷺ في غزوه واديًا إلا كُتب لهم أجر عملهم ذلك؛ جزاءً لهم عليه كأحسن ما يجزيهم على أحسن أعمالهم التي كانوا يعملونها وهم مقيمون في منازلهم.

عن قتادة قال: ما ازداد قوم من أهليهم في سبيل الله بُعدًا إلا ازدادوا من الله قُربًا.

قال ابن كثير: «وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة»[١].

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾.

وفي التعبير تأنيب خفي. فما يُؤَنَّبُ أحدٌ يصاحب رسول الله ﷺ بأوجع من أن يقال عنه: إنه يرغب بنفسه عن نفس رسول الله، وهو معه، وهو صاحبه!

وإنها لإشارة تلحق أصحاب هذه الدعوة في كل جيل؛ فما كان لمؤمن أن يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس رسول الله في سبيل هذه الدعوة؛ وهو يزعم أنه صاحب دعوة؛ وأنه يتأسى فيها برسول الله ﷺ!

إنه الواجب الذي يوجبه الحياء من رسول الله ـ فضلًا على الأمر الصادر من الله ـ ومع هذا فالجزاء عليه ما أسخاه!

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/٣١٥)، طبعة أولاد الشيخ.

لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

إنه على الظمأ جزاء، وعلى النصب جزاء، وعلى الجوع جزاء، وعلى كل موطئ قدم يغيظ الكفار جزاء، وعلى كل نيل من العدو جزاء، يكتب به للمجاهد عمل صالح، ويحسب به من المحسنين الذين لا يضيع لهم اللَّه أجرًا.

وإنه على النفقة الصغيرة والكبيرة أجر، وعلى الخطوات لقطع الوادي أجر.. أجر كأحسن ما يعمل المجاهد في الحياة.

ألا والله، إن اللَّه ليجزل لنا العطاء، وإنها واللَّه للسماحة في الأجر والسخاء. وإنه لما يخجل أن يكون ذلك كله على أقل مما احتمله رسول اللَّه ﷺ من الشدة واللأواء في سبيل هذه الدعوة التي نحن فيها خلفاء، وعليها بعده أمناء!»[١].

١٤- قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [**الحجرات: ١٥**].

قال ابن كثير: «﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: إنما المؤمنون الكُمَّل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾؛ أي: لم يَشُكُّوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض، ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة اللَّه ورضوانه، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾؛ أي: في قولهم إذ قالوا: إنهم مؤمنون، لا كبعض الأعراب الذين ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة»[٢].

قال ابن زيد: «صدَّقوا إيمانهم بأعمالهم»[٣].

---

(١) الظلال (١٧٣٣/٣، ١٧٣٤).
(٢) تفسير ابن كثير (١٧٥/١٣).
(٣) تفسير ابن جرير (٩١/٢٦).

التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب، التصديق المطمئن، الثابت، المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب، ولا تهجس فيه الهواجس، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور، والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله، فالقلب متى تذوَّق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه، لا بد مندفعٌ لتحقيق حقيقته في خارج القلب، في واقع الحياة، في دنيا الناس، يريد أن يوحِّد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان التي في حسه، والصورة الواقعية من حوله؛ لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة. ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد في سبيل اللَّه بالمال والنفس، فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن، يريد أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه؛ ليراها ممثلة في واقع الحياة والناس. هذا هو الإيمان الكامل الجميل المستقيم.

١٥ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء: ٧٤]

قال ابن جرير في تفسيره (٥/١٠٦): «وهذا حضٌّ من اللَّه المؤمنين على جهاد عدوه من أهل الكفر به على أحايينهم؛ غالبين كانوا أو مغلوبين... وقع جهادهم منزلة من اللَّه رفيعة.

يقول اللَّه لهم: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ يعني: في دين اللَّه والدعاء إليه والدخول فيما أمر به أهل الكفر.

﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾؛ يعني: الذين يبيعون حياتهم الدنيا بثواب الآخرة وما وعد اللَّه أهل طاعته بها. وبيعهم إياها إنفاقهم أموالهم في طلب رضا الله؛ كجهاد من أمر بجهاده من أعدائه وأعداء دينه وبذلهم مهجهم له في ذلك.

﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

يقول: ومن يقاتل في طلب إقامة دين اللَّه وإعلاء كلمة اللَّه أعداءَ اللهِ، ﴿فَيُقْتَلْ﴾ يقول: فيقتله أعداء الله، ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ أو يغلبهم فيظفر بهم. ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فسوف نعطيه في الآخرة ثوابًا وأجرًا عظيمًا. وليس لما سمَّى ـ جل ثناؤه ـ عظيمًا مقدارٌ يعرف مبلغه عباد الله».

قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات: «كل من قاتل في سبيل الله، سواء قُتِل أو غَلَبَ، فله عند اللَّه مثوبة عظيمة وأجر جزيل، كما ثبت في الصحيحين. وتكفل اللَّه للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة»[(١)] »[(٢)].

أفق عظيم أراد اللَّه أن يرفع المسلمين إليه، وتعليق نفوسهم بالرجاء في فضل اللَّه العظيم في كلتا الحالتين، وأن يهوِّن عليها ما تخشاه من القتل، فهو شهادة، وما ترجوه من الغنيمة! فالحياة أو الغنيمة لا تساوي شيئًا إلى جانب الفضل العظيم من الله... أين الدنيا من الآخرة؟ وأين غنيمة المال من فضل الله؟ وهو يحتوي المال فيما يحتويه، ويحتوي سواه.

١٦ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [الحج: ٥٨، ٥٩].

قال ابن جرير في تفسيره (١٧/١٣٦): «يقول ـ تعَالَى ذكره ـ: والذين فارقوا أوطانهم وعشائرهم فتركوا ذلك في رضا اللَّه وطاعته وجهاد أعدائه، ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ﴾ وهم كذلك ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة في جناته رزقًا

(١) أخرجه البخاري (٣١٢٣)، ومسلم (١٠٤) (١٨٧٦)، وأحمد (٢/٣٩٨)، والنسائي (٦/١٦)، كلهم عن أبي هريرة.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/١٥٩).

كريمًا، وإنما يعني بالرزق الحسن الثواب الجزيل، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾: وإن اللَّه لهو خير من بسط فضله على أهل طاعته وأكرمهم.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾: «يقول ـ تَعَالَى ذكره ـ: ليدخلن اللَّه المقتول في سبيله من المهاجرين والميت منهم ﴿مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ وذلك المدخل هو الجنة، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بمن يهاجر في سبيله ممن يخرج من داره طلب للغنيمة أو عرض من عروض الدنيا».

قال ابن كثير: «فأما من قُتل في سبيل اللَّه من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حيٌّ عند ربه يُرزق، كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران:١٦٩]، والأحاديث في هذا كثيرة. وأما من توفي في سبيل اللَّه من مهاجر أو غير مهاجر فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان اللَّه إليه.

عن عبدالرحمن بن جحدم الخولاني أنه حضر فضالة بن عُبيدٍ في البحر مع جنازتين، أحدهما أُصيب بمنجنيق، والآخر تُوفي، فجلس فضالة بن عُبيد عند قبر المتوفَّى، فقيل له: تركت الشهيد فلم تجلس عنده؟ فقال: ما أبالي من أيِّ حفرتيْهما بُعثت، إن اللَّه يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿يَرْضَوْنَهُۥ﴾، فما تبتغي أيها العبد إذا أُدخِلت مدخلًا ترضاه، ورزقت رزقًا حسنًا، واللَّه ما أبالي من أي حفرتيهما بُعِثت»[١].

الهجرة في سبيل اللَّه تجرُّد من كل ما تهفو له النفس، ومن كل ما تعتزُّ به وتحرص عليه؛ الأهل، والديار، والوطن، والذكريات، والمال، وسائر أعراض الحياة. وإيثار العقيدة على هذا كله ابتغاء رضوان اللَّه وتطلعًا إلى ما عنده، وهو خير مما في الأرض جميعًا.

---

(١) تفسير ابن كثير (١٠/٩٠، ٩١).

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سواء لاقوا اللَّه شهداء بالقتل، أو لاقوه على فراشهم بالموت، فلقد خرجوا من ديارهم وأموالهم في سبيله مستعدين لكل مصير، واستروحوا الشهادة في هجرتهم عن أيِّ طريق، وضحوا بكل عرض الحياة وتجرَّدوا بهذا لله، فتكفَّل اللَّه لهم بالعوض الكريم عمَّا فقدوه.

﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾: وهو رزق أكرم وأجزل من كلِّ ماتركوا؛ ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ فقد خرجوا مخرجًا يُرضي الله، فتعهد لهم اللَّه بأن يُدخلهم مدخلًا يرضونه، وإنه لمظهر لتكريم اللَّه لهم بأن يتوخَّى ما يرضونه فيحققه لهم، وهم عباده، وهو خالقهم.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ عليم بما وقع عليهم من ظلم وأذى، وبما يُرضي.

❑ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا رسول اللَّه ﷺ على عدم الفرار أو على الموت:

١٧ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾ [الفتح: ١٠].

عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ـ ألفًا وأربع مئة(١).

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: «**ثم دعا رسول اللَّه** ﷺ عمر بن الخطاب؛ ليبعثه إلى مكة، ليبلِّغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال له: يا رسول الله؛ إني أخاف قريشًا على نفسي، وليس بمكة من بني عديٍّ بن كعب من يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها، ولكني أدلك على رجل أعزَّ بها مني؛ عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائرًا لهذا البيت، معظمًا لحرمته.

فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص فأجاره حتى بلغ رسالة

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٤٠)، ومسلم (١٨٥٦).

رسول اللَّه ﷺ واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول اللَّه ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قُتِل، فقال رسول اللَّه ﷺ حين بلغه أن عثمان قد قُتِل: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**»، ودعا رسول اللَّه ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول اللَّه ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبدالله؛ يقول: إن رسول اللَّه ﷺ لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا علي أن لا نفرَّ[1].

عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفًا وأربع مئة فبايعناه، وعمر آخذه بيده تحت الشجرة وهي سَمُرة، وقال: بايعناه على أن لا نفرَّ، ولم نبايعه على الموت»[2].

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصنًا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مئة، قال: ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه علىأن لا نفرَّ[3].

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: بايعتُ رسول اللَّه ﷺ تحت الشجرة، قال يزيد بن أبي عبيد: قلت: يا أبا مسلم، على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت[4].

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: بايعتُ رسول اللَّه ﷺ يوم الحديبية ثم تنحيْتُ، فقال: «**يا سلمة، ألا تبايع؟**» قلت: قد بايعت، قال: «**أقبِل فبايع**»، فدنوت فبايعته، قلت: علام بايعته يا سلمة؟ قال: على الموت»[5].

وأخرجه مسلم عن يزيد بن عبيد. وكذا روى البخاري عن عباد بن تميم أنهم بايعوه على الموت[6].

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/٢٧١، ٢٧٢).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة (١٨٥٦). (٣) رواه مسلم.

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢٩٦٠)، كتاب الجهاد والسير - باب: البيعة في الحرب.

(٥) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٧٢٠٨)، كتاب الأحكام، باب: من بايع مرتين، وأخرجه مسلم في الإمارة (١٨٦٠).

(٦) أخرجه البخاري في المغازي - باب: غزوة الحديبية (٤١٦٧) من حديث عباد بن تميم.

عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفًا وأربع مئة، فقال لنا رسول الله ﷺ «**أنتم خير أهل الأرض اليوم**»(١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة**»(٢).

وقال رسول الله ﷺ «**من يصعد الثنية ثنية المُرَار فإنه يُحَطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل**»(٣)، فكان أول من صعد خيل بني الخزرج.

عن الشعبي قال: لما دعا رسول الله ﷺ إلى البيعة، كان أول من انتهى إليه أبو سنان، فقال: ابسط يدك أبايعك، فقال النبي ﷺ «**علام تبايعني**»؟ فقال أبو سنان: على ما في نفسك.

هذا أبو سنان وهب الأسدي رضي الله عنه

قال ابن كثير: «قال ـ تعَالَى ـ لرسول الله ﷺ تشريفًا له وتعظيمًا وتكريمًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، كقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: هو حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو ـ تعَالَى ـ المبايع بواسطة رسول الله ﷺ كقوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٥٤)، ومسلم (١٨٥٦) (٧١)، والحميدي في «مسنده» (١٢٧٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/٣٥٠)، وأبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠)، والنسائي في «تفسيره» (٥٢٨)، ورواه مسلم عن أم مبشر، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٦٨٠)، و«السلسلة الصحيحة» (٢١٦٠).

(٣) رواه مسلم عن جابر (٢٨٨٠).

بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾؛ أي: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: ثوابًا جزيلًا.

وهذه البيعة هي بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سمر بالحديبية»[1].

يا لها من بيعة الله صاحبها، والله أخذها، ويده فوق أيدي المتبايعين. ومَن؟ الله! يا للهول! ويا للروعة! ويا للجلال!

إن هذه الصورة لتستأصل من النفس خاطر النكث بهذه البيعة ـ مهما غاب شخص رسول الله ﷺ فالله حاضر لا يغيب، والله آخذ في هذه البيعة ومعط، وهو عليها رقيب.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فهو الخاسر من كل جانب، هو الخاسر في كل جانب؛ هو الخاسر في الرجاع عن الصفقة الرابحة بينه وبين الله ـ تَعَالَى ـ، وما من بيعة بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الرابح من فضل الله، والله هو الغني عن العالمين.

وهو الخاسر حين ينكث وينقض عهده مع الله؛ فيتعرض لغضبه وعقابه على النكث الذي يكرهه ويمقته، فالله يحب الوفاء، ويحب الأوفياء.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

هكذا على إطلاقه: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يفصِّله، ولا يحدده، فهو الأجر الذي يقول عنه الله: إنه عظيم. عظيم بحساب الله وميزانه ووصفه الذي لا يرتقي إلى تصوره أبناء الأرض المقلُّون المحدودون الفانون!

---

(١) تفسير ابن كثير (١٣/٩١، ٩٢).

١٨- وقال - تعالى -: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفتح: ١٨- ٢٢].

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ﴾ يا محمد ﴿عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾؛ يعني: بيعة أصحاب رسول الله ﷺ رسول الله بالحديبية حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب وعلى أن لا يفروا ولا يولوهم الدبر».

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: من صدق النية والوفاء بما يبايعونك عليه، والصبر معك، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾: الطمأنينة والثبات على ما هم عليه من دينهم وحسن بصيرتهم بالحق الذي هداهم الله له.

قال قتادة: أنزل السكينة عليهم: الصبر والوقار[١].

﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾: «وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم ومن أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

يقول ابن جرير (٢٦/٥٥، ٥٦): «أثاب الله هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ

---

(١) تفسير الطبري (٢٦/٥٣، ٥٥).

تحت الشجرة مع ما أكرمهم به من رضاه عنهم وإنزاله السكينة عليهم، وإثابته إياهم فتحا قريبًا معه مغانم كثيرة يأخذونها من أموال خيبر، فإن اللَّه جعل ذلك خاصة لأهل بيعة الرضوان دون غيرهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: ذا عزة في انتقامه ممن انتقم من أعدائه، حكيمًا في خلقه وتصريفه إياهم فيما شاء من قضائه» ا. هـ.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾: هي جميع المغانم إلى اليوم، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾؛ يعني: صلح الحديبية، قاله الضحاك، وابن إسحاق، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال قتادة: هي فتح مكة، واختاره ابن جرير، وقال: هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾، وهذه منة أخرى من ربهم عليهم.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يروا فيها عواقب تدبير اللَّه لهم؛ جزاءَ طاعتهم لرسول اللَّه وتسليمهم له.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ جزاء طاعتهم وامتثالهم وصدق سريرتهم.

وهكذا يجمع لهم بين المغنم ينالونه، والهداية يرزقونها، فيتم لهم الخير من كل جانب.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾: قال ابن عباس: هذه الفتوح التي تُفتح إلى اليوم.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾: يقول - تَعَالَى - مبشرًا لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر اللَّه رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفار فارًّا مدبرًا لا يجدون وليًّا ولا نصيرًا؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين.

ثم قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: هذه سنة اللّه وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيْصل إلا نصر اللّه الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل ـ تَعَالَى ـ يوم بدر بأوليائه المؤمنين؛ نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعُددهم، وكثرة المشركين وعُددهم»[1].

هكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسنته الكونية التي لا تتبدَّل. فأي سكينة؟ وأي ثقة؟ وأي تثبيت يجده أولئك المؤمنون في أنفسهم، وهم يسمعون من اللّه أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سننه الجارية في هذا الوجود.

وهي سنة دائمة لا تتبدَّل، ولكنها قد تتأخرُ إلى أجل، ولأسباب قد تتعلَّق باستواء المؤمنين على طريقهم، واستقامتهم الاستقامة التي يعرفها اللّه لهم، أو تتعلَّق بتهيئة الجو الذي يُولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين؛ لتكون له قيمته وأثره، أو لغير هذا وذلك مما يعلمه الله، ولكن السنَّة لا تتخلَّف، واللّه أصدق القائلين: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

❑ **كلمات أعطر من شذا الورد.. وأحلى من الشهد.. وأرق من نسيم السحر.**

يقول الأستاذ سيد قطب ـ رحمه اللّه ـ: «إنني لأحاول اليوم من وراء ألف وأربع مئة عام أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التي شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوي الكريم من اللّه العليِّ العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين.. أحاول أن أستشرف صفحة الوجود في تلك اللحظة وضميره المكنون، وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهي الكريم، عن أولئك الرجال القائمين إذْ ذاك في بقعة معينة من هذا الوجود.. وأحاول أن أستشعر بالذات شيئًا من حال أولئك السعداء الذين يسمعون بآذانهم أنهم هم بأشخاصهم وأعيانهم، يقول اللّه عنهم: لقد رضِي

---

(١) تفسير ابن كثير (١٣/١٠٧).

عنهم، ويحدد المكان الذي كانوا فيه، والهيئة التي كانوا عليها حتى استحقوا هذا الرضى ﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدوق، على لسان ربه العظيم الجليل.

يا لله! كيف تلقَّوا - أولئك السعداء - تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهي؟ التبليغ الذي يشير إلى كل أحد، في ذات نفسه، ويقول له: أنت.. أنت بذاتك. يبلغك الله.. لقد رَضي عنك.. وأنت تبايع تحت الشجرة! وعلم ما نفسك فأنزل السكينة عليك!

إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧] فيسعد فيقول في نفسه: ألست أطمع أن أكون داخلًا في هذا العموم؟ ويقرأ أو يسمع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].. فيطمئن.. يقول في نفسه: ألستُ أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين؟ وأولئك الرجال يسمعون ويُبلَّغون: واحدًا واحدًا أن اللَّه يقصده بعينه وبذاته ويبلغه: لقد رضِي عنه! وعلم ما في نفسه، ورضي عما في نفسه! يالله! إنه أمر مهول.

علم اللَّه ما في قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم، وعلم ما في قلوبهم من الصدق في بيعتهم، وعلم ما في قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز، وضبط لمشاعرهم؛ ليقفوا خلف كلمة رسول اللَّه ﷺ طائعين مسلمين صابرين، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ تضفي على تلك القلوب الحارة المتأهبة بردًا وسلامًا وطمأنينةً وارتياحًا»[1].

---

(١) الظلال (٦/٣٣٢٥، ٣٣٢٦).

الحضُّ على القتال والأمر به في القرآن الكريم

❑ مراحل تشريع الجهاد:

لقد مرَّ الجهاد بنوعيه: جهاد الطلب والابتداء، وجهاد الدفع، بعدة مراحل قبل أن يصل إلى حكمه النهائي.

المرحلة الأولى: مرحلة الكف عن المشركين، والإعراض عنهم، والصبر على أذاهم مع الاستمرار في دعوتهم إلى دين الحق، وبيان دين الإسلام، وبيان تفاهة معبودات الجاهلية، وضلال أهلها وخسارتهم في الدنيا والآخرة.

قال ابن تيمية «... فكان النبي ﷺ في أول الأمر مأمورًا أن يجاهد الكفار بلسانه لا بيده، فيدعوهم، ويعظهم، ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويجاهدهم بالقرآن جهادًا كبيرًا، قال - تَعَالَى - في سورة الفرقان - وهي مكية -: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٢]. وكان مأمورًا بالكف عن قتالهم»(١).

وقال - تَعَالَى -: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥]، وقال - تَعَالَى -: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقال - تَعَالَى -: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال الشافعي: «وأنزل الله ﷻ فيما يثبته إذا ضاق من أذاهم ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩] ففرض عليه إبلاغهم ولم يفرض عليه قتالهم، وأبان ذلك في غير آية من كتابه»(٢).

نهى رسول الله ﷺ أصحابه عن قتال أهل مكة في الفترة المكية، فقال لمن قال

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (١/٧٤).
(٢) أحكام القرآن، للشافعي (٢/٩).

له: «**كنا في عزٍّ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة**»، فقال: «**إني أُمِرت بالعفو فلا تقاتلوا...**»[(١)] وقد ذكر اللَّه هذا النهي في القرآن الكريم فقال - تَعَالَى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٧٧].

وقال ﷺ لما استأذنه أهل يثرب ليلة العقبة أن يميلوا على أهل منى فيقتلوهم: «**إني لم أؤمر بهذا**»[(٢)].

قال ابن كثير عند تفسير قوله - تَعَالَى -: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]: «أي: يصفحوا عنهم، ويحملوا الأذى منهم، وهذا كان في ابتداء الإسلام أُمِروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب؛ ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع اللَّه للمؤمنين الجلاد والجهاد، هكذا روي عن ابن عباس وقتادة[(٣)].

قال الحافظ ابن حجر: «فأول ما شُرِع الجهاد بعد الهجرة النبوية إلى المدينة اتفاقًا»[(٤)].

وقال القرطبي: «ولم يُؤذن للنبي ﷺ في القتال مدة إقامته بمكة»[(٥)].

---

(١) **صحيح**: رواه النسائي (٦/٣)، والبيهقي (٩/١١)، والحاكم في «المستدرك» (٢/٣٠٧) وقال: على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٢) **حديث صحيح**: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/٤٦٢)، وقد ورد في سياق بيعة العقبة الثانية من رواية كعب بن مالك، وقال الشيخ شعيب الأرناءوط وعبد القادر الأرناءوط: أخرجه ابن هشام (١/٤٤٠ - ٤٤٧)، وأحمد (٣/٤٦٠ - ٤٦٢)، والطيالسي (٢/٩٣)، وسنده صحيح.

(٣) تفسير ابن كثير (٧/٢٥١).

(٤) فتح الباري (٦/٢٧).

(٥) تفسير القرطبي (٣/٣٨).

المرحلة الثانية: إباحة القتال من غير فرض:

قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

قال ابن كثير عند تفسيره هذه الآية: «وقال غير واحد من السلف: هذه أول آية نزلت في الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية، وقاله مجاهد، والضحاك، وقتادة، وغير واحد... وإنما شرع اللَّه ـ تَعَالَى ـ الجهاد في الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددًا، فلو أمر المسلمين وهم أقل من العُشر بقتال الباقين؛ لشق عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول اللَّه ﷺ وكانوا نَيِّفًا وثمانين قالوا: يا رسول الله، ألا نميلُ على أهل الوادي ـ يعنون أهل منى ـ ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إني لم أومر بهذا**». فلما بغى المشركون، وأخرجوا النبي من بين أظهرهم، وهموا بقتله وشرَّدوا أصحابه شذر مذر، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة، فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول اللَّه ﷺ واجتمعوا عليه وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومعقلًا يلجئون إليه شرع اللَّه جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك»[(١)].

المرحلة الثالثة: فرض القتال على المسلمين لمن يُقاتلهم فقط:

قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/٤٣٠، ٤٣١).

ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾ [النساء: ٩٠، ٩١].

قال ابن تيمية عن هذه المرحلة (...ولم يؤمروا بقتال من طلب مسالمتهم بل قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ﴾ الآيات، وكذلك من هادنهم لم يكونوا مأمورين بقتاله، وإن كانت الهدنة عقدًا جائزًا غير لازم»[(١)].

وقال ابن تيمية: «فمن المعلوم من سيرة النبي ﷺ الظاهر علمه عند كل من له علم بالسيرة أنه ﷺ لما قدم المدينة لم يحارب أحدًا من أهل المدينة، بل وادعهم حتى اليهود، خصوصًا بطون الأوس والخزرج، فإنه كان يسالمهم ويتألفهم بكل وجه، وكان الناس إذ قَدِمَهَا على طبقات منهم المؤمن وهم الأكثرون، ومنهم الباقي على دينه وهو متروك لا يُحارِب ولا يُحارَب، وهو والمؤمنون من قبيلته وحلفائهم أهل سلم لا أهل حرب، حتى حلفاء الأنصار أقرهم النبي ﷺ على حلفهم»[(٢)].

قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦] ففرضه بعد أن كان مباحًا.

المرحلة الرابعة: قتال جميع الكفار على اختلاف أديانهم وأجناسهم ابتداءً، وإن لم يبدأ بقتال، حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية، على خلاف بين العلماء فيمن تُؤخذ منه الجزية:

وهذه المرحلة بدأت من انقضاء أربعة أشهر من بعد حج العام التاسع من الهجرة، ومن بعد انقضاء العهود المؤقتة، وتُوفي الرسول ﷺ والعمل على هذه المرحلة الأخيرة، وعليها استقر حكم الجهاد.

قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟

(١) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، لابن تيمية (٧٣/١).
(٢) الصارم المسلول، لابن تيمية ص (٩٩).

ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة: ٥].

وقال - تعالى -: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»(١).

وقد استقر أمر الجهاد على المرحلة الأخيرة التي ذُكِرت في سورة التوبة، وهي قتال المشركين حتى يسلموا، وقتال أهل الكتاب والمجوس حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية مع الذل والصغار.

قال ابن القيم (... فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة، ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة»(٢).

وروى الحاكم عن علي بن عبداللَّه بن عباس قال: سمعت أبي يقول: سألت علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لِمَ لم تكتب في براءة بسم اللَّه الرحمن الرحيم؟ قال: لأن بسم اللَّه الرحمن الرحيم أمان وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان(٣).

وقال ابن كثير عند تفسير سورة التوبة: «هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول اللَّه ﷺ، كما قال البخاري: حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ﴾ [النساء: ٢٧٦]، وآخر سورة نزلت براءة»(٤).

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٢١٢/١). (٢) زاد المعاد (١٦٠/٣).

(٣) المستدرك، للحاكم (٣٣٠/٢).

(٤) تفسير ابن كثير (٤٤/٤).

قلت: ولكون سورة براءة المقررة لحكم المرحلة الأخيرة من مراحل الجهاد هي آخر السور نزولًا اعتبر علماء السلف أن المرحلة الأخيرة للجهاد ناسخة لبقية المرحلة؛ قال ابن العربي: «قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾.. الآية ناسخ لمئة وأربع عشرة آية»[١].

والقول بالنسخ مروي عن الضحاك بن مزاحم[٢]، والربيع بن أنس[٣]، ومجاهد، وأبو العالية[٤]، والحسين بن الفضل[٥]، وابن زيد[٦]، وموسى بن عقبة[٧]، وابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقتادة[٨]، وابن الجوزي[٩]، وعطاء[١٠].

وكذلك قال بالنسخ ابن تيمية[١١]، والشوكاني[١٢]، والقرطبي[١٣]، وجمع من العلماء في شتى العصور الإسلامية.

يقول صديق حسن البخاري: «**ما ورد في موادعتهم أو في تركهم إذا تركوا المقاتلة فذلك منسوخ باتفاق المسلمين**»[١٤].

---

(١) أحكام القرآن، لابن العربي (١/٢٠١).
(٢) ابن كثير (٤/٥٥).
(٣) البغوي (١/١٦٨).
(٤) فتح القدير، للشوكاني (١/١٩١).
(٥) القرطبي (٨/٧٣).
(٦) القرطبي (٢/٣٣٩).
(٧) الجصاص (٣/٨١).
(٨) فتح القدير (١/٤٩٧).
(٩) زاد المسير، لابن الجوزي (٣/٣٧٦).
(١٠) البغوي (٣/١٢٢).
(١١) الاحتجاج بالقدر، لابن تيمية ص (٣٦).
(١٢) فتح القدير، للشوكاني (١/٢٧٥).
(١٣) تفسير القرطبي (٢/٣٣١).
(١٤) الروضة الندية (٢/٣٣٣).

وذكر ابن تيمية عن موسى بن عقبة عن الزهري: «كانت سيرة رسول الله ﷺ في عدوه قبل أن تنزل براءة يقاتل من قاتله، ومن كف يده وعاهده كف عنه؛ قال الله ـ تعَالَى ـ: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، وكان القرآن ينسخ بعضُه بعضًا، فإذا أنزلت آية نسخت التي قبلها، وعمل بالتي أنزلت، وبلغت الأولى منتهى العمل بها، وكان ما قد عمل بها قبل ذلك طاعة لله حتى نزلت براءة»[(١)].

وادعى الزركشي أنه ليس في مراحل الجهاد نسخ، بل يعمل بكل مراحله عند الحالة المشابهة للحالة التي شرعت فيها، وعاب على من قال بالنسخ؛ إذ قال: «قسم بعضهم النسخ من وجه آخر إلى ثلاثة أَضْرُبٍ.. الثالث: ما أمر به لسبب، ثم يزول السبب؛ كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر وبالمغفرة للذين لا يرجون لقاء اللَّه ونحوه من عدم إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ونحوها، ثم نسخه إيجاب ذلك، هذا ليس بنسخ في الحقيقة، وإنما هو نسيء؛ كما قال ـ تعَالَى ـ: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون». وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى، وبهذا التحقيق تبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف، وليست كذلك، بل هي من المنسأ بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما؛ لعلة توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ، إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبدًا»[(٢)].

وأتى السيوطي في كتابه «**الإتقان**» بكلام الزركشي، هذا غير أنه لم ينسبه له[(٣)] مع أنه ذكر في كتابه «**الإكليل**» بأن آية السيف ناسخة لآيات العفو والصفح

---

(١) الصارم المسلول، لابن تيمية ص (١٠٣).

(٢) البرهان، للزركشي (٤١/٢، ٤٢).

(٣) **انظر**: الإتقان، للسيوطي (٦٦/٣).

والمسالمة[١].

والحقيقة أن الزركشي ـ رحمه اللَّه ـ صادق في قوله: إن مراحل الجهاد يعمل بها في الظروف المشابهة للظروف التي شرعت فيها. مخطئ في تضعيفه لأقوال السلف القائلين بالنسخ؛ لأن السلف لا يقصدون بالنسخ المعنى الذي هو يقصده «وهو الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبدًا»، وإنما يقصدون معنى أعم وأشمل من ذلك، فإن النسخ عندهم يشمل التقييد والبيان والتخصيص ونحو ذلك، فليس للزركشي أن يحاكم السلف إلى اصطلاح المتأخرين، وهذا غفلة منه ـ رحمه اللَّه ـ عن قصد السلف بالنسخ.

يقول ابن تيمية عن مفهوم النسخ عند السلف: «... ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها وتنسخها، أو بسنة الرسول ﷺ تفسرها، فإن سنة رسول اللَّه ﷺ تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه، وكانوا يسمون ما عارض الآية ناسخًا لها، فالنسخ عندهم اسم عام لكل ما يرفع دلالة الآية على معنى باطل، وإن كان ذلك المعنى لم يرد بها، وإن كان لا يدل عليه ظاهر الآية، بل قد لا يفهم منها. وقد فهمه منها قوم فيسمون ما رفع ذلك الإبهام والإفهام نسخًا، وهذه التسمية لا تؤخذ عن كل واحد منهم. وأصل ذلك من إلقاء الشيطان، ثم يحكم اللَّه آياته، فما ألقاه الشيطان في الأذهان من ظن دلالة الآية على معنى لم يدل عليه سمى هؤلاء ما يرفع ذلك الظن نسخًا، كما سموا قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] ناسخًا لقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ناسخا لقوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وأمثال ذلك مما ليس هذا موضع

---

(١) **انظر**: الإكليل في استنباط التنزيل ص (١١٦).

بسطه»[١].

وقد رجح بعض العلماء في العصور المتأخرة ما ذهب إليه الزركشي[٢] ظنًّا منهم أن قول السلف يخالف قول الزركشي في العمل بمراحل الجهاد. والحقيقة أن الخلاف بين الزركشي وعلماء السلف هو في مسمى النسخ لا في العمل بمراحل الجهاد، وإلا فالسلف لا يكلفون المستضعف من المسلمين الذي حاله مشابهة لحال الرسول في مكة بالقتال، وإنما الواجب عليه أن يجتهد لكي يصل إلى حال قوة يجاهد فيها الكفار؛ لأن الحال التي توفي عليها الرسول ﷺ هي تمام الدين التي يجب على المسلمين بذل قصارى الجهاد لتحقيقها في الواقع البشري. وإليك أقوال السلف المؤيدة لهذا:

قال ابن حجر ـ عند الكلام على مهادنة الكفار بمال يدفعه المسلمون لهم في حال الضرورة ـ: «وأما أصل المسألة فاختلف فيه؛ فقال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعي عن موادعة إمام المسلمين أهل الحرب على مال يؤديه إليهم؛ فقال: لا يصلح ذلك إلا عن ضرورة؛ كشغل المسلمين عن حربهم، قال: ولا بأس أن يصالحهم على غير شيء يؤدونه إليهم؛ كما وقع في الحديبية.

وقال الشافعي: إذا ضعف المسلمون عن قتال المشركين جازت لهم مهادنتهم على غير شيء يعطونهم؛ لأن القتل للمسلمين شهادة، وإن الإسلام أعز من أن يُعطى المشركون على أن يكفوا عنهم إلا في حالة مخافة اصطلام المسلمين لكثرة العدو؛ لأن ذلك من معاني الضرورات، وكذلك إذا أسر رجل مسلم فلم يطلق إلا بفدية جاز»[٣].

وقال ابن قدامة: «... لا تجوز المهادنة مطلقًا من غير تقدير مدة؛ لأنه يفضي إلى

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٣٠).

(٢) **انظر**: في ظلال القرآن (٣/١٥٩٠)، ومناهل العرفان، للزرقاني (٢/١٥٠).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (٦/١٩٨).

ترك الجهاد بالكلية[١]... وتجوز مهادنتهم على غير مال؛ لأن النبي ﷺ هادنهم يوم الحديبية على غير مال. ويجوز ذلك على مال يأخذه منهم، فإنها إذا جازت على غير مال فعلى مال أولى. وأما إن صالحهم على مال نبذله لهم فقد أطلق أحمد القول بالمنع منه، وهو مذهب الشافعي؛ لأن فيه صَغَارًا للمسلمين، وهذا محمول على غير حالة الضرورة. فأما إذا دعت إليه ضرورة؛ وهو أن يخاف على المسلمين الهلاك أو الأسر فيجوز؛ لأنه يجوز للأسير فداء نفسه بالمال، فكذا ههنا، ولأن بذله المال إن كان فيه صَغَارٌ فإنه يجوز تحمله لدفع صغار أعظم منه وهو القتل والأسر وسبي الذرية الذي يفضي سبيهم إلى كفرهم»[٢].

وقال أبو حنيفة: «لا ينبغي موادعة أهل الشرك إذا كان بالمسلمين عليهم قوة، وإن لم يكن بالمسلمين قوة عليهم فلا بأس بالموادعة».

وقال الشيباني ـ بعد ذكره لكلام أبي حنيفة هذا ـ: «وإذا خاف المسلمون المشركين فطلبوا موادعتهم فأبى المشركون أن يوادعوهم حتى يعطيهم المسلمون على ذلك مالًا فلا بأس بذلك عند تحقيق الضرورة»[٣].

وقال ابن جزي الغرناطي المالكي: «... لا يجوز الانصراف من صف القتال إن كان فيه انكسار المسلمين، وإن لم يكن فيجوز لمتحرف لقتال أو متحيز إلى فئة، والتحرف للقتال هو أن يظهر الفرار وهو يريد الرجوع مكيدة في الحرب، والتحيز إلى الجماعة الحاضرة جائز. واختلف في التحيز إلى جماعة غائبة من المسلمين أو مدينة، ولا يجوز الانهزام إلا إذا زاد الكفار على ضعف المسلمين، والمعتبر العدد في ذلك على المشهور، وقيل: القوة. وقيل: إذا بلغ عدد المسلمين اثني عشر ألفًا لم

---

(١) بعض العلماء كابن تيمية وابن القيم يرى جواز المهادنة من غير تقدير مدة، لكنهم يرون أنها عقد جائز، غير لازم، للمسلمين فَسْخُهُ إذا رأوا المصلحة في ذلك. **انظر**: الجواب الصحيح (٧٤/١)، وزاد المعاد (٧٠/٣).

(٢) المغني، لابن قدامة (٤٥٩/٨ ـ ٤٦١).

(٣) شرح السير الكبير، للسرخسي ص (١٦٨٩ ـ ١٦٩٢).

يحل الانهزام، ولو زاد الكفار على الضعف. وإن علم المسلمون أنهم مقتولون فالانصراف أولى، وإن علموا مع ذلك أنهم لا تأثير لهم في نكاية العدو وجب الفرار، وقال أبو المعالي: لا خلاف في ذلك»[(١)].

فهذه الأقوال التي سلفت من مذاهب الأئمة الأربعة وغيرهم تبين أن مقصود السلف بالنسخ في مراحل الجهاد ليس هو إزالة حكم المراحل حتى لا يجوز العمل بها مطلقًا، فإن هذا من التكليف بما لا يطاق في حال الاستضعاف، واللَّه ـ سبحانه ـ يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

يقول ابن تيمية: «... فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف، أو في وقت هو فيه مستضعف، فليعمل بآية الصبر والصفح والعفو عمن يؤذي اللَّه ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين. وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»[(٢)].

وبهذا يتضح أنه لا خلاف بين الزركشي ومن نحا نحوه ـ كسيد قطب وغيره ـ وبين السلف في حكم مراحل الجهاد، وإنما الخلاف في مسمى النسخ؛ يقول سيد قطب: «والعبرة بنهاية المراحل التي وصلت إليها الحركة الجهادية في الإسلام بأمر من اللَّه لا بأوائل الدعوة ولا بأوسطها»[(٣)]. ويقول ـ عليه رحمة اللَّه ـ: «إن تلك الأحكام المرحلية ليست منسوخة بحيث لا يجوز العمل بها في أي ظرف من ظروف الأمة المسلمة بعد نزول الأحكام الأخيرة في سورة التوبة، ذلك أن الحركة والواقع الذي تواجهه في شتى الظروف والأمكنة والأزمنة هي التي تحدد ـ عن طريق الاجتهاد المطلق ـ أي الأحكام هو أنسب للأخذ به في ظرف من الظروف،

---

(١) القوانين الفقهية، لابن جزي ص (١٢٨).

(٢) الصارم المسلول، لابن تيمية ص (٢٢١).

(٣) في ظلال القرآن (١٤٣٦/٣).

في زمان من الأزمنة، في مكان من الأمكنة، مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة التي يجب أن يصار إليها متى أصبحت الأمة الإسلامية في الحال التي تمكنها من تنفيذ هذه الأحكام، كما كان حالها عند نزول سورة التوبة، وما بعد ذلك أيام الفتوحات الإسلامية التي قامت على أساس من هذه الأحكام الأخيرة النهائية سواء في معاملة المشركين أو أهل الكتاب.

إن المهزومين في هذا الزمان أمام الواقع البائس لذراري المسلمين ـ الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان ـ وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على أهل الجهاد في الإسلام، يحاولون أن يجدوا في النصوص المرحلية مهربًا من الحقيقة التي يقوم عليه الانطلاق الإسلامي في الأرض لتحرير الناس كافة من عبادة العباد وردهم جميعًا إلى عبادة اللَّه وحده وتحطيم الطواغيت والأنظمة والقوى التي تقهرهم على عبادة غير اللَّه والخضوع لسلطان غير سلطانه والتحاكم إلى شرع غير شرعه. ومن ثم نراهم يقولون مثلًا: إن اللَّه ـ سبحانه ـ يقول: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، ويقول: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨]. فالإسلام إذن لا يقاتل إلا الذين يقاتلون أهل دار الإسلام في داخل حدود هذه الدار أو الذين يهددونها من الخارج. وإنه قد عقد صلح الحديبية مع المشركين، وإنه قد عقد معاهدة مع يهود المدينة ومشركيها، ومعنى ذلك في تصورهم المهزوم أن لا علاقة للإسلام إذن بسائر البشر في أنحاء الأرض، ولا عليه أن يتخذ الناس بعضهم بعضًا أربابًا من دون اللَّه في الأرض كلها ما دام هو آمنًا داخل حدوده الإقليمية. وهو سوء ظن بالإسلام، وسوء ظن باللَّه ـ سبحانه ـ تمليه الهزيمة أمام الواقع البائس النكد الذي يواجههم وأمام القوى العالمية المعادية التي لا طاقة لهم بها في اللحظة الحاضرة. وهان الأمر لو أنهم حين يهزمون روحيًا أمام هذه القوى لا يحيلون هزيمتهم إلى الإسلام ذاته ولا يحملونه على ضعف واقعهم الذي جاءهم من

بُعْدِهم عن الإسلام أصلًا، ولكنهم يأبون إلا أن يحملوا ضعفهم هم وهزيمتهم على دين اللَّه القوي المتين.

إن هذه النصوص التي يلتجئون إليها نصوص مرحلية تواجه واقعًا معينًا، وهذا الواقع المعين قد يتكرر وقوعه في حياة الأمة المسلمة، وفي هذه الحالة تطبق هذه النصوص المرحلية؛ لأن واقعها يقرر أنها في مثل تلك المرحلة التي واجهتها تلك النصوص بتلك الأحكام. ولكن هنا ليس معناه أن هذه هي غاية المعنى وأن هذه نهاية خطوات هذا الدين.. إنما معناه أن على الأمة المسلمة أن تمضي قُدُمًا في تحسين ظروفها وفي إزالة العوائق من طريقها؛ حتى تتمكن في النهاية من تطبيق الأحكام النهائية الواردة في سورة التوبة، والتي كانت تواجه واقعًا غير الواقع الذي واجهته النصوص المرحلية. إن النصوص الأخيرة تقول في شأن المشركين: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ .. وتقول في شأن أهل الكتاب: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ، فإذا كان المسلمون

اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق هذه الأحكام فهم - اللحظة ومؤقتًا - غير مكلفين بتحقيقها - ولا يكلف اللَّه نفسًا إلا وسعها، ولهم في الأحكام المرحلية سعة يتدرجون معها حتى ينتهوا إلى تنفيذ هذه الأحكام الأخيرة عندما يكونون في الحال التي يستطيعون معها تنفيذها.. ولكن عليهم ألا يلووا أعناق النصوص النهائية لتوافق أحكام النصوص المرحلية، وعليهم ألا يحملوا ضعفهم الحاضر على دين اللَّه القوي المتين، وعليهم أن يتقوا اللَّه في مسخ هذا الدين وإصابته بالهزال بحجة أنه دين السلم والسلام.

إنه دين السلم والسلام فعلًا، ولكن على أساس إنقاذ البشرية كلها من عبادة غير الله، وإدخال البشرية كافة في السلم كافة. إنه منهج اللَّه هذا الذي يريد البشر على الارتفاع إليه والاستمتاع بخيره، وليس منهج عبد من العبيد، ولا مذهب مفكر من البشر حتى يخجل الداعون إليه من إعلان إن هدفهم الأخير هو تحطيم كل القوى التي تقف في سبيله لإطلاق الحرية للناس أفرادًا في اختياره... إنه حين تكون المذاهب التي يتبعها الناس مذاهب بشرية من صنع العبيد، وحين تكون الأنظمة والشرائع التي تصرف حياتهم من وضع العبيد أيضًا فإنه في هذه الحالة يصبح لكل مذهب ولكل نظام الحق في أن يعيش داخل حدوده آمنًا ما دام أنه لا يعتدي على حدود الآخرين، ويصبح من حق هذه المذاهب والأنظمة والأوضاع المختلفة أن تتعايش وألا يحاول أحدها إزالة الآخر. فأما حين يكون هناك منهج إلهي وشريعة ربانية، ووضع العبودية فيه لله وحده، وتكون إلى جانبه مناهج ومذاهب وأوضاع من صنع البشر، العبودية فيها للعباد، فإن الأمر يختلف من أساسه، ويصبح من حق المنهج الإلهي أن يجتاز الحواجز البشرية ويحرر البشر من العبودية للعباد ويتركهم أحرارًا في اختيار العقيدة التي يختارونها في ظل الدينونة لله وحده. والمهزومون الذين يحاولون أن يلووا أعناق النصوص؛ ليخرجوا من الحرج الذي يتوهمونه في انطلاق الإسلام وراء حدوده الأولى؛ ليحرر البشر في الأرض كلها

من العبودية لغير اللَّه ينسون هذه الحقيقة الكبرى، وهي أن هناك منهجًا ربانيًّا، العبودية فيه لله وحده، يواجه مناهج بشرية، العبودية فيها للعبيد»[(١)].

١٩ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ [البقرة: ١٩٠ـ ١٩٣].

قال ابن كثير: «عن أبي العالية في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾، قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عمن كفَّ عنه حتى نزلت سورة براءة.

وكذا قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال: هذه منسوخة بقوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾.

وفي هذا نظر؛ لأن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله؛ أي: كما يقاتلونكم فقاتلوهم أنتم، كما قال: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة: ٣٦]، ولهذا قال في هذه الآية: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾ أي: فلتكن همتكم منبعثة على قتالهم كما أن همتهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها؛ قِصاصًا.

وقوله: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾؛ أي: وقاتلوا في

(١) أهمية الجهاد، للدكتور علي بن نفيع العلياني ص (١٤٨ـ ١٥٧) دار طيبة، وفقه الدعوة، لسيد قطب ـ اختيار أحمد حسن ص (٢١٧ ـ ٢٢٢).

سبيل الله، ولا تعتدوا في ذلك، ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي ـ كما قاله الحسن البصري ـ من المثلة، والغلول، وقتل النساء، والصبيان، والشيوخ الذين لا رأي لهم، ولا قتال فيهم، والرهبان، وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس، وعمر بن عبدالعزيز، ومقاتل بن حيان وغيرهم، ولهذا جاء في «**صحيح مسلم**» عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا ولا أصحاب الصوامع**»(١).

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: «**وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان**»(٢).

ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال نبه ـ تَعَالَى ـ على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصدِّ عن سبيله أبلغ وأشدُّ وأعظم، وأطمُّ من القتل، ولهذا قال: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾؛ قال أبو مالك: ما أنتم مقيمون عليهِ أكبر من القتل.

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

«ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدءوكم بالقتال فيه، فلكم حينئذ قتالهم، وقتلهم؛ دفعًا للصيال»(٣).

ثم أمر الله ـ تَعَالَى ـ بقتال الكفار ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: شرك؛ قاله ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع، ومقاتل بن حيان،

---

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، وأحمد في «المسند» (٣٥٢/٥).

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير ـ باب: قتل الصبيان في الحرب، وقتل النساء في الحرب برقم (٣٠١٤، ٣٠١٥)، ومسلم في الجهاد والسير برقم (٢٤) (١٧٤٤).

(٣) الصيال: القهر والعدوان.

والسدي، وزيد بن أسلم.

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ أن يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: سُئل النبي ﷺ عن الرجل يُقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويُقاتل رياء، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[1].

وفي الصحيحين: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**»[2].

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: يقول - تَعَالَى -: فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك، وقتال المؤمنين فكفُّوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم، ولا عدوان إلا على الظالمين، وهذا معنى قول مجاهد: لا يُقاتَل إلا من قاتل. أو يكون تقديره: فإن انتهوا فقد تخلصوا من الظلم - وهو الشرك - فلا عدوان عليهم بعد ذلك. والمراد بالعدوان هاهنا المعاقبة والمقاتلة؛ كقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، ولهذا قال عكرمة وقتادة: الظالم الذي أبى أن يقول: لا إله إلا الله.

عن ابن عمر قال: «**أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس ضُيِّعوا، وأنت ابن عمر، وصاحب النبي ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أن الله حرَّم دم أخي، قالا: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة وحتى يكون الدين لغير الله**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٣، ٢٨١٠، ٣١٢٦، ٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٣٦) (٢٢) من حديث عبدالله بن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -.

(٣) تفسير ابن كثير (٢/٢١٤ - ٢١٨).

٢٠ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٧٤ـ ٧٧].

قال ابن كثير في قوله ـ تعالَى ـ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.... الآيات: «يحرض ـ تعالَى ـ عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين من المقام بها، ولهذا قال ـ تعالَى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾؛ يعني: مكة، كقوله ـ تعالَى ـ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣]، ثم وصفها بقوله: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾؛ أي: سخر لنا من عندك وليًّا وناصرًا.

عن ابن عباس قال: كنت أنا وأمي من المستضعفين[١].

وعن ابن أبي مُليكة، أن ابن عباس تلا: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ قال: كنت أنا وأمي ممن عذر الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم قال ـ تعالَى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾؛ أي: المؤمنون يُقاتلون في طاعة الله ورضوانه، والكافرون

---

(١) صحيح البخاري (٤٥٨٧، ٤٥٨٨).

يقاتلون في طاعة الشيطان.

ثم هيّج المؤمنين على قتال أعدائه بقوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾(١).

«خطاب للجماعة المسلمة كلها. يلتفت إليها لاستجاشة مروءة النفوس، وحساسية القلوب؛ تجاه المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؛ الذين كانوا يقاسون في مكة ما يقاسون على أيدي المشركين غير قادرين على الهجرة إلى دار الإسلام والفرار بدينهم وعقيدتهم؛ وهم يتطلعون إلى الخلاص، ويدعون اللّٰه أن يجعل لهم مخرجًا من دار الظلم والعدوان.. يلتفت هذه الالتفاتة؛ ليوحي إليهم بسمو المقصد، وشرف الغاية، ونبل الهدف في هذا القتال، الذين يدعوهم أن ينفروا إليه، غير متثاقلين ولا مبطئين. وذلك في أسلوب تحضيضي؛ يستنكر البطء والقعود:

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝٧٥﴾..

وكيف تقعدون عن القتال في سبيل الله؛ واستنقاذ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؟ هؤلاء الذين ترتسم صورهم في مشهد مثير لحمية المسلم، وكرامة المؤمن، ولعاطفة الرحمة الإنسانية على الإطلاق؟ هؤلاء الذين يعانون أشد المحنة والفتنة؛ لأنهم يعانون المحنة في عقيدتهم، والفتنة في دينهم. والمحنة في العقيدة أشد من المحنة في المال والأرض والنفس والعرض؛ لأنها محنة في أخص خصائص الوجود الإنساني، الذي تتبعه كرامة النفس والعرض، وحق المال والأرض!

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/١٥٩، ١٦٠).

ومشهد المرأة الكسيرة والولد الضعيف، مشهد مؤثر مثير، لا يقل عنه مشهد الشيوخ الذين لا يملكون أن يدفعوا ـ وبخاصة حين يكون الدفع عن الدين والعقيدة ـ، وهذا المشهد كله معروض في مجال الدعوة إلى الجهاد، وهو وحده يكفي. لذلك يستنكر القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات.. وهو أسلوب عميق الوقع، بعيد الغور في مسارب الشعور والإحساس.

ولا بد من لفتة هنا إلى التصور الإسلامي للبلد والأرض والوطن: إن ﴿هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ التي يعدها الإسلام ـ في موضعها ذاك ـ دار حرب، يجب أن يقاتل المسلمون؛ لاستنقاذ المسلمين المستضعفين منها، هي «**مكة**» وطن المهاجرين، الذين يُدعون هذه الدعوة الحارة إلى قتال المشركين فيها. ويدعو المسلمون المستضعفون هذه الدعوة الحادة للخروج منه!

إن كونها بلدهم لم يغير وضعها في نظر الإسلام ـ حين لم تقم فيها شريعة اللَّه ومنهجه؛ وحين فتن فيها المؤمنون عن دينهم، وعذبوا في عقيدتهم.. بل اعتبرت بالنسبة لهم هم أنفسهم «**دار حرب**».. دار حرب، هم لا يدافعون عنها، وليس هذا فحسب بل هم يحاربونها؛ لإنقاذ إخوانهم المسلمين منها.

إن راية المسلم التي يحامي عنها هي عقيدته. ووطنه الذي يجاهد من أجله هو البلد الذي تقام شريعة اللَّه فيه. وأرضه التي يدفع عنها هي «**دار الإسلام**» التي تتخذ المنهج الإسلامي منهجًا للحياة.. وكل تصور آخر للوطن هو تصور غير إسلامي، تنضح به الجاهليات، ولا يعرفه الإسلام.

ثم لمسة نفسية أخرى؛ لاستنهاض الهمم، واستجاشة العزائم، وإنارة الطريق، وتحديد القيم والغايات والأهداف، التي يعمل لها كل فريق:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

وفي لمسة واحدة يقف الناس على مفرق الطريق. وفي لحظة ترتسم الأهداف،

وتتضح الخطوط. وينقسم الناس إلى فريقين اثنين؛ تحت رايتين متميزتين:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾

الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله؛ لتحقيق منهجه، وإقرار شريعته، وإقامة العدل «**بين الناس**» باسم الله. لا تحت أي عنوان آخر؛ اعترافًا بأن اللّه وحده هو الإله، ومن ثم فهو الحاكم.

والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت؛ لتحقيق مناهج شتى - غير منهج اللّه - وإقرار شرائع شتى - غير شريعة اللّه - وإقامة قيم شتى - غير التي أذن بها اللّه - ونصب موازين شتى غير ميزان الله!

ويقف الذين آمنوا مستندين إلى ولاية اللّه وحمايته ورعايته.

ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياتهم، وشتى شرائعهم، وشتى طرائقهم، وشتى قيمهم، وشتى موازينهم... فكلهم أولياء الشيطان.

ويأمر اللّه الذين آمنوا أن يقاتلوا أولياء الشيطان؛ ولا يخشوا مكرهم ولا مكر الشيطان؛ ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد. مقتنعي الوجدان بأنهم يخوضون معركة لله، ليس لأنفسهم منها نصيب، ولا لذواتهم منها حظ، وليست لقومهم، ولا لجنسهم، ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شيء.. إنما هي لله وحده، ولمنهجه وشريعته. وأنهم يواجهون قومًا أهل باطل؛ يقاتلون لتغليب الباطل على الحق؛ لأنهم يقاتلون لتغليب مناهج البشر الجاهلية - على الله؛ ولتغليب ظلم البشر - وكل حكم للبشر من دون اللّه ظلم - على عدل الله، الذي هم مأمورون أن يحكموا به بين الناس.

كذلك يخوضون المعركة، وهم يوقنون أن الله وليهم فيها، وأنهم يواجهون قومًا الشيطان وليهم، فهم إذن ضعاف... ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

ومن هنا يتقرر مصير المعركة في حس المؤمنين، وتتحدد نهايتها قبل أن يدخلوها. وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن في المعركة ـ فهو واثق من النتيجة ـ أم بقي حتى غلب، ورأى بعينيه النصر؛ فهو واثق من الأجر العظيم.

من هذا التصور الحقيقي للأمر في كلتا حالتيه، انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التي حفظها تاريخ الجهاد في سبيل الله في حياة الجماعة المسلمة الأولى؛ والتي تناثرت على مدى التاريخ في أجيال كثيرة. وما بنا أن نضرب لها هنا الأمثال؛ فهي كثيرة مشهورة.

ومن هذا التصور كان ذلك المد الإسلامي العجيب، في أقصر فترة عرفت في التاريخ؛ فقد كان هذا التصور جانبًا من جوانب التفوق الذي حققه المنهج الرباني للجماعة المسلمة، على المعسكرات المعادية... وبناء هذا التصور ذاته كان طرفًا من المعركة الكلية الشاملة التي خاضها القرآن في نفوس المؤمنين، وهو يخوض بهم المعركة مع أعدائهم المتفوقين في العدد والعدة والمال؛ ولكنهم في هذا الجانب كانوا متخلفين؛ فأمسوا مهزومين!

وها نحن أولاء نرى الجهد الذي بذله المنهج في إنشاء هذا التصور وتثبيته، فلم يكن الأمر هينًا، ولم يكن مجرد كلمة تقال، ولكنه كان جهدًا موصولًا، لمعالجة شح النفس، وحرصها على الحياة ـ بأي ثمن ـ وسوء التصور لحقيقة الربح والخسارة.. وفي الدرس بقية من هذا العلاج، وذلك الجهد الموصول»[1].

قال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ كان المؤمنون في ابتداء الإسلام مأمورين بالصلاة والزكاة، وإن لم تكن ذات النصب،

---

(١) الظلال (٢/٧٠٨ ـ ٧١٠) بتصرف.

لكن كانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرَّقون ويودون لو أُمِروا بالقتال؛ ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبًا؛ لأسباب كثيرة؛ منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها: كونهم كانوا في بلدهم، وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداءً لائقًا، فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة، لمَّا صار لهم دار منعة وأنصار، ومع هذا لما أُمِروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفًا شديدًا، ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍۗ﴾؛ أي: لو ما أخَّرت فريضته إلى مدة أخرى، فإن فيه سفك الدماء، ويُتمْ الأبناء، وتأيم النساء.

وهذه الآية في معنى قوله ـ تعَالَى ـ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ [محمد: ٢٠] الآيات..

عن ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ أن عبدالرحمن بن عوف وأصحابه أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا نبي اللَّه كنا في عزَّة ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: «**إني أُمرتُ بالعفو، فلا تقاتلوا القوم**»، فلما حوَّله اللَّه إلى المدينة أمره بالقتال، فكفُّوا، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ الآية[1].

وقوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ أي: آخرة المتقى خير من دنياه.

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾؛ أي: من أعمالكم، بل توفونها أتم الجزاء. وهذه تسلية لهم عن الدنيا، وترغيب لهم في الآخرة، وتحريض لهم على الجهاد.

---

(١) **صحيح على شرط البخاري:** رواه النسائي في فاتحة كتاب الجهاد من «السنن الصغرى» (٦/٢، ٣) وفي «التفسير» من «الكبرى» (٦/)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/٥٦٣٠)، وابن جرير (٨/ ٩٩٥١)، والحاكم (٢/٦٦، ٦٧، ٣٠٧)، وعنه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/١١)، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري. ووافقه الذهبي.

قرأ الحسن: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ ؛ قال: رحم الله عبدًا صحبها على حسب ذلك، وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحب ثم انتبه.

وقال ابن معين: كان أبو مُسْهَر ينشد:

وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ... مِنَ اللَّهِ فِي دَارِ الْمُقَامِ نَصِيبُ
فَإِنْ تُعْجِبُ الدُّنْيَا رِجَالًا فَإِنَّهَا ... مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَالزَّوَالُ قَرِيبُ[1]

❑ وقفات مهمة مع آية سورة النساء:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

يعجب الله ـ سبحانه ـ من أمر هؤلاء الناس؛ الذين كانوا يتدافعون حماسة إلى القتال ويستعجلونه وهم في مكة، يتلقون الأذى والاضطهاد والفتنة من المشركين. حين لم يكن مأذونًا لهم في القتال؛ للحكمة التي يريدها الله. فلما أن جاء الوقت المناسب الذي قدره الله؛ وتهيأت الظروف المناسبة وكتب عليهم القتال ـ في سبيل الله ـ إذا فريق منهم شديد الجزع، شديد الفزع، حتى ليخشى الناس الذين أُمروا بقتالهم ـ وهم ناس من البشر ـ كخشية الله؛ القهار الجبار، الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد.. ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾!! وإذا هم يقولون ـ في حسرة وخوف وجزع ـ: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾؟ وهو سؤال غريب من مؤمن، وهو دلالة على عدم وضوح تصوره لتكاليف هذا الدين؛ ولوظيفة هذا الدين

(١) تفسير ابن كثير (٤/١٦١ ـ ١٦٣).

أيضًا[1]. ويتبعون ذلك التساؤل، بأمنية حسرة مسكينة! ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، وأمهلتنا بعض الوقت، قبل ملاقاة هذا التكليف الثقيل المخيف!

إن أشد الناس حماسة واندفاعًا وتهورًا، قد يكونون هم أشد الناس جزعًا وانهيارًا وهزيمة عندما يجد الجد، وتقع الواقعة.. بل إن هذه قد تكون القاعدة! ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالبًا ما تكون منبعثة عن عدم التقدير لحقيقة التكاليف. لا عن شجاعة واحتمال وإصرار، كما أنها قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال؛ قلة احتمال الضيق والأذى والهزيمة؛ فتدفعهم قلة الاحتمال إلى طلب الحركة والدفع والانتصار بأي شكل دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع والانتصار.. حتى إذا وُجهوا بهذه التكاليف كانت أثقل مما قدروا، وأشق مما تصوروا، فكانوا أول الصف جزعًا ونكولًا وانهيارًا.. على حين يثبت أولئك الذين كانوا يمسكون أنفسهم، ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت؛ ويعدون للأمر عدته، ويعرفون حقيقة تكاليف الحركة، ومدى احتمال النفوس لهذه التكاليف. فيصبرون ويتمهلون ويعدون للأمر عدته.. والمتهورون المندفعون المستحمسون يحسبونهم إذ ذاك ضعافًا، ولا يعجبهم تمهلهم ووزنهم للأمور! وفي المعركة يتبين أي الفريقين أكثر احتمالًا؛ وأي الفريقين أبعد نظرًا كذلك!

وأغلب الظن أن هذا الفريق الذي تعنيه هذه الآيات كان من ذلك الصنف، الذي يلذعه الأذى في مكة فلا يطيقه؛ ولا يطيق الهوان وهو ذو عزة، فيندفع يطلب من الرسول ﷺ أن يأذن له بدفع الأذى، أو حفظ الكرامة. والرسول ﷺ يتبع في هذا أمر ربه بالتريث والانتظار، والتربية والإعداد، وارتقاب الأمر في الوقت المناسب. فلما أن أمن هذا الفريق في المدينة؛ ولم يعد هناك أذى ولا إذلال، وبعد لسع الحوادث عن الذوات والأشخاص؛ لم يعد يرى للقتال مبررًا؛ أو على الأقل لم

---

(١) أي: وقت نزول الآيات.. وإلا فالصحابة خير القرون، وكلهم عدول، وهم أفضل الأمة، ولا يُقاسون بغيرهم.

يعد يرى للمسارعة به ضرورة!

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾

وقد يكون هذا الفريق مؤمنًا فعلًا. بدليل اتجاههم إلى اللَّه في ضراعة وأسى! وهذه الصورة ينبغي أن تكون في حسابنا. فالإيمان الذي لم ينضج بعد؛ والتصور الذي لم تتضح معالمه؛ ولم يتبين صاحبه وظيفة هذا الدين في الأرض - وأنها أكبر من حماية الأشخاص، وحماية الأقوام، وحماية الأوطان، إذ إنها في صميمها قرار منهج اللَّه في الأرض، وإقامة نظامه العادل في ربوع العالم؛ وإنشاء قوة عليا في هذه الأرض ذات سلطان، يمنع أن تغلق الحدود دون دعوة الله؛ ويمنع أن يحال بين الأفراد والاستماع للدعوة في أي مكان على سطح الأرض؛ ويمنع أن يفتن أحد من الأفراد عن دينه إذا هو اختاره بكامل حريته - بأي لون من ألوان الفتنة -، ومنها أن يطارد في رزقه أو في نشاطه حيث هو - وهذه كلها مهام خارجة عن وقوع أذى على أشخاص بعينهم أو عدم وقوعه.. وإذن فلم يكن الأمن في المدينة - حتى على فرض وجوده كاملًا غير مهدد - لينهي مهمة المسلمين هناك؛ وينهى عن الجهاد!

الإيمان الذي لم ينضج بعد ليبلغ بالنفس إلى إخراج ذاتها من الأمر؛ والاستماع فقط إلى أمر اللَّه واعتباره هو العلة والمعلول، والسبب والمسبب، والكلمة الأخيرة - سواء عرف المكلف حكمتها أم لم تتضح له - والتصور الذي لم تتضح معالمه بعد ليعرف المؤمن مهمة هذا الدين في الأرض؛ ومهمته هو - المؤمن - بوصفه قدرًا من قدر الله، ينفذ به اللَّه ما يشاءه في هذه الحياة.. لا جرم ينشأ عنه مثل هذا الموقف، الذي يصوره السياق القرآني هذا التصوير؛ ويعجب منه هذا التعجب! وينفِّر منه هذا التنفير.

فأما لماذا لم يأذن اللَّه للمسلمين - في مكة - بالانتصار من الظلم؛ والرد على العدوان؛ ودفع الأذى بالقوة.. وكثيرون منهم كان يملك هذا؛ فلم يكن ضعيفًا ولا

مستضعفًا؛ ولم يكن عاجزًا عن رد الصاع صاعين.. مهما يكن المسلمون في ذلك الوقت قلة.

أما حكمة هذا، والأمر بالكف عن القتال، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والصبر والاحتمال.. حتى وبعض المسلمين يلقى من الأذى والعذاب ما لا يطاق، وبعضهم يتجاوز العذاب طاقته؛ فيفتن عن دينه. وبعضهم لا يحتمل الاستمرار في العذاب فيموت تحت وطأته.

أما حكمة هذا فلسنا في حل من الجزم بها؛ لأننا حينئذ نتألى على اللَّه ما لم يبين لنا من حكمة؛ ونفرض على أوامره أسبابًا وعللًا قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية، أو قد تكون، ولكن يكون وراءها أسباب وعلل أخرى لم يكشف لنا عنها، ويعلم ـ سبحانه ـ أن فيها الخير والمصلحة.. وهذا هو شأن المؤمن أمام أي تكليف، أو أي حكم في شريعة اللَّه ـ لم يبين اللَّه سببه محددًا جازمًا حاسمًا ـ فمهما خطر له من الأسباب والعلل لهذا الحكم أو لذلك التكليف؛ أو لكيفية تنفيذ هذا الحكم أو طريقة أداء ذلك التكليف، مما يدركه عقله ويحسن فيه.. فينبغي أن يعتبر هذا كله مجرد احتمال. ولا يجزم ـ مهما بلغت ثقته بعلمه وعقله وتدبره لأحكام اللَّه ـ بأن ما رآه من حكمة هو الحكمة التي أرادها الله.. نصًّا.. وليس وراءها شيء، وليس من دونها شيء! فذلك التحرير هي مقتضى الأدب الواجب مع الله. ومقتضى ما بين علم اللَّه ومعرفة الإنسان من اختلاف في الطبيعة والحقيقة.

وبهذا الأدب الواجب نتناول حكمة عدم فرض الجهاد في مكة وفرضيته في المدينة.. نذكر ما يتراءى لنا من حكمة وسبب.. على أنه مجرد احتمال.. وندع ما وراءه لله. لا نفرض على أمره أسبابًا وعللًا، لا يعلمها إلا هو.. ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح!

إنها أسباب اجتهادية تخطئ وتصيب، وتنقص وتزيد، ولا نبغي بها إلا مجرد

تدبر أحكام اللَّه وفق ما تظهره لنا الأحداث في مجرى الزمان:

أ ـ ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة.

ومن أهداف التربية والإعداد ـ في مثل هذه البيئة بالذات ـ تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم يقع على شخصه أو على من يلوذون به؛ ليخلص من شخصه، ويتجرد من ذاته، ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به محور الحياة في نظره، ودافع الحركة في حياته.. وتربيته كذلك على ضبط أعصابه؛ فلا يندفع لأول مؤثر ـ كما هي طبيعته ـ ولا يهتاج لأول مهيج؛ ليتم الاعتدال في طبيعته وحركته.. وتربيته على أن يتبع مجتمعًا منظمًا له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته؛ ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره ـ مهما يكن مخالفًا لمألوفه وعادته ـ وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي؛ لإنشاء «**المجتمع المسلم**» الخاضع لقيادة موجهة؛ المترقي المتحضر، غير الهمجي أو القبلي.

ب ـ وربما كان ذلك ـ أيضًا ـ؛ لأن الدعوة السلمية أشد أثرًا وأنفذ في مثل بيئة قريش؛ ذات العنجهية والشرف؛ والتي قد يدفعها القتال معها ـ في مثل هذه الفترة ـ إلى زيادة العناد وإلى نشأة ثارات دموية جديدة، كثارات العرب المعروفة، التي أثارت حرب داحس والغبراء، وحرب البسوس ـ أعوامًا طويلة، تفانت فيها قبائل برمتها ـ، وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام، فلا تهدأ بعد ذلك أبدًا. ويتحول الإسلام من دعوة، إلى ثارات وذحول تنسى معها فكرته الأساسية، وهو في مبدئه، فلا تذكر أبدًا!

ج ـ وربما كان ذلك ـ أيضًا ـ، اجتنابًا لإنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت. فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم، إنما كان ذلك موكولًا إلى أولياء كل فرد، يعذبونه هم ويفتنونه و«**يؤدبونه**»!

ومعنى الإذن بالقتال ـ في مثل هذه البيئة ـ أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت..

ثم يقال: هذا هو الإسلام! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في الموسم، في أوساط العرب القادمين للحج والتجارة: إن محمدًا يفرق بين الوالد وولده؛ فوق تفريقه لقومه وعشيرته! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي.. في كل بيت وكل محلة؟

د ـ وربما كان ذلك ـ أيضًا ـ؛ لما يعلمه اللَّه من أن كثير من المعاندين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم، ويعذبونهم ويؤذونهم؛ هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قادته.. ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟!

هـ ـ وربما كان ذلك ـ أيضًا ـ؛ لأن النخوة العربية في بيئة قبلية، من عادتها أن تثور للمظلوم، الذي يحتمل الأذى، ولا يتراجع! وبخاصة إذا كان الأذى واقعًا على كرام الناس فيهم.. وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة ـ في هذه البيئة ـ فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر ـ وهو رجل كريم ـ يهاجر ويخرج من مكة، ورأى في ذلك عارًا على العرب! وعرض عليه جواره وحمايته... وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب، بعدما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة.

بينما في بيئة أخرى من البيئات ذات الحضارة القديمة التي مردت على الذل، قد يكون السكوت على الأذى مدعاة للهزء والسخرية والاحتقار من البيئة؛ وتعظيم المؤذي الظالم المعتدي!

و ـ وربما كان ذلك ـ أيضًا ـ؛ لقلة عدد المسلمين حينذاك، وانحصارهم في مكة. حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة، أو بلغت أخبارها متناثرة؛ حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف.. ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة، إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة ـ حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم ـ ويبقى الشرك، وتنمحي الجماعة المسلمة، ولم يقم في الأرض للإسلام نظام، ولا

وجد له كيان واقعي.. وهو دين جاء ليكون منهج حياة، وليكون نظامًا واقعيًا عمليًا للحياة.

ز - في الوقت ذاته لم يكن هناك ضرورة قاهرة ملحة لتجاوز هذه الاعتبارات كلها، والأمر بالقتال ودفع الأذى؛ لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائمًا - وقتها - ومحققًا.. هذا الأمر الأساسي هو «**وجود الدعوة**».. وجودها في شخص الداعية ﷺ وشخصه في حماية سيوف بني هاشم، فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع! والنظام القبلي السائد يجعل كل قبيلة تخشى أن تقع في حرب مع بني هاشم، إذا هي امتدت يدها إلى محمد ﷺ فكان شخص الداعية من ثم محميًا حماية كافية.. وكان الداعية يبلغ دعوته - إذن - في حماية سيوف بني هاشم ومقتضيات النظام القبلي، ولا يكتمها، ولا يخفيها، ولا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغها وإعلانها، في ذوات قريش، في الكعبة، ومن فوق جبل الصفا، وفي اجتماعات عامة.. ولا يجرؤ أحد على سد فمه؛ ولا يجرؤ أحد على خطفه وسجنه أو قتله! ولا يجرؤ أحد على أن يفرض عليه كلامًا بعينه يقوله؛ يلعن فيه بعض حقيقة دينه؛ ويسكت عن بعضها. وحين طلبوا إليه أن يكف عن سب آلهتهم وعيبها لم يكف. وحين طلبوا إليه أن يسكت عن عيب دين آبائهم وأجدادهم وكونهم في جهنم لم يسكت. وحين طلبوا إليه أن يدهن فيدهنوا؛ أي: أن يجاملهم فيجاملوه؛ بأن يتبع بعض تقاليدهم ليتبعوا هم بعض عبادته، لم يدهن... وعلى الجملة كان للدعوة «**وجودها**» الكامل، في شخص رسول اللَّه ﷺ محروسًا بسيوف بني هاشم - وفي إبلاغه لدعوة ربه كاملة في كل مكان وفي كل صورة.. ومن ثم لم تكن هناك الضرورة القاهرة لاستعجال المعركة، والتغاضي عن كل هذه الاعتبارات البيئية التي هي في مجموعها مساندة للدعوة، ومساعدة في مثل هذه البيئة.

هذه الاعتبارات - كلها - فيما نحسب - كانت بعض ما اقتضت حكمة اللَّه -

معه ـ أن يأمر المسلمين بكف أيديهم، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.. لتتم تربيتهم وإعدادهم، ولينتفع بكل إمكانيات الخطة في هذه البيئة، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة في الوقت المناسب، وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها، فلا يكون لذواتهم فيها حظ؛ لتكون خالصة لله، وفي سبيل الله.. والدعوة لها «**وجودها**» وهي قائمة ومؤداة ومحمية ومحروسة..

وأيًّا ما كانت حكمة اللَّه من وراء هذه الخطة، فقد كان هناك المتحمسون يبدون لهفتهم على اللحظة التي يؤذن لهم فيها بالقتال، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

وكان وجود هذه الطائفة في الصف المسلم ينشئ فيه حالة من الخلخلة وينشئ فيه حالة من عدم التناسق بين هذه الطائفة الجزوع الهلوع، وبين الرجال المؤمنين، ذوي القلوب الثابتة المطمئنة؛ المستقبلة لتكاليف الجهاد ـ على كل ما فيها من مشقة ـ بالطمأنينة والثقة والعزم والحماسة أيضًا. ولكن في موضعها المناسب. فالحماسة في تنفيذ الأمر حين يصدر هي الحماسة الحقيقية. أما الحماسة قبل الأمر، فقد تكون مجرد اندفاع وتهور؛ يتبخر عند مواجهة الخطر!

وكان القرآن يعالج هذه الحالة بمنهجه الرباني:

﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾

إنهم يخشون الموت، ويريدون الحياة، ويتمنون ـ في حسرة مسكينة ـ لو كان اللَّه قد أمهلهم بعض الوقت؛ ومد لهم ـ شيئًا ـ في المتاع بالحياة!

والقرآن يعالج هذه المشاعر في منابتها؛ ويجلو غبش التصور لحقيقة الموت والأجل.

﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾...

متاع الدنيا كله، والدنيا كلها. فما بال أيام، أو أسابيع، أو شهور، أو سنين؟ ما قيمة هذا الإمهال لأجل قصير إذا كان متاع الحياة الدنيا بطولها في جملته قليلًا؟! ما الذي يملكون تحقيقه من المتاع في أيام، أو أسابيع، أو شهور، أو سنين. ومتاع الدنيا كله والدنيا بطولها قليل!؟

﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾...

فالدنيا ـ أولًا ـ ليست نهاية المطاف ولا نهاية الرحلة.. إنها مرحلة .. ووراءها الآخرة والمتاع فيها هو المتاع ـ فضلًا على أن المتاع فيها طويل كثير ـ فهي ﴿خَيْرٌ﴾... ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾... وتذكر التقوى هنا والخشية والخوف في موضعها. التقوى لله. فهو الذي يُتَّقَى، وهو الذي يُخْشَى. وليس الناس.. الناس الذين سبق أن قال: إنهم يخشونهم كخشية اللَّه ـ أو أشد خشية! ـ والذي يتقي اللَّه لا يتقي الناس. والذي يعمر قلبه الخوف من اللَّه لا يخاف أحدًا. فماذا يملك له إذا كان اللَّه لا يريد؟

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾...

فلا غبن، ولا ضير، ولا بخس، إذا فاتهم شيء من متاع الدنيا فهناك الآخرة، وهناك الجزاء الأوفى؛ الذي لا يبقى معه ظلم ولا بخس في الحساب الختامي للدنيا والآخرة جميعًا! (١)

٢١ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [النساء: ٨٤].

قال الحافظ ابن كثير: «يأمر ـ تعَالَى ـ عبده ورسوله محمدًا ﷺ بأن يباشر القتال بنفسه، ومن نكل عنه فلا عليه منه، ولهذا قال: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ﴾

---

(١) الظلال (٢/٧١٢ ـ ٧١٦).

عن أبي إسحاق قال: سألت البراء بن عازب، عن الرجل يلقى مئة من العدو، فيقاتل، أيكون ممن قال الله فيه: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]؟ قال: قد قال الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ: **﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[(١)].

وقوله: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: على القتال، ورغِّبهم فيه وشجِّعهم عنده، كما قال لهم ﷺ يوم بدر، وهو يسوي الصفوف: **«قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»**[(٢)].

وقد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك.

وقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: بتحريضك إياهم على القتال تنبعث هممهم على مناجزة الأعداء، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله، ومقاومتهم ومصابرتهم.

﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾؛ أي: هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤] الآية»[(٣)].

قمة التحضيض على القتال.. قمة التكليف الشخصي، الذي لا يُقعدُ الفردَ عنه تبطئةٌ ولا تخذيلٌ، ولا خللَ في الصف، ولا وعورةَ في الطريق، حيث يوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ بأن يُقاتل ـ ولو كان وحيدًا ـ ليس عليه إلا نفسه؛ مع تحريض المؤمنين، غير متوقف مضيه في الجهاد على استجابتهم أو عدم استجابتهم، ولو أن عدم استجابتهم جملة أمر لا يكون، ولكن وضع المسألة في هذا الوضع

---

(١) **إسناده حسن**: أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/٥٧٠٤).

(٢) جزء من حديث طويل رواه مسلم (١٤٥) (١٩٠١)، وأحمد (٣/١٣٦، ١٣٧) من حديث أنس بن مالك، وهو عند أبي داود (٢٦١٨) مختصرًا.

(٣) تفسير ابن كثير (٤/١٧٨، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢).

يدل على ضرورة إبراز هذا التكليف على هذا النحو، واستجاشة النفوس له هذه الاستجاشة، وكذلك يوحي إلى النفوس بالطمأنينة ورجاء النصر، فاللَّه هو الذي يتولى المعركة، ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾.

وتبرز الآية مدى المخاوف والمتاعب في التعرُّض لقتال المشركين يومذاك.. حتى ليكون أقصى ما يعلق اللَّه به رجاء المؤمنين أن يتولى هو ـ سبحانه ـ كفَّ بأس الذين كفروا، مع إبراز قوة اللَّه ـ سبحانه ـ وأنه ﴿أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾، وإيحاء هذه الكلمات واضح عن قوة بأس الذين كفروا يومذاك، ربما كان هذا بين «**أُحُد**» و«**الخندق**»، فهذه أحرج الأوقات التي مرَّ بها المسلمون؛ بين المنافقين وكيد اليهود، وتحفُّز المشركين.

وتبرز الآية لنا حاجة النفس البشرية ـ وهي تُدفع إلى التكاليف التي تشق عليها ـ إلى شدة الارتباط بالله، وشدة الطمأنينة إليه، وشدة الاستعانة به، وشدة الثقة بقدرته وقوته.. فكل وسائل التقوية غير هذه لا تُجدي حين يبلغ الخطر قمته. وهذه كلها حقائق يستخدمها المنهج الرباني، واللَّه هو الذي خلق هذه النفوس، وهو الذي يعلم كيف تُرَبَّى، وكيف تُقوَّى، وكيف تستجاش، وكيف تستجيب[1].

ثم قال بعد هذه الآية: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [النساء: ٨٥]؛ فالذي يُشَجِّع ويحرِّض ويعاون على القتال في سبيل اللَّه يكون له نصيب من أجر هذه الدعوة وآثارها، والذي يبطئ ويثبط تكون له تبعة فيها وفي آثارها. وهذا عام في كل شفاعة خير أو شفاعة سوء.

٢٢ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ **[المائدة: ٣٥]**.

---

(١) **انظر**: الظلال (٢/٧٢٤، ٧٢٥).

قال ابن جرير في تفسيره (٦/١٤٦، ١٤٧): «يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله فيما أخبرهم ووعدهم من الثواب وأوعد من العقاب ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: أجيبوا الله فيما أمركم ونهاكم بالطاعة له في ذلك، وحققوا إيمانكم وتصديقكم ربكم ونبيكم بالصالح من أعمالكم.

﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾: اطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه، ويعني بالوسيلة: القربة».

والوسيلة: هي القربة في الأعمال، وهو قول ابن عباس، وأبي وائل، وعطاء، ومجاهد، والحسن، وعبدالله بن كثير، والسدي.

قال ابن زيد: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾: المحبة، قال: تحببوا إلى الله.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: «**جاهدوا أيها المؤمنون أعدائي وأعداءكم.** ﴿فِى سَبِيلِهِۦ﴾؛ يعني: في دينه وشريعته التي شرعها لعباده، وهي الإسلام. يقول: أتعبوا أنفسكم في قتالهم وحملهم على الدخول في الحنيفية المسلمة. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: كيما تنجحوا؛ فتدركوا البقاء الدائم والخلود في جناته».

وقال ابن كثير: «**وقوله:** ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ لما أمرهم بترك المحارم، وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين، الخارجين عن الصراط المستقيم، والتاركين للدين القويم، ورغبهم في ذلك بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة، من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد ولا تحول ولا تزول، في الغرف العالية الرفيعة الآمنة، الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي من سكنها ينعم ولا ييأس، ويحيى ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»[1].

٢٣ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [**الأنفال: ٢٤**].

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/٢٠٤).

قال البخاري: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾: أجيبوا. ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾: لما يصلحكم. قال مجاهد في قوله: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ قال: الحق.

عن عروة بن الزبير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ أي: للحرب التي أعزَّكم الله ـ تعالَى ـ بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

ورجح الطبري في قوله: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ أنه هو: الحق. وذلك أن ذلك إذا كان معناه كان داخلًا فيه الأمر بإجابتهم لقتال العدو والجهاد، والإجابة إذا دعاكم إلى حكم القرآن، وفي الإجابة إلى كل ذلك حياة المجيب، أما في الدنيا فيُقال: الذكر الجميل، وذلك له فيه حياة، وأما في الآخرة فحياة الأبدان في الجنان والخلود فيها»[1].

٢٤ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ **[الأنفال: ٣٩، ٤٠]**.

عن نافع عن ابن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أن رجلًا جاءه فقال: يا أبا عبدالرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ الآية، فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يابن أخي، أعيَّر بهذه الآية ولا أقاتل أحبُّ إليَّ من أن أُعيَّر بالآية التي يقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا﴾ [النساء: ٩٣] إلى آخر الآية. قال: فإن الله ـ تعالَى ـ يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾. قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلًا، وكان الرجل يُفتن في دينه، إما أن يقتلوه، وإما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة...»[2].

---

(١) الطبري (٩/١٤١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير برقم (٤٦٥٠).

عن ابن عباس: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ﴾؛ يعني: لا يكون شرك.

وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم.

وقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾: عن ابن عباس في هذه الآية، قال: يخلص التوحيد لله.

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾: لا يكون مع دينكم كفر.

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾؛ أي: بقتالكم عما هم فيه من الكفر، فكُفُّوا عنهم، وإن لم تعلموا بواطنهم.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ، قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال: لا إله إلا الله، فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال لأسامة: «**أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟**» فقال: يا رسول الله؛ إنما قالها تعوُّذًا. قال: «**هلا شققت عن قلبه؟**» وجعل يقول ويكرر عليه «**من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟**» قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم[1].

وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾؛ أي: وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم، فاعلموا أن الله مولاكم وسيدكم وناصركم على أعدائكم، فنعم المولى ونعم النصير[2].

قال ربعي بن عامر رضي الله عنه: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ظلم الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي (٤٢٦٩)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان برقم (٩٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/٧٦، ٧٧، ٧٨).

الدنيا والآخرة.

جاء الإسلام لدفع الفتنة والأذى عمن يعتنقون هذا الدين، ويرجعون بعبوديتهم لله وحده، ويخرجون من العبودية للعبيد في جميع الصور والأشكال، جاء الإسلام لإزالة الشرك وعبودية البشر للبشر، وإزالة سلطان الطواغيت، وسلطانهم القاهر للأفراد حتى يدين العباد فقط لسلطان اللَّه القاهر.

إن هذا الدين ليس نظرية يتعلمها الناس في كتاب للترف الذهني والتكاثر بالعلم والمعرفة، وليس كذلك عقيدة سلبية يعيش بها الناس بينهم وبين ربهم وكفى، وليس مجرد شعائر تعبدية يؤديها الناس لربهم فيما بينهم وبينه، وإنما هو دين أتى ليزيل حواجز الإدراك والرؤية بالتبليغ والبيان..ويزيل حواجز الأوضاع المادية وسلطان الطواغيت بالجهاد؛ حتى يحرر الإنسان من العبودية لغير الله.

❏ **بُعِثَ النبي ﷺ بأربعة أسياف:**

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: بعث النبي ﷺ بأربعة أسياف: سيف في المشركين من العرب، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] هكذا رواه مختصرًا.

قال ابن كثير في تفسيره (٧/ ١٥٠): «وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب؛ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

والسيف الثالث: قتال المنافقين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] الآية.

والرابع: قتال الباغين في قوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

٢٥- قال - تعَالَى -: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة: ٥]

هذه آية السيف.

قال ابن كثير: «اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم هاهنا، ما هي؟

فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله - تعَالَى -: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] الآية. قاله أبو جعفر الباقر، ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم.

وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وإليه ذهب الضحاك أيضًا، وفيه نظر.

والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه، وبه قال مجاهد، وعمرو بن شعيب، ومحمد بن إسحاق، وقتادة، والسدي، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم، أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها في قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢][(١)]. ثم قال: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾؛ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر.

وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾؛ أي: من الأرض، وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

---

(١) من يوم النحر إلى عشرين خَلَوْنَ من ربيع الآخر، وبعد ذلك يضع فيهم السيف حتى يدخلوا في الإسلام، وهذا فيمن كان له عهد، أما من ليس له عهد أَمَرَ الله نبيه ﷺ إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف؛ يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام، قاله الضحاك بن مزاحم.

وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾؛ أي: وأسروهم، إن شئتم قتلًا، وإن شئتم أسرًا.

وقوله: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾؛ أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم، حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عهد وكل مدة.

وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم، ومدة من كان له عهد من المشركين ـ قبل أن تنزل ـ أربعة أشهر من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر.

وقال علي بن أبي طالب، عن ابن عباس في هذه الآية؛ قال: أمره اللَّه ـ تَعَالَى ـ أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام؛ ونقض ما كان سمَّى لهم من العهد والميثاق وأذهب الشرط الأول»[1].

قال القرطبي: قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ عام في كل مشرك، لكن السنة خصَّتْ منه ما تقدم بيانه في سورة البقرة[2] من امرأة وراهب وصبي وغيرهم. وقال اللَّه ـ تَعَالَى ـ في أهل الكتاب: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾[3]. إلا أنه يجوز أن يكون لفظ «**المشركين**» لا يتناول أهل الكتاب، ويقتضي ذلك منع أخذ الجزية من عبدة الأوثان وغيرهم.

واعلم أن مطلق قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ يقتضي جواز قتلهم بأيِّ وجه

---

(١) تفسير ابن كثير (١٤٧/٧، ١٤٨).

(٢) **راجع**: تفسير القرطبي (٣٤٨/٢)، الطبعة الثانية.

(٣) التوبة: ٢٩.

كان؛ إلا أن الأخبار وردت بالنهي عن المُثلة. ومع هذا فيجوز أن يكون الصديق ﷺ حين قتل أهل الردة بالإحراق بالنار، وبالحجارة وبالرمي من رءوس الجبال، والتنكيس في الآثار، تعلق بعموم الآية. وكذلك إحراق عليٍّ ﷺ قومًا من أهل الردة يجوز أن يكون مَيْلًا إلى هذا المذهب، واعتمادًا على عموم اللفظ، والله أعلم.

قوله - تَعَالَى -: ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ عام في كل موضع. وخص أبو حنيفة المسجد الحرام؛ ثم اختلفوا؛ فقال الحسين بن الفضل: نسخت هذه كل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على الأعداء.

وقال الضحاك، والسدِّيُّ، وعطاء: هي منسوخة بقوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]، وأنه لا يُقتل أسير صبرًا، إما أن يُمَنَّ عليه، وإما أن يفادَى. وقال مجاهد وقتادة: بل هي ناسخة لقوله - تَعَالَى -: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]، وأنه لا يجوز في الأسارى من المشركين إلا القتل. وقال ابن زيد: الآيتان محكمتان. وهو الصحيح؛ لأن المنَّ والقتل والفداء لم يزل من حكم رسول الله ﷺ فيهم من أول حرب حاربهم، وهو يوم بدر. ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ يدلُّ عليه. والأخذ هو الأسر. والأسر إنما يكون للقتل، أو الفداء، أو المنِّ، على ما يراه الإمام.

قوله - تَعَالَى - ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ وفي هذا دليل على جواز اغتيالهم قبل الدعوة[1].

☐ ٢٦. يا ليت قومي يوقنون بكلام الله، فما بعد قول الله من أقوال:

كأن القرآن يُعنَى به غيرنا ولم ينزل إلينا.. كأنما لا نوقن بكلام ربنا وهو الفصل ليس بالهزل، وقد ضعنا يوم أن تركناه وبعدنا عنه، تاه منا الطريق يوم أعرضنا عنه، وهُنَّا على الناس بهوان ديننا..

قد بين الله موقف المشركين من المسلمين فقال - تَعَالَى -:

---

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٩١١، ٢٩١٢).

٢٦- ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ۝١٠﴾ [التوبة: ٩، ١٠].

قال ابن كثير في تفسيره (١٥٤/٧): «يقول - تعالَى - ذمًّا للمشركين وحثًّا للمؤمنين على قتالهم: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾؛ يعني: أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات اللَّه بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة. ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾؛ أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أ. هـ.

﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾

قال ابن جرير الطبري في تفسيره (٦١/١٠): «لا يتقي هؤلاء المشركون - الذين أمرتكم أيها المؤمنون بقتلهم حيث وجدتموهم - في قتل مؤمن لو قدروا عليه إلًّا ولا ذمَّةً. يقول: فلا تُبقوا عليهم - أيها المؤمنون - كما لا يبقون عليكم لو ظهروا عليكم. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾: المتجاوزون فيكم إلى ما ليس لهم بالظلم والاعتداء».

وقال - رحمه اللَّه - (٥٩/١٠، ٦٠): «واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾؛ فقال بعضهم معناه: لا يرقبوا اللَّه فيكم ولا عهدًا.

قال مجاهد: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا﴾ قال: الله.

وعن أبي مجلز قال: مثل قوله: جبرائيل، ميكائيل، إسرافيل كأنه يقول: يضاف جبر، وميكا، واسراف إلى إيل. يقول: عبدالله، لا يرقبون في مؤمن إلًّا كأنه يقول: لا يرقبون الله.

وعن مجاهد: ﴿إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾: لا يرقبون اللَّه ولا غيره.

وقال آخرون: الإل: القرابة.

ذكر من قال ذلك: عن علي عن ابن عباس قوله: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا

ذِمَّةً﴾ يقول: قرابة ولا عهدًا.

وقال قتادة: لا يرقبون فيكم إلًّا ولا ذمة قال: الإلُّ: الحلف، والذمة: العهد.

وقال آخرون: الإل هو العهد. عن مجاهد إلًّا قال: عهدًا.

قال ابن جرير (١٠/٦٠): «والإل اسم يشتمل على معان ثلاثة؛ وهي: العهد، والعقد، والحلف والقرابة. وهو ـ أيضًا ـ بمعنى الله، فإذا كانت الكلمة تشمل هذه المعاني الثلاثة ولم يكن الله خصَّ من ذلك معنى دون معنى فالصواب أن يعمَّ ذلك، كما عمَّ بها ـ جلَّ ثناؤه ـ معانيها الثلاثة، فيُقال: لا يرقبون في مؤمن اللهَ ولا قرابةً ولا عهدًا ولا ميثاقًا. ومن الدلالة على أنه يكون بمعنى القرابة.

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفٌ خَلَفُوا   قَطَّعُوا الْإِلَّ وَأَعْرَاقَ الرَّحِمْ

وقول حسَّان بن ثابت:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ   كَإِلِّ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ[1]

وأما معناه إذا كان بمعنى العهد فقول القائل:

إن قلوب المشركين تنغل بالحقد على المسلمين في كل زمان ومكان، وتأبى أن تقيم على عهد، فما بهم وفاء للمسلمين ولا ود.. من أجل الإسلام يعادونهم.

«وهذا هو السبب الأصيل لهذا الحقد الدفين عليكم، وإضمار عدم الوفاء بعهودكم، والانطلاق في التنكيل بكم ـ لو قدروا ـ من كل تحرج ومن كل تذمم.. إنه الفسوق عن دين الله، والخروج عن هداه. فلقد آثروا على آيات الله التي جاءتهم ثمنًا قليلًا من عرض هذه الحياة الدنيا، يستمسكون به ويخافون فوته. وقد كانوا يخافون أن يُضَيِّع عليهم الإسلام شيئًا من مصالحهم؛ أو أن يكلفهم شيئًا من أموالهم؛ فصدوا عن سبيل الله بسبب شرائهم هذا الثمن القليل بآيات الله. صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم «**فسيجيء أنهم أئمة الكفر**».. أما فعلهم هذا فهو الفعل

---

(١) السقب: ولد الناقة. والرَّال: ولد النعام.

السيئ الذي يقرر الله سوءه الأصيل: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾!..

ثم إنهم لا يضمرون هذا الحقد لأشخاصكم؛ ولا يتبعون تلك الخطة المنكرة معكم بذواتكم.. إنهم يضطغنون الحقد لكل مؤمن؛ ويتبعون هذا المنكر مع كل مسلم.. إنهم يوجهون حقدهم وانتقامهم لهذه الصفة التي أنتم عليها؛ للإيمان ذاته.. كما هو المعهود في كل أعداء الصفوة الخالصة من أهل هذا الدين، على مدار التاريخ والقرون.. فكذلك قال السحرة لفرعون وهو يتوعدهم بأشد أنواع التعذيب والتنكيل والتقتيل: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦].. وكذلك قال رسول الله ﷺ لأهل الكتاب بتوجيه من ربه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩]؟ وقال ـ سبحانه ـ عن أصحاب الأخدود الذين أحرقوا المؤمنين: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨]. فالإيمان هو سبب النقمة، ومن ثم هم يضطغنون الحقد لكل مؤمن، ولا يراعون فيه عهدًا، ولا يتذممون من منكر؛ ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

فصفة الاعتداء أصيلة فيهم.. تبدأ من نقطة كرههم للإيمان ذاته وصدودهم عنه؛ وتنتهي بالوقوف في وجهه؛ وتربصهم بالمؤمنين؛ وعدم مراعاتهم لعهد معهم ولا صلة، إذا هم ظهروا عليهم؛ وأمنوا بأسهم وقوتهم. وعندئذ يفعلون بهم الأفاعيل غير مراعين لعهد قائم. ولا متحرجين، ولا متذممين من منكر يأتونه معهم.. وهم آمنون..!

إن المسلمين يواجهون أعداء يتربصون بهم؛ ولا يُقعد هؤلاء الأعداء عن الفتك بالمسلمين بلا شفقة ولا رحمة إلا عجزهم عن ذلك، لا يقعدهم عهد معقود. ولا ذمة مرعية، ولا تحرج من مذمة، ولا إبقاء على صلة.. ووراء هذا التقرير تاريخ طويل، يشهد كله بأن هذا هو الخط الأصيل الذي لا ينحرف إلا لطارئ زائل، ثم يعود فيأخذ طريقه المرسوم!

هذا التاريخ من الواقع العملي؛ بالإضافة إلى طبيعة المعركة المحتومة بين منهج الله الذي يُخرج الناس من العبودية للعباد ويردهم إلى عبادة الله وحده، وبين مناهج الجاهلية التي تُعبِّد الناس للعبيد.. يواجهه المنهج الحركي الإسلامي بتوجيه من الله ـ سبحانه ـ، بهذا الحسم الصريح: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فإما دخول فيما دخل فيه المسلمون، وتوبة عما مضى من الشرك والاعتداء. وعندئذ يصفح الإسلام والمسلمون عن كل ما لقوا من هؤلاء المشركين المعتدين؛ وتقوم الوشيجة على أساس العقيدة؛ ويصبح المسلمون الجدد إخوانًا للمسلمين القدامى؛ ويسقط ذلك الماضي كله بمساءاته من الواقع ومن القلوب!

﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

فهذه الأحكام إنما يدركها ويدرك حكمتها الذين يعلمون، وهم المؤمنون.

وإما نكث لما يبايعون عليه من الإيمان بعد الدخول فيه، وطعن في دين المسلمين. فهم إذن أئمة في الكفر، لا أيمان لهم ولا عهود. وعندئذ يكون القتال لهم؛ لعلهم حينئذ أن يثوبوا إلى الهدى.. كما سبق أن قلنا: إن قوة المعسكر المسلم وغلبته في الجهاد قد ترد قلوبًا كثيرة إلى الصواب؛ وتريهم الحق الغالب فيعرفونه؛ ويعلمون أنه إنما غلب لأنه الحق؛ ولأن وراءه قوة الله؛ وأن رسول الله ﷺ صادق فيما أبلغهم من أن الله غالب هو ورسله. فيقودهم هذا كله إلى التوبة والهدى. لا كرهًا وقهرًا، ولكن اقتناعًا بالقلب بعد رؤية واضحة للحق الغالب. كما وقع وكما يقع في كثير من الأحايين.

والتاريخ يشهد: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾:

وبعد.. فما المدى الذي تعمل فيه هذه النصوص؟ ما المدى التاريخي والبيئي؟

أهي خاصة بأهل الجزيرة العربية في ذلك الزمان المحدود؟ أم أن لها أبعادًا أخرى في الزمان والمكان؟

إن هذه النصوص كانت تواجه الواقع في الجزيرة العربية بين المعسكر الإسلامي ومعسكرات المشركين. وما من شك أن الأحكام الورادة بها مقصود بها هذا الواقع، وأن المشركين المعنيين فيها هم مشركو الجزيرة.

هذا حق في ذاته.. ولكن ترى هذا هو المدى النهائي لهذه النصوص؟

إن علينا أن نتتبع موقف المشركين ـ على مدى التاريخ ـ من المؤمنين؛ ليتكشف لنا المدى الحقيقي لهذه النصوص القرآنية، ولنرى الموقف بكامله على مدار التاريخ.

فأما في الجزيرة العربية فلعل ذلك معلوم من أحداث السيرة المشهورة، ولعل في هذا الجزء من الظلال وحده ما يكفي لتصوير مواقف المشركين من هذا الدين وأهله منذ الأيام الأولى للدعوة في مكة حتى هذه الفترة التي تواجهها نصوص هذه السورة.

وحقيقة إن المعركة الطويلة الأمد لم تكن بين الإسلام والشرك بقدر ما كانت بين الإسلام وأهل الكتاب من اليهود والنصارى. ولكن هذا لا ينفي أن موقف المشركين من المسلمين كان دائمًا هو الذي تصوره آيات هذا المقطع من السورة:

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

لقد كان هذا هو الموقف الدائم للمشركين وأهل الكتاب من المسلمين؛ فأما أهل الكتاب فندع الحديث عنهم إلى موعده في المقطع الثاني من السورة؛ وأما المشركون فقد كان هذا دأبهم من المسلمين على مدار التاريخ.

وإذا نحن اعتبرنا أن الإسلام لم يبدأ برسالة محمد ﷺ إنما ختم بهذه الرسالة. وأن موقف المشركين من كل رسول ومن كل رسالة من قبل إنما يمثل موقف الشرك من دين

اللَّه على الإطلاق؛ فإن أبعاد المعركة تترامى؛ ويتجلى الموقف على حقيقته؛ كما تصوره تلك النصوص القرآنية الخالدة، على مدار التاريخ البشري كله بلا استثناء!

ماذا صنع المشركون مع نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وشعيب، وموسى، وعيسى - عليهم صلوات اللَّه وسلامه - والمؤمنين بهم في زمانهم؟ ثم ماذا صنع المشركون مع محمد ﷺ والمؤمنين به كذلك؟ إنهم لم يرقبوا فيهم إِلًّا ولا ذمة متى ظهروا عليهم وتمكنوا منهم.

وماذا صنع المشركون بالمسلمين أيام الغزو الثاني للشرك على أيدي التتار؟ ثم ما يصنع المشركون والملحدون اليوم بعد أربعة قرنًا بالمسلمين في كل مكان؟.. إنهم لا يرقبون فيهم إِلًّا ولا ذمة، كما يقرر النص القرآني الصادق الخالد.

عندما ظهر الوثنيون التتار على المسلمين في بغداد وقعت المأساة الدامية التي سجلتها الروايات التاريخية والتي نكتفي فيها بمقتطفات سريعة من تاريخ «**البداية والنهاية**» لابن كثير فيما رواه من أحداث عام ٦٥٦هـ[١]: «ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان. ودخل كثير من الناس في الآبار، وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون. وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات، ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار، إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم، فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة، فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة - فإنا لله وإنا إليه راجعون - كذلك في المساجد والجوامع والربط. ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومَنْ التجأ إليهم[٢] وإلى دار الوزير ابن

---

(١) البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، (ج/١٣).

(٢) ذلك أن اليهود والنصارى - من أهل الذمة - كانوا ممن كاتب التتار لغزو عاصمة الخلافة والقضاء على الإسلام والمسلمين فيها، وممن دلوا على عورات المدينة، وشاركوا مشاركةً فعليةً في هذه الكارثة، واستقبلوا التتار الوثنيين بالترحاب؛ ليقضوا لهم على المسلمين الذين أعطوهم ذمتهم ووفروا لهم الأمن والحماية!!.

العلقمي الرافضي، وطائفة من التجار أخذوا أمانًا بذلوا عليه أموالًا جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم. وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب، ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة.

وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة. فقيل: ثمان مئة ألف. وقيل: ألف ألف. وقيل: بلغت القتلى ألفي ألف نفس ـ فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم ـ وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم. وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يومًا.. وكان قتل الخليفة المستعصم باللَّه أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر، وعفى قبره، وكان عمره يومئذ ستًّا وأربعين سنة وأربعة أشهر. ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام. وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد، وله خمس وعشرون سنة. ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبدالرحمن وله ثلاث وعشرون سنة، وأسر ولده الأصغر مبارك، وأسرت أخواته الثلاث: فاطمة، وخديجة، ومريم.

وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، وكان عدو الوزير، وقتل أولاده الثلاثة: عبدالله، وعبدالرحمن، وعبدالكريم، وأكابر الدولة واحدًا بعد واحد؛ منهم: الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك، وشهاب الدين سليمان شاه، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد.. وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بني العباس، فيخرج بأولاده ونسائه، فيذهب إلى مقبرة الخلال، تجاه المنظرة، فيذبح كما تذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه.. وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين علي ابن النيار. وقتل الخطباء، والأئمة، وحملة القرآن. وتعطلت المساجد والجامعات والجُمُعات مدة شهور ببغداد.

ولما انقضى الأمر المقدر، وانقضت الأربعون يومًا، بقيت بغداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول،

وقد سقط عليهم المطر، فتغيرت صورهم، وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء، والوباء، والفناء، والطعن، والطاعون. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نودي ببغداد بالأمان، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم؛ وقد أنكر بعضهم بعضًا، فلا يعرف الوالد ولده، ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد؛ فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى..» إلخ إلخ.

❑ وعبَّاد البقر الوثنيون الهنود:

هذه صورة من الواقع التاريخي، حينما ظهر المشركون على المسلمين فلم يرقبوا فيهم إِلًّا ولا ذمة. فهل كانت صورة تاريخية من الماضي البعيد الموغل في الظلمات، اختص بها التتار في ذلك الزمان؟

كلا! إن الواقع التاريخي الحديث لا تختلف صوره عن هذه الصورة!.. إن ما وقع من الوثنيين الهنود عند انفصال باكستان لا يقل شناعة ولا بشاعة عما وقع من التتار في ذلك الزمان البعيد.. إن ثمانية ملايين من المهاجرين المسلمين من الهند ـ ممن أفزعتهم الهجمات البربرية المتوحشة على المسلمين الباقين في الهند، فآثروا الهجرة على البقاء ـ قد وصل منهم إلى أطراف باكستان ثلاثة ملايين فقط! أما الملايين الخمسة الباقية فقد قضوا بالطريق.. طلعت عليهم العصابات الهندية الوثنية المنظمة، المعروفة للدولة الهندية جيدًا، والتي يهيمن عليها ناس من الكبار في الحكومة الهندية، فذبحتهم كالخراف على طول الطريق، وتركت جثثهم نهبًا للطير والوحش، بعد التمثيل بها ببشاعة منكرة، لا تقل ـ إن لم تزد ـ على ما صنعه التتار بالمسلمين من أهل بغداد!

أما المأساة البشعة المروعة المنظمة فكانت في ركاب القطار الذي نقل الموظفين

المسلمين في أنحاء الهند إلى باكستان، حيث تم الاتفاق على هجرة من يريد الهجرة من الموظفين المسلمين في دوائر الهند إلى باكستان، واجتمع في هذا القطار خمسون ألف موظف، ودخل القطار بالخمسين ألف موظف في نفق بين الحدود الهندية الباكستانية يسمى «**ممر خيبر**».. وخرج من الناحية الأخرى وليس به إلا أشلاء ممزقة متناثرة في القطار!.. لقد أوقفت العصابات الهندية الوثنية المدربة الموجهة القطار في النفق، ولم تسمح له بالمضي في طريقه إلا بعد أن تحول الخمسون ألف موظف إلى أشلاء ودماء! وصدق قول اللَّه ـ سبحانه ـ: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

وما تزال هذه المذابح تتكرر في صور شتى.

❑ **والشيوعيون:**

ثم ماذا فعل خلفاء التتار في الصين الشيوعية وروسيا الشيوعية بالمسلمين هناك؟.. لقد أبادوا من المسلمين ـ في خلال ربع قرن ـ ستة وعشرين مليونًا.. بمعدل مليون في السنة.. وما تزال عمليات الإبادة ماضية في الطريق.. ذلك غير وسائل التعذيب الجهنمية التي تقشعر لهولها الأبدان. وفي هذا العام وقع في القطاع الصيني من التركستان المسلمة ما يغطي على بشاعات التتار.. لقد جيء بأحد الزعماء المسلمين، فحفرت فله حفرة في الطريق العام، وكلف المسلمون تحت وطأة التعذيب والإرهاب، أن يأتوا بفضلاتهم الآدمية (التي تتسلمها الدولة من الأهالي جميعًا لتستخدمها في السماد مقابل ما تصرفه لهم من الطعام!!!) فيلقوها على الزعيم المسلم في حفرته.. وظلت العملية ثلاثة أيام والرجل يختنق في الحفرة على هذا النحو حتى مات!

كذلك فعلت يوغسلافيا الشيوعية بالمسلمين فيها حتى أبادت منهم مليونًا منذ الفترة التي صارت فيها شيوعية بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم.

وما تزال عمليات الإبادة والتعذيب الوحشي ـ التي من أمثلتها البشعة إلقاء

المسلمين رجالًا ونساء في «**مفارم**» اللحوم التي تصنع لحوم «**البولوبيف**» ليخرجوا من الناحية الأخرى عجينة من اللحم والعظام والدماء ـ ماضية إلى الآن!!!

وما يجري في يوغسلافيا يجري في جميع الدول الشيوعية والوثنية.. الآن.. في هذا الزمان.. ويصدق قول الله ـ سبحانه ـ: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾، ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

إنها لم تكن حالة طارئة ولا وقتية في الجزيرة العربية، ولم تكن حالة طارئة ولا وقتية في بغداد.. إنها الحالة الدائمة الطبيعية الحتمية؛ حيثما وجد مؤمنون يدينون بالعبودية لله وحده؛ ومشركون أو ملحدون يدينون بالعبودية لغير الله.

في كل زمان وفي كل مكان.

ومن ثم فإن تلك النصوص ـ وإن كانت قد نزلت لمواجهة حالة واقعة في الجزيرة، وعنت بالفعل تقرير أحكام التعامل مع مشركي الجزيرة ـ إلا أنها أبعد مدى في الزمان والمكان؛ لأنها تواجه مثل هذه الحالة دائمًا في كل زمان وفي كل مكان. والأمر في تنفيذها إنما يتعلق بالمقدرة على التنفيذ في مثل الحالة التي نفذت فيها في الجزيرة العربية، ولا يتعلق بأصل الحكم، ولا بأصل الموقف الذي لا يتبدل على الزمان»[(١)].

٢٧ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة: ١٢].

قال ابن كثير (١٧/١٥٥): «﴿وَإِن نَّكَثُوا﴾: هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة. ﴿أَيْمَانَهُم﴾؛ أي: عهودهم ومواثيقهم. ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾؛ أي: عابوه وانتقصوه. ومن هاهنا أُخِذ قَتْل من سب الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه

---

(١) الظلال (٣/١٦٠٦ ـ ١٦١٠).

.، أو من طِعن في دين الإسلام، أو ذكره بتنقُّص، ولهذا قال: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾؛ أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال.

وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر: كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف، وعدَّد رجالًا.

وعن حذيفة أنه قال: ما قُوتِل أهل هذه الآية بعد. والصحيح أن الآية عامة، وإن كان سبب نزولها مشركي قريش، فهي عامة لهم ولغيرهم. واللَّه أعلم.

وعن عبدالرحمن بن جبير بن نفير: أنه كان في عهد أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى الناس حين وجههم إلى الشام، قال: إنكم ستجدون قومًا مُحَوَّقة رءوسهم، فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف، فواللَّه لأن أقتل رجلًا منهم أحب إليَّ من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن اللَّه يقول: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾(١).

قال القرطبي: قوله: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾؛ أي: بالاستنقاص والحرب وغير ذلك مما يفعله المشرك.

استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كل من طعن في الدين إذ هو كافر، والطعن أن يُنسب إليه ما لا يليق به، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين؛ لما ثبت من الدليل القطعي على صحة أصوله واستقامة فروعه. وقال ابن المنذر: أجمع عامة أهل العلم على أنَّ من سب النبي ﷺ عليه القتل. وممن قال ذلك مالك، والليث، وأحمد، وإسحاق، وهو مذهب الشافعي.

رُوي أن رجلًا قال في مجلس عليٍّ: ما قُتِل كعب بن الأشرف إلا غدرًا؛ فأمر عليٌّ بضرب عنقه. وقاله آخر في مجلس معاوية فقام محمد بن مسلمة فقال: أيُقال هذا في مجلس وتسكت؟! واللَّه لا أساكنك تحت سقف أبدًا، ولئن خلوت به

(١) تفسير ابن كثير (٧/١٥٥).

لأقتلنَّه.

قال علماؤنا: هذا يُقتل ولا يستتاب إنْ نسب الغدر للنبي ﷺ، وهو الذي فهمه عليٌّ ومحمد بن مسلمة ـ رضوان اللَّه عليهما ـ من قائل ذلك؛ لأن ذلك زندقة.

فأما إن نسبه للمباشرين لقتله بحيث يقول: إنهم أمَّنوه ثم غدروه لكانت هذه النسبة كذبًا محضًا؛ فإنه ليس في كلامهم معه ما يدل على أنهم أمَّنوه ولا صرَّحوا له بذلك، ولو فعلوا ذلك لما كان أمانًا؛ لأن النبي ﷺ إنما وجَّههم لقتله لا لتأمينه، وأذن لمحمد بن مسلمة في أن يقول. وعلى هذا فيكون في قتل من نسب ذلك لهم نظرٌ وتردُّدٌ. وسببه هل يلزم من نسبة الغدر لهم نسبته للنبي ﷺ، لأنه قد صوَّب فعلهم ورضي به، فيلزم منه أنه قد رضِي بالغدر، ومن صرَّح بذلك قُتِل؟ أو يلزم من نسبة الغدر لهم نسبته للنبي ﷺ فلا يُقتل؟ ولهذا قلنا: لا يُقتل، فلا بد من تنكيل ذلك القائل وعقوبته بالسجن، والضرب الشديد، والإهانة العظيمة.

فأما الذمي إذا طعن في الدين انتقض عهده في المشهور من مذهب مالك؛ لقوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ الآية. فأمر بقتلهم وقتالهم، وهو مذهب الشافعي ـ رحمه اللَّه ـ.

وإذا حارب الذميُّ نُقض عهده.

أكثر العلماء على أن من سبَّ النبي ﷺ من أهل الذمَّة، أو عرَّض، أو استخفَّ بقدره، أو وصفه بغير الوجه الذي كفر به فإنه يُقتل، فإنا لم نعطه الذمة والعهد على هذا.

واستدل عليه بعضهم بأمره ﷺ بقتل كعب بن الأشرف وكان معاهدًا.

قوله ـ تعَالَى ـ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾.

﴿أَئِمَّةَ﴾: جمع إمام، والمراد صناديد قريش ـ في قول بعض العلماء ـ؛ كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف، وهذا بعيد؛ فإن الآية في «**سورة براءة**» وحين نزلت وقُرِئت على الناس كان اللَّه قد استأصل شأفة قريش، فلم يبق إلا

مسلم أو مسالِم، فيحتمل أن يكون المراد ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾؛ أي: من أقدم على نكث العهد والطعن في الدين يكون أصلًا ورأسًا في الكفر، فهو من أئمة الكفر على هذا، ويحتمل أن يعني به المقدمون والرؤساء منهم، وأن قتالهم قتال لأتباعهم، وأنهم لا حرمة لهم. والأصل: أَأْمِمَة؛ كمثال وأمثلة، ثم أدغمت الميم في الميم، وقُلبت الحركة على الهمزة، فاجتمعت همزتان، فأبدلت من الثانية ياء.

وقرأ ابن عامر: ﴿لَآ إِيمَٰنَ لَهُمۡ﴾ بكسر الهمزة؛ من الإيمان؛ أي: لا إسلام لهم.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾؛ أي: عن كفرهم وباطلهم وأذيتهم للمسلمين، وذلك يقتضي أن يكون الغرض من قتالهم دفع ضررهم؛ لينتهوا عن مقاتلتنا، ويدخلوا في ديننا»[1].

٢٨- قال - تعالَى -: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [التوبة: **١٣**].

قال ابن كثير: «وهذا - أيضًا - تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم، الذين همُّوا بإخراج الرسول من مكة، كما قال - تعالَى -: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال - تعالَى -: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ [الممتحنة: ١] الآية

وقال - تعالَى -: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾ [الإسراء:٧٦].

وقوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾؛ قيل: المراد بذلك يوم «**بدر**» حين خرجوا لنصر عيرهم، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم؛ طلبًا

---

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٩٢٠، ٢٩٢١، ٢٩٢٢، ٢٩٢٣، ٢٩٢٤).

للقتال؛ بغيًا وتكبُّرًا.

وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة (أحلاف رسول اللَّه ﷺ)، حتى سار إليهم رسول اللَّه ﷺ عام الفتح، وكان ما كان، ولله الحمد والمنَّة»[١].

قال القرطبي: «**قوله ـ تعَالَى ـ:** ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ توبيخ، وفيه معنى التحضيض.

﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ ؛ أي: تخافوا عقابه في ترك قتالهم، مِن أَن تخافوا أن ينالكم في قتالهم مكروه»[٢].

٢٩ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [**التوبة: ١٤، ١٥**].

قال ابن جرير في تفسيره (١٠/٦٤): «يقول ـ تعَالَى ذكره ـ: قاتلوا أيها المؤمنون باللَّه ورسوله هؤلاء المشركين الذين نكثوا أيمانهم ونقضوا عهودهم بينكم وبينهم وأخرجوا رسول اللَّه ﷺ من بين أظهرهم؛ ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ ؛ يقول: يقتلهم اللَّه بأيديكم. ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾ يقول: ويذلهم بالأسر والقهر. ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيعطيكم الظفر عليهم والغلبة. ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ ؛ يقول: ويبرئ داء صدور قوم مؤمنين باللَّه ورسوله بقتل هؤلاء المشركين بأيديكم وإذلالكم وقهركم إياهم، وذلك الداء هو ما كان في قلوبهم عليهم من الموجدة بما كانوا ينالونهم به من الأذى والمكروه». اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير (٧/١٥٦): «قال ـ تعَالَى ـ عزيمة على المؤمنين، وبيانًا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده:

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/١٥٦).

(٢) القرطبي (٤/٢٩٢٥).

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾، وهذا عام في المؤمنين كلهم.

وقال مجاهد، وعكرمة، والسدي في هذه الآية: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ يعني: خزاعة».

«﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾.

قاتلوهم يجعلكم اللَّه ستار قدرته، وأداة مشيئته، فيعذبهم بأيديكم، ويخزهم بالهزيمة وهم يتخايلون بالقوة، وينصركم عليهم، ويشف صدور جماعة من المؤمنين ممن آذاهم وشردهم المشركون. يَشْفِهَا من غيظها المكظوم، بانتصار الحق كاملًا، وهزيمة الباطل، وتشريد المبطلين.

وليس هذا وحده، ولكن خيرًا آخر يُنتظر، وثوابًا آخر يُنال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾.

فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان، ويفتح بصيرتهم على الهدى حين يرون المسلمين يُنصرون، ويحسون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم، ويرون آثار الإيمان في مواقفهم - وهذا ما كان فعلًا - وعندئذٍ ينال المسلمون المجاهدون أجر جهادهم، وأجر هداية الضالين بأيديهم؛ وينال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء المهتدين التائبين.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ عليم بالعواقب المخبوءة وراء المقدمات. حكيم يقدر نتائج الأعمال والحركات.

إن بروز قوة الإسلام وتقريرها؛ ليستهوي قلوبًا كثيرة تصد عن الإسلام الضعيف، أو الإسلام المجهول القوة والنفوذ. وإن الدعوة إلى الإسلام لتختصر نصف الطريق حين تكون الجماعة المسلمة بادية القوة، مرهوبة الجانب، عزيزة الجناب.

على أن اللَّه ـ سبحانه ـ وهو يربي الجماعة المسلمة بالمنهج القرآني الفريد لم يكن يعدها ـ وهي في مكة قلة قليلة مستضعفة مطاردة ـ إلا وعدًا واحدًا؛ هو الجنة. ولم يكن يأمرها إلا أمرًا واحدًا؛ هو الصبر.. فلما أن صبرت وطلبت الجنة وحدها دون الغلب، آتاها اللَّه النصر؛ وجعل يحرضها عليه ويشفي صدورها به. ذلك أن الغلب والنصر عندئذ لم يكن لها، ولكن لدينه وكلمته، وإن هي إلا ستار لقدرته[1].

٣٠ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/١٧٥ـ ١٧٧): «وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعد ما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين اللَّه أفواجًا، فلما استقرَّت جزيرة العرب، أمر اللَّه رسوله بقتال أهل الكتابيْن، اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول اللَّه ﷺ لقتال الروم، ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فأوعبوا[2] معه، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفًا، وتخلَّف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جدب ووقت قيظ وحرٍّ، وخرج رسول اللَّه ﷺ يريد الشام، لقتال الروم، فبلغ «**تبوك**»، فنزل بها وأقام على مائها قريبًا من عشرين يومًا، ثم استخار اللَّه في الرجوع، فرجع عامه ذلك؛ لضيق الحال وضعف الناس.

وقد استدل بهذه الآية الكريمة مَن يرى أنه لا تُؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس، كما صحَّ فيهم الحديث أن رسول اللَّه ﷺ أخذها من مجوس هجر، وهذا مذهب الشافعي، وأحمد في المشهور عنه. وقال أبو حنيفة ـ

---

(١) الظلال (٣/١٦١٢).

(٢) أوعب القوم: خرجوا جميعًا.

رحمه اللَّه ـ: بل تُؤخذ من جميع الأعاجم، سواءً كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين، ولا تُؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب.

وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تُضرَب الجزيةِ على جميع الكفار، من كتابي، ومجوس، ووثني، وغير ذلك.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾؛ أي: إن لم يسلموا. ﴿عَن يَدٍ﴾؛ أي: عن قهر لهم وغلبة. ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾؛ أي: ذليلون حقيرون مهانون، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صغرة أشقياء، كما جاء في «**صحيح مسلم**» عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه**»[١]؛ ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفَّاظ من رواية عبدالرحمن بن غنم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب ﷺ حين صالح نصارى من أهل الشام:

«بسم اللَّه الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد اللَّه عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديرًا، ولا كنيسة، ولا قلاية[٢]، ولا صومعة راهب، ولا نجدِّد ما خرب منها، ولا نحيي منها ما كان خِططا[٣] للمسلمين، وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسِّع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ننزل من مرَّ بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوسًا، ولا نكتم

---

(١) صحيح مسلم، كتاب السلام (٣/٢١٦٧).

(٢) القلية: كالصومعة، هكذا وردت، واسمها عند النصارى: القلَّاية، وهو تعريب كلَّادة؛ وهي: من بيوت عبادتهم.

(٣) الخطيط: جمع خطَّة؛ وهي: الأرض يختطها الإنسان لنفسه، بأن يُعَلِّمَ عليها علامةً ويخطَّ عليها خطًّا؛ ليعلم أنه قد احتازها.

غشًّا للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركًا، ولا ندعو إليه أحدًا، ولا نمنع أحدًا من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة، ولا عمامة، ولا نعليْن، ولا فرْق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكُناهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئًا من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجزَّ مقاديم رءوسنا، وأن نلزم زيّنا حيثما كنا، وأن نشد الزنانير على أوساطنا، وألا نظهر الصليب على كنائسنا، وألَّا نُظهر صُلُبَنَا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضربًا خفيفًا، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج سعانين[1] ولا باعوثا[2]، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين، ولا نطلع عليهم في منازلهم».

قال: فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه: ولا نضرب أحدًا من المسلمين، وشرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم، ووظفنا على أنفسنا فلا ذمة لنا، وقد حلَّ لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق»[3].

قال القرطبي: «أمر ـ سبحانه وتعالى ـ بمقاتلة جميع الكفار لإصفاقهم على هذا الوصف، وخصَّ أهل الكتاب بالذكر؛ إكرامًا لكتابهم، ولكونهم عالمين بالتوحيد والرسل والشرائع والملل، وخصوصًا ذكر محمد ﷺ وملته وأمته. فلما أنكروه

---

(١) سعانين: عيد للنصارى معروف، قبل عيدهم الكبير بأسبوع.

(٢) الباعوث للنصارى: كالاستسقاء للمسلمين، وهو اسم سرياني.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (١٧٦/٢، ١٧٧).

تأكَّدت عليهم الحجَّة وعظمت منهم الجريمة، فنبَّه على محلهم، ثم جعل للقتال غاية، وهي إعطاء الجزية بدلًا عن القتل. وهو الصحيح.

قال ابن العربي: سمعت أبا الوفاء علي بن عقيل في مجلس النظر يتلوها ويحتج بها، فقال: ﴿قَٰتِلُواْ﴾ وذلك أمر بالعقوبة، ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ وذلك بيان للذنب الذي أوجب العقوبة، وقوله: ﴿وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ تأكيد للذنب في جانب الاعتقاد، ثم قال: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ زيادة للذنب مع مخالفة الأعمال، ثم قال: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة والأنفة عن الاستسلام. ثم قال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تأكيد للحجة؛ لأنهم كانوا يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، ثم قال: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ﴾ فبيَّن الغاية التي تمتد إليها العقوبة، وبين البدل الذي ترتفع به.

● وقد اختلف العلماء فيمن تُؤخذ منه الجزية، فقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: لا تُقبل الجزية إلَّا من أهل الكتاب خاصة، عربًا كانوا أو عجمًا؛ لهذه الآية؛ فإنهم هم الذين خصُّوا بالذكر فتوجَّه الحكم إليهم دون من سواهم؛ لقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ ولم يقل: حتى يعطوا الجزية، كما قال في أهل الكتاب. وقال: وتُقبل من المجوس بالسُّنَّة؛ وبه قال أحمد، وأبو ثور، وهو مذهب الثوري، وأبي حنيفة وأصحابه.

وقال الأوزاعي: تؤخذ الجزية من كل عابد وثن أو نار أو جاحدٍ أو مكذِّب. وكذلك مذهب مالك؛ فإنه رأى أن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشرك والجحد، عربيًّا أو أعجميًّا، تغلبيًّا أو قرشيًّا، كائنًا من كان إلا المرتد.

وأما المجوس فقال ابن المنذر: لا أعلم خلافًا أن الجزية تُؤخذ منهم.

وفي «**الموطأ**»: مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر أمر المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم؟ فقال عبدالرحمن بن عوف: أشهدُ

لسمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**سُنُّوا بهم سُنَّة أهل الكتاب**». قال أبو عمر: يعني في الجزية خاصة.

● إجماع من العلماء على أن الجزية إنما توضع على جماجم الرجال الأحرار البالغين، وهم الذين يُقاتلون دون النساء والذرية والعبيد والمجانين المغلوبين على عقولهم والشيخ الفاني، واختُلف في الرهبان، فروى ابن وهب عن مالك أنها لا تُؤخذ منهم.

قال مطرف وابن الماجشون: هذا إذا لم يترهَّب بعد فرضها، فإن فُرِضت ثم ترهَّب لم يُسقطها ترهُّبه.

● **وقد اختلف العلماء في مقدار الجزية.**

فقال عطاء بن أبي رباح لا توقيت فيها، وإنما هو على ما صُولحوا عليه، وكذلك قال يحيى بن آدم وأبو عبيد والطبري؛ إلا أن الطبري قال: أقله دينار لأكثره لا حدّ له. واحتجوا بما رواه أهل الصحيح عن عمرو بن عوف أن رسول اللَّه ﷺ صالح أهل البحرين على الجزية. وقال الشافعي: دينار على الغني والفقير من الأحرار البالغين، لا يُنقص منه شيء، واحتج بما رواه أبو داود وغيره عن معاذ: أن رسول اللَّه ﷺ بعثه إلى اليمن، وأمره أن يأخذ من كل حالم دينارًا في الجزية. قال الشافعي: وهو المبيِّن عن اللَّه ـ تَعَالَى ـ مراده، وهو قول أبي ثور. قال الشافعي: وإن صولحوا على أكثر من دينار جاز، وقال مالك: إنها أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهمًا على أهل الوَرِق، الغني والفقير سواء.

قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿عَن يَدٍ﴾؛ قال ابن عباس: يدفعها بنفسه غير مستنيب فيها أحدًا.

وقال سلمان: مذمومين. وقال قتادةٍ: عن قهر، وقال عكرمة: يدفعها وهو قائم والآخذ جالس؛ وقاله سعيد بن جبير.

عن عبداللَّه بن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**اليد العليا خير من اليد السفلى،**

واليد العُليا هي المنفقة، واليد السفلى هي السائلة»(١)، فجعل يد المعطي في الصدقة عُليا، وجعل يد المُعطي في الجزية سُفْلى. ويد الآخذ عُليا؛ ذلك بأنه الرافع الخافض، يرفع من يشاء، ويخفض من يشاء، لا إله غيره»(٢).

❑ يا ليت قومي يعلمون:

إن المراجعة الموضوعية للتقريرات القرآنية ـ المكية والمدنية ـ عن أهل الكتاب، تظهر بجلاء موقف الإسلام إلى عقائد أهل الكتاب التي جاء الإسلام فوجدهم عليها، وانحرافها وبطلانهم وكفرهم بدين اللَّه الصحيح ـ حتى بما أنزل عليهم منه، وبالنصيب الذي أوتوه من قبل، حتى لا يَدَّع مدع ويفتري كذَّابٌ مفتري أن الإسلام يدعو إلى احترام الأديان، ويعني بها الأديان الموجودة الآن؛ أي: المحرَّفة، أما قبل التحريف فهو دين واحد، وهو الإسلام.

لقد حكم اللَّه بكفرهم وتحريفهم، وهذا معلوم من الدين بالضرورة لا ينكره إلا خارج من ملة الإسلام.

قال ـ تعالَى ـ: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [المائدة: ٨٢- ٨٥].

وهذه الآيات نزلت في النجاشي ومن معه بعد إسلامه وإسلامهم. فيأتي الدجَّالون من علماء السوء ويجعلونها في مديح النصارى، وهذا تحريف بَيِّنٌ لكلام

---

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي عن أبي هريرة.

(٢) تفسير القرطبي (٤/٢٩٤٨ ـ ٢٩٥٤) مُلَخَّصًا.

الله.

وقال - تعالى -: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ [الزخرف: ٦٣- ٦٥].

وقال - تعالى -: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى: ١٤].

وقال - تعالى -: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وتضمَّن القرآن المدني الكلمة الأخيرة في حقيقة ما عليه أهل الكتاب، كما حكى عنهم أشنع الوسائل وأبشع الطرق في حرب هذا الدين وأهله في قطاعات طويلة من سور: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، وغيرها.

قال - تعالى -: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٥- ٧٩].

وقال - تعالَى -: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: ٨٧ - ٩١].

وقال - تعالَى -: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: ٩٨، ٩٩].

وقال - تعالَى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ

بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥١، ٥٢].

وقال ـ تَعالَى ـ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٢- ٧٥].

إن اللَّه ـ سبحانه ـ يقرِّر طبيعة موقف أهل الكتاب من المسلمين في عدة مواضع من كتابه الكريم. وهو ـ سبحانه ـ تارة يتحدث عنهم وحدهم، وتارة يتحدث عنهم مع الذين كفروا من المشركين؛ باعتبار أن هناك وحدة هدف ـ تجاه الإسلام والمسلمين ـ تجمع الذين كفروا من أهل الكتاب والذين كفروا من المشركين. وتارة يتحدث عن مواقف واقعية لهم تكشف عن وحدة الهدف ووحدة التجمع الحركي لمواجهة الإسلام والمسلمين.. والنصوص التي تقرِّر هذه الحقائق من الوضوح والجزم بحيث لا تحتاج منا إلى تعليق؛ وهذه نماذج منها:

- **قال ـ تعالى ـ:** ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾ [البقرة: **١٠٥**].
- **وقال ـ تعَالَى ـ:** ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾

[البقرة: ١٠٩].

- وقالي - تعالى -: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].
- وقال - تعالى -: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٩].
- وقال - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ [النساء: ٤٤، ٤٥].
- وقال - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١].

وإذا نحن راجعنا الأهداف النهائية للمشركين تجاه الإسلام والمسلمين كما يقررها الله - سبحانه - في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢].

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الممتحنة: ٢].

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠].

إذا نحن راجعنا هذه التقريرات الربانية عن المشركين، وجدنا أن الأهداف النهائية لهم تجاه الإسلام والمسلمين هي بعينها - وتكاد تكون بألفاظها - هي الأهداف النهائية لأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين كذلك.. مما يجعل طبيعة موقفهم مع الإسلام والمسلمين هي ذاتها طبيعة موقف المشركين.

هذه التقريرات القرآنية الواردة في هؤلاء وهؤلاء ترد في صيغ نهائية تدل

بصياغتها على تقرير طبيعة دائمة.

فإذا نحن ألقينا نظرة سريعة على الواقع التاريخي لهذه العلاقات، متمثلة في مواقف أهل الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ من الإسلام وأهله، على مدار التاريخ، تبيَّن لنا تمامًا ماذا تعنيه تلك النصوص والتقريرات الإلهية الصادقة، وتقرَّر لدينا أنها كانت تقرِّر طبيعة مطردة ثابتة.

تاريخ من العداء العنيد، والكيد الناصب، والحرب الدائبة التي لم تفتر على مدار التاريخ ضد المسلمين.

❑ **كيد اليهود وحربهم للمسلمين:**

فأما اليهود فقد تحدثت شتى سور القرآن عن مواقفهم وأفاعيلهم وكيدهم ومكرهم وحربهم؛ وقد وعى التاريخ من ذلك كله ما لم ينقطع لحظة واحدة منذ اليوم الأول الذي واجههم الإسلام في المدينة حتى اللحظة الحاضرة!

وسنشير هنا فقط إلى قليل من كثير من تلك الحرب المسعورة التي شنها اليهود على الإسلام وأهله على مدار التاريخ.

لقد استقبل اليهود رسول اللَّه ﷺ ودينه في المدينة شر ما يستقبل أهل دين سماوي رسولًا يعرفون صدقه، ودينًا يعرفون أنه الحق.

استقبلوه بالدسائس والأكاذيب والشبهات والفتن، يلقونها في الصف المسلم في المدينة بكافة الطرق الملتوية الماكرة التي يتقنها اليهود.. شككوا في رسالة رسول اللَّه ﷺ وهم يعرفونه، واحتضنوا المنافقين، وأمدُّوهم بالشبهات التي ينشرونها في الجو، وبالتُّهم والأكاذيب، وما فعلوه في حادث تحويل القبلة، وما فعلوه في حادث الإفك، وما فعلوه في كل مناسبة، ليس إلا نماذج من هذا الكيد اللئيم.. وفي مثل هذه الأفاعيل كان يتنزل القرآن الكريم، وسور: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والحشر، والأحزاب، والتوبة، وغيرها تضمنت من هذا الكثير؛ قال ـ تعالى ـ:

- ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة: ٨٩، ٩٠].
- ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة: ١٠١].
- ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة: ١٤٢].
- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران: ٧٠، ٧١].
- ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: ٧٢].
- ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٧٨].
- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران: ٩٨، ٩٩].
- ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ

أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [النساء: ١٥٣].

- ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢].

كذلك شهد التاريخ نقض اليهود لعهودهم مرة بعد مرة، وتحرشهم بالمسلمين، مما أدى إلى وقائع بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، وخيبر. كما شهد تأليب اليهود للمشركين في الأحزاب، مما هو معروف مشهور.

ثم تابع اليهود كيدهم للإسلام وأهله منذ ذلك التاريخ؛ كانوا عناصر أساسية في إثارة الفتنة الكبرى التي قتل فيها الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه وانتثر بعدها شمل التجمع الإسلامي إلى حد كبير، وكانوا رأس الفتنة فيما وقع بعد ذلك بين علي رضي الله عنه ومعاوية، وقادوا حملة الوضع في الحديث والسيرة وروايات التفسير، وكانوا من الممهدين لحملة التتار على بغداد وتقويض الخلافة الإسلامية..

فأما في التاريخ الحديث فهم وراء كل كارثة حلت بالمسلمين في كل مكان على وجه الأرض؛ وهم وراء كل محاولة لسحق طلائع البعث الإسلامي؛ وهم حماة كل وضع من الأوضاع التي تتولى هذه المحاولة في كل أرجاء العالم الإسلامي!

ذلك شأن اليهود.

- **فأما شأن الفريق الآخر من أهل الكتاب، فهو لا يقل إصرارًا على العداوة والحرب من شأن اليهود!**

لقد كانت بين الرومان والفرس عداوات عمرها قرون.. ولكن ما إن ظهر الإسلام في الجزيرة؛ وأحست الكنيسة بخطورة هذا الدين الحق على ما صنعته هي بأيديها وسمته «**المسيحية**» وهو ركام من الوثنيات القديمة، والأضاليل الكنسية،

متلبسًا ببقايا من كلمات المسيح عليه السلام وتاريخه[1].. حتى رأينا الرومان والفرس ينسون ما بينهم من نزاعات تاريخية قديمة، وعداوات وثارات عميقة؛ ليواجهوا هذا الدين الجديد.

ولقد أخذ الروم يتجمعون في الشمال، هم وعمالهم من الغساسنة؛ لِيَنْقَضُّوا على هذا الدين. وذلك بعد أن قتلوا الحارث بن عمير الأزدي رسولَ رسولِ اللَّه ﷺ إلى عامل بصرى من قبل الروم - وكان المسلمون يؤمنون الرسل، ولكن النصارى غدروا برسول النبي ﷺ وقتلوه - مما جعل رسول اللَّه ﷺ يبعث بجيش الأمراء الشهداء الثلاثة: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبداللَّه بن رواحة في غزوة «**مؤتة**»، فوجدوا تجمعًا للروم تقول الروايات عنه: إنه مئة ألف من الروم ومعه من عملائهم في الشام من القبائل العربية النصرانية مئة ألف أخرى؛ وكان جيش المسلمين لا يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل، وكان ذلك في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة.

ثم كانت غزوة «**تبوك**» التي يدور عليها معظم هذه السورة - وسيجيء تفصيل القول فيها في موضعه إن شاء اللَّه - تَعَالَى -، ثم كان جيش أسامة بن زيد الذي أعده رسول اللَّه ﷺ قبيل وفاته، ثم أنقذه الخليفة الراشد أبو بكر رضي الله عنه إلى أطراف الشام؛ لمواجهة تلك التجمعات الرومانية التي تستهدف القضاء على هذا الدين!

ثم اشتعل مِرْجَلُ الحقد الصليبي منذ موقعة «**اليرموك**» الظافرة، التي أعقبها انطلاق الإسلام لتحرير المستعمرات الإمبراطورية الرومانية في الشام، ومصر، وشمال إفريقيا، وجزر البحر الأبيض، ثم بناء القاعدة الإسلامية الوطيدة في الأندلس في النهاية.

إن «**الحروب الصليبية**» - المعروفة بهذا الاسم في التاريخ - لم تكن هي وحدها

---

(١) **راجع**: فصل «الفصام النكد» في كتاب «المستقبل لهذا الدين»، «دار الشروق».

التي شنتها الكنيسة على الإسلام.

لقد كانت هذه الحروب مبكرة قبل هذا الموعد بكثير. لقد بدأت في الحقيقة منذ ذلك التاريخ البعيد منذ أن نسي الرومان عداواتهم مع الفرس، وأخذ النصارى يُعِينُون الفرس ضد الإسلام في جنوب الجزيرة، ثم بعد ذلك في «**مؤتة**»، ثم فيما تلا موقعة «**اليرموك**» الظافرة.. ثم تجلت ضراوتها ووحشيتها في الأندلس عندما زحفت الصليبية على القاعدة الإسلامية في أوربة، وارتكبت من الوحشية في تعذيب ملايين المسلمين وقتلهم هناك ما لم يَعْرِف التاريخ له نظيرًا من قبل.

وكذلك تجلت في الحروب الصليبية في الشرق مثل هذه البشاعة التي لا تتحرج، ولا تتذمم؛ ولا تراعي في المسلمين إلًّا ولا ذمة.

ومما جاء في كتاب «**حضارة العرب**» لجوستاف لوبون ـ وهو فرنسي مسيحي ـ: «كان أول ما بدأ به ريكاردوس الإنجليزي أنه قتل أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه، بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم. ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل والسلب، مما أثار صلاح الدين الأيوبي النبيل، الذي رحم نصارى القدس، فلم يمسهم بأذى، والذي أمد فيليب وقلب الأسد بالمرطبات والأدوية والأزواد، أثناء مرضهما»[1].

كذلك كتب كاتب مسيحي آخر (اسمه يورجا)[2] يقول: «ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس بأسوأ طالع، فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء في القصور التي استولوا عليها. وقد أسرفوا في القسوة فكانوا يبقرون البطون، ويبحثون عن الدنانير في الأمعاء!

أما صلاح الدين، فلما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين، ووفى لهم بجميع عهوده، وجاد المسلمون على أعدائهم، ووطئوهم مهاد رأفتهم، حتى إن

---

(١)، (٢) نقلًا عن كتاب «الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام»، للأستاذ علي علي منصور.

الملك العادل، شقيق السلطان، أطلق ألف رقيق من الأسرى، ومَنَّ على جميع الأرمن، وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة، وأُبيح للأميرات والملكة زيارة أزواجهن».

ولا يتسع المجال ـ في الظلال ـ لاستعراض ذلك الخط الطويل للحروب الصليبية على مدار التاريخ، ولكن يكفي أن نقول: إن هذه الحرب لم تضع أوزارها قط من جانب الصليبية. ويكفي أن نذكر ماذا حدث في زنجبار حديثًا؛ حيث أبيد المسلمون فيها عن بكرة أبيهم، فقتل منهم اثنا عشر ألفًا، وألقي الأربعة الآلاف الباقون في البحر منفيين من الجزيرة. ويكفي أن نذكر ماذا وقع في قبرص؛ حيث منع الطعام والماء عن الجهات التي يقطنها بقايا المسلمين هناك؛ ليموتوا جوعًا وعطشًا، فوق ما سلط عليهم من التقتيل والتذبيح والتشريد. ويكفي أن نذكر ما تزاوله الحبشة في إريترية وفي قلب الحبشة، وما تزاوله كينيا مع المئة ألف مسلم الذين ينتمون إلى أصل صومالي، ويريدون أن ينضموا إلى قومهم المسلمين في الصومال. ويكفي أن نعلم ماذا تحاوله الصليبية في السودان الجنوبي!

ويكفي لتصوير نظرة الصليبيين إلى الإسلام أن ننقل فقرة من كتاب لمؤلف أوربي صدر سنة ١٩٤٤م يقول فيه: «لقد كنا نخوَّف بشعوب مختلفة، ولكننا ـ بعد اختبار ـ لم نجد مبررًا لمثل هذا الخوف.. لقد كنا نخوَّف من قبل بالخطر اليهودي، والخطر الأصفر، وبالخطر البلشفي، إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيلناه. إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد! ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا. أما الشعوب الصفراء فهنالك دول ديمقراطية كبرى تقاومها. ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قوته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته.. إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي»[1].

---

(١) من كتاب جورج براون نقلًا عن كتاب «التبشير والاستعمار في البلاد العربية»، للدكتور مصطفى خالدي، والدكتور عمر فروخ.

ولا نستطيع أن نمضي أبعد من ذلك في استعراض تاريخ تلك الحرب العاتية التي أعلنتها الصليبية على الإسلام وما تزال.. وقد تحدثنا من قبل مرارًا في أجزاء الظلال السابقة ـ بمناسبة النصوص القرآنية الكثيرة ـ عن طبيعة هذه المعركة، ومسائلها وأشكالها.

فحسبنا هذه الإشارات السريعة هنا بالإحالة على بعض المراجع الأخرى القريبة (١).

وهكذا نرى من هذا الاستعراض السريع ـ بالإضافة إلى ما قلناه من قبل عن طبيعة الإعلان الإسلامي العام بتحرير الإنسان، وتحفز الجاهلية في الأرض كلها لسحق الحركة الأخيرة الواردة في هذه السورة هي المقتضى الطبيعي لهذه الحقائق كلها مجتمعة؛ وأنها ليست أحكامًا محدودة بزمان، ولا مقيدة بحالة. وإن كان هذا في الوقت ذاته لا ينسخ الأحكام المرحلية السابقة النسخ الشرعي الذي يمنع العمل بها في الظروف والملابسات التي تشابه الظروف والملابسات التي تَنَزَّلَتْ فيها. فهناك دائمًا طبيعة المنهج الإسلامي الحركية، التي تواجه الواقع البشري مواجهة واقعية، بوسائل متجددة، في المراحل المتعددة (٢).

٣١ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ **[التوبة: ٣٦]**.

قال القرطبي في تفسيره (٤/٢٩٧٥): «﴿قَٰتِلُوا۟﴾ أمر بالقتال. و﴿كَآفَّةً﴾

---

(١) **راجع**: كتاب «الاستعمار والتبشير»، للدكتور مصطفى خالدي والدكتور عمر فروخ، وكتاب «الغارة على العالم الإسلامي»، للأستاذين اليافي ومحب الدين الخطيب، وكتاب «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»، للدكتور محمد محمد حسين، وكتاب «هل نحن مسلمون»، لمحمد قطب، «دار الشروق».

(٢) الظلال (١٦٢٣/٣، ١٦٣١).

معناه جميعًا، وهو مصدر في موضع الحال؛ أي: محيطين بهم ومجتمعين. لا يثنَّى ولا يجمع؛ مثل: عامَّة، وخاصَّة.

معنى هذه الآية الحضُّ على قتالهم، والتحزُّب عليهم، وجمع الكلمة».

وقال ابن كثير في تفسيره (٧/١٩٨، ١٩٩): «﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾؛ أي: جميعكم. ﴿كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾؛ أي: جميعهم. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم؟ على قولين:

أحدهما: وهو الأشهر أنه منسوخ؛ لأنه ـ تَعَالَى ـ قال هاهنا: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، وأمر بقتال المشركين، وظاهر السياق مُشعِر بأنه أمر بذلك أمرًا عامًّا، فلو كان محرمًا في الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها، ولأن رسول اللَّه ﷺ حاصر أهل «**الطائف**» في شهر حرام وهو ذو القعدة، كما ثبت في الصحيحين أنه خرج إلى «**هوازن**» في شوال، فلما كسرهم، واستفاء أموالهم، ورجع فَلُّهم، فلجئوا إلى «**الطائف**» ـ عمد إلى «**الطائف**» فحاصرهم أربعين يومًا، وانصرف ولم يفتحها. فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام.

والقول الآخر: أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام، وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام؛ لقوله ـ تعَالَى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، وقال: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] الآية، وقال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] الآية.

وأما قوله ـ تعَالَى ـ: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله، وأنه حكم مستأنف، ويكون من باب التهييج والتحضيض؛ أي: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم، فاجتمعوا أنتم أيضًا لهم

إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون. ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] الآية.

وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدءوا القتال، وجمعوا الرجال، ودعوا إلى الحرب والنزال، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدَّم ـ فلما تحصَّنوا بالطائف ذهب إليهم؛ لينزلهم من حصونهم، فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة، واستمر الحصار ـ بالمجانيق وغيرها ـ قريبًا من أربعين يومًا، وكان ابتداؤه في شهرٍ حلالٍ، ودخل الشهر الحرام فاستمرَّ فيه أيامًا، ثم قفل عنهم؛ لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء. وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة. والله أعلم».

قال الأستاذ سيد قطب: «﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾: قاتلوهم جميعًا بلا استثناء أحد منهم ولا جماعة، فهم يقاتلونكم جميعًا لا يستثنون منكم أحدًا، ولا يبقون منكم على جماعة.

والمعركة في حقيقتها إنما هي معركة بين الشرك والتوحيد، وبين الكفر والإيمان، وبين الهدى والضلال. معركة بين معسكرين متميزين، لا يمكن أن يقوم بينهما سلام دائم، ولا أن يتم بينهما اتفاق كامل؛ لأن الخلاف بينهما ليس عرضيًّا ولا جزئيًّا. ليس خلافًا على مصالح يمكن التوفيق بينها، ولا على حدود يمكن أن يعاد تخطيطها.

وإن الأمة المسلمة لتخدع عن حقيقة المعركة بينها وبين المشركين ـ وثنيين وأهل كتاب ـ إذا هي فهمت أو أفهمت أنها معركة اقتصادية، أو معركة قومية، أو معركة وطنية، أو معركة استراتيجية.. كلا، إنها قبل كل شيء معركة العقيدة، والمنهج

الذي ينبثق من هذه العقيدة؛ أي: الدين. وهذه لا تجدي فيها أنصاف الحلول، ولا تعالجها الاتفاقات والمناورات، ولا علاج لها إلا الجهاد والكفاح؛ الجهاد الشامل، والكفاح الكامل. سنة اللَّه التي لا تتخلف، وناموسه الذي تقوم عليه السماوات والأرض، وتقوم عليه العقائد والأديان، وتقوم عليه الضمائر والقلوب. في كتاب اللَّه يوم خلق اللَّه السماوات والأرض.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

فالنصر للمتقين الذين يتقون أن ينتهكوا حرمات الله، وأن يحلوا ما حرم الله، وأن يحرفوا نواميس الله. فلا يقعد المسلمون عن جهاد المشركين كافة، ولا يتخوفوا من الجهاد الشامل؛ فهو جهاد في سبيل اللَّه يقفون فيه عند حدوده وآدابه، ويتوجهون به إلى اللَّه يراقبونه في السر والعلانية. فلهم النصر؛ لأن اللَّه معهم، ومن كان اللَّه معه فهو المنصور بلا جدال»[1].

٣٢ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤١﴾ [**التوبة: ٤١**].

قال الحافظ ابن كثير: «**أمر اللَّه ـ تعالَى ـ بالنفير العام مع الرسول** ﷺ عام غزوة «**تبوك**»؛ لقتال أعداء اللَّه من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتَّم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال، في المنشط والمكره، والعسر واليسر، فقال: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾؛ عن أبي طلحة: كهولًا وشبانًا، ما أسمعُ اللهَ عَذَرَ أحدًا، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قُتِل.

وفي رواية: قرأ أبو طلحة سورة براءة، فأتى على هذه الآية: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فقال: أرى ربنا يستنفرنا؛ شيوخًا وشبانًا، جهزوني يا بني. فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول

---

(١) الظلال (٣/١٦٥٢، ١٦٥٣).

اللَّه ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمـر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه بها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغيَّر، فدفنوه بها.

وهكذا روي عن ابن عباس، وعكرمة، وأبي صالح، والحسن البصري، وشمر بن عطية، والشعبي، وزيد بن أسلم أنهم قالوا في تفسير هذه الآية ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾؛ قالوا: كهولًا وشبانًا، وكذا قال عكرمة، والضحاك، وغير واحد.

وقال مجاهد: شبانًا وشيوخًا، وأغنياء ومساكين،وكذا قال أبو صالح و غيره.

وقال الحكم بن عتبة: مشاغيل وغير مشاغيل.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ـ تَعَالَى ـ ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول: انفروا نُشَّاطًا وغير نُشَّاطٍ، وكذا قال قتادة.

عن مجاهد: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾؛ قالوا: فإن فينا الثقيل، وذا الحاجة، والضيعة، والشغل، والمتيسر به أمره، فأنزل اللَّه وأبى أن يعذرهم ـ دون أن ينفروا ـ: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾؛ أي: على ما كان منهم.

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري ـ أيضًا ـ: في العسر واليسر، وهذا كله من مقتضيات العموم [في الآية]، وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: إذا كان النفير إلى دروب الروم نفر الناس إليها؛ خفافًا وركبانًا، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافًا وثقالًا، وركبانًا ومشاةً، وهذا تفصيل في المسألة.

وقال ابن جرير(١): عن أيوب عن محمد قال: شهد أبو أيوب مع رسول اللَّه ﷺ بدرًا، ثم لم يتخلَّف عن غزاة للمسلمين إلا عامًا واحدًا، قال: وكان أبو أيوب يقول: قال اللَّه ـ تَعَالَى ـ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلا أجدني إلا خفيفًا أو

---

(١) تفسير الطبري (٢٦٧/١٤) رقم (١٦٧٥٤).

ثقيلًا.

وعن أبي راشد الحبراني قال: وافيت المقداد بن الأسود فارسَ رسول اللَّه ﷺ جالسًا على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وقد فضل عنها من عِظمه - يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر اللَّه إليك. فقال: أتت علينا سورة البحوث[1] ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وعن حبان بن زيد الشرعبي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو، وكان واليًا على حمص، قبل الأفسوس[2] إلى الجراجمة[3] فلقيت شيخًا كبيرًا هِمًّا[4] قد سقط حاجباه على عينيه، من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار، فأقبلت إليه فقلت: يا عم، لقد أعذر اللَّه إليك. قال: فرفع حاجبيه فقال: يا ابن أخي، استنفرنا اللهُ خفافًا وثقالًا، إنه من يحبه اللَّه يَبْتَلِه، ثم يعيده اللَّه فيُبقيه، وإنما يبتلي اللَّه من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا اللَّه عَزَّ وَجَلَّ.

ثم رغَّب - تَعَالَى - في النفقة في سبيله، وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله، فقال: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: هذا خير لكم في الدنيا والآخرة؛ لأنكم تعزمون في النفقة قليلًا، فيغنمكم اللَّه أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة»[5].

انفروا في كل حال، وجاهدوا بالنفوس والأموال، ولا تتلمسوا الحجج والمعاذير، ولا تخضعوا للعوائق والتَّعِلَّات ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ

---

(١) وفي رواية: سورة البعوث. يعني: سورة التوبة؛ سميت بها لِمَا تضمنت عليه من البحث في أسرار المنافقين، وهو إثارتها والتفتيش عنها. تفسير الطبري (٢٦٨/١٤) رقم (١٦٧٥٦).

(٢) الأفسوس: بلدة بثغور طرسوس بالشام. ويقال: إنها بلدة أصحاب الكهف.

(٣) الجراجمة: قوم من العجم بالجزيرة أو نبط الشام.

(٤) هِمًّا؛ أي: فانيًا.

(٥) تفسير ابن كثير (٢٠٦/٧ - ٢٠٩).

تَعۡلَمُونَ﴾، وأدرك المؤمنون المخلصون هذا الخير، فنفروا والعوائق في طريقهم، والأعذار حاضرة لو أرادوا التمسك بالأعذار، ففتح اللَّه عليهم القلوب والأرضين، وأعزَّ بهم كلمة الله، وأعزَّهم بكلمة الله، وحقق على أيديهم ما يُعدُّ خارقة في تاريخ الفتوح.

وبمثل هذا الجد في أخذ كلمات اللَّه انطلق الإسلام في الأرض، يُخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وتمت تلك الخارقة في تلك الفتوح الفريدة(١).

قال القرطبي: «اختُلِف في هذه الآية؛ فقيل: إنها منسوخة بقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾ [التوبة: ٩١]، وقيل: الناسخ لها قوله: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ [التوبة: ١٢٢]. والصحيح أنها ليست بمنسوخة.

ولقد قال ابن أم مكتوم رضي الله عنه واسمه عمرو ـ يوم «**أحد**»: أنا رجل أعمى، فسلِّموا لي اللواء؛ فإنه إذا انهزم حامل اللواء انهزم الجيش، وأنا ما أدري من يقصدني بسيفه فما أبرح.

قلنا: إن النسخ لا يصح. وقد تكون حالة يجب فيها نفير الكل، وهي:

وذلك إذا تعيَّن الجهاد بغلبة العدوِّ على قطر من الأقطار، أو بحلوله بالعُقْر، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه؛ خفافًا وثقالًا، شبابًا وشيوخًا، كل على قدر طاقته، من كان له أب بغير إذنه، ومن لا أب له، ولا يتخلَّف أحد يقدر على الخروج، من مقاتل أو مكثر. فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوِّهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة، حتى يعلموا أن بهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم. وكذلك كل من

---

(١) **انظر**: الظلال (١٦٥٧/٣).

علم بضعفهم عن عدوِّهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزم ـ أيضًا ـ الخروج إليهم؛ فالمسلمون كلهم يد على من سواهم؛ حتى إذا قام بدفع العدوِّ أهل الناحية التي نزل العدو عليها واحتلَّ بها، سقط الفرض عن الآخرين. ولو قارب العدو دار الإسلام ولم يدخلوها؛ لزم ـ أيضًا ـ الخروج إليه، حتى يظهر دين الله، وتُحمى البيْضة، وتُحفظ الحوزة، ويُخزى العدو، ولا خلاف في هذا.

وقسم ثان من واجب الجهاد: فرض ـ أيضًا ـ على الإمام إغزاء طائفة إلى العدو كل سنة مرَّة، يخرج معهم بنفسه، أو يخرج من يثق به؛ ليدعوهم إلى الإسلام ويرغبهم، ويكف أذاهم، ويظهر دين اللَّه عليهم، حتى يدخلوا في الإسلام، أو يُعطوا الجزية عن يد.

ومن الجهاد ـ أيضًا ـ ما هو نافلة، وهو إخراج الإمام طائفة بعد طائفة، وبعث السرايا في أوقات الغِرَّة وعند إمكان الفرصة، والإرصاد لهم بالرباط في موضع الخوف، وإظهار القوة. فإن قيل: كيف يصنع الواحد إذا قصَّر الجميع؟

قيل له: يعمد إلى أسير واحد فيفديه؛ فإنه إذا فدى الواحد فقد أدَّى في الواحد أكثر مما كان يلزمه في الجماعة، فإن الأغنياء لو اقتسموا فداء الأسرى ما أدَّى كل واحد منهم إلا أقلَّ من درهم، ويغزو بنفسه إن قدر، وإلا جهز غازيًا؛ قال ﷺ: «**من جهز غازيًا فقد غزا، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا**»؛ وذلك لأن مكانه لا يغني، وماله لا يكفي.

روي أن بعض الملوك عاهد كفارًا على ألا يحبسوا أسيرًا، فدخل رجل من المسلمين جهة بلادهم فمرَّ على بيت مغلق، فنادته امرأة إني أسيرة فأبلغ صاحبك خبري، فلما اجتمع به واستطعمه عنده تجاذبَا ذيل الحديث، انتهى الخبر إلى هذه المعذَّبة، فما أكمل حديثه حتى قام الأمير على قدميه وخرج غازيًا من فوره، ومشى إلى الثغر حتى أخرج الأسيرة واستولى على الموضع، ﵁. ذكره ابن العربي وقال: «ولقد نزل بنا العدو ـ قصمه اللَّه ـ سنة سبع وعشرين وخمس مئة، فجاس ديارنا،

وأسر خيرتنا، وتوسط بلادنا في عددٍ هال الناس عدده، وكان كثيرًا وإن لم يبلغ ما حدَّدوه. فقلت للوالي والمولى عليه: هذا عدوُّ اللَّه قد حصل في الشَّرَك والشبكة، فلتكن عندكم بركة، ولتظهر منكم إلى نصرة الدين المتعينة عليكم حركة، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار فيُحاط به، فإنه هالك لا محالة إن يسَّركم اللَّه له، فغلبت الذنوب ورجفت القلوب بالمعاصي، وصار كل أحد من الناس ثعلبًا يأوي إلى وجاره وإن رأى المكيدة بجاره. فإنا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل».

﴿وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ روى أبو داود عن أنس أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**» وهذا وصف لأكمل ما يكون من الجهاد وأنفعه عند اللَّه ـ تَعَالَى ـ. فحضَّ على كمال الأوصاف، وقدَّم الأموال في الذكر إذْ هي أول مصرف وقت التجهيز، فرتَّب الأمر كما هو»[1].

٣٣ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: **٧٣**، التحريم: **٩**].

«**أمر ـ تَعَالَى ـ رسوله** ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم، كما أمره أن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين.

وقد تقدم قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: بُعِثَ رسول اللَّه ﷺ بأربعة أسياف: ... وسيف للمنافقين: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

وهذا يقتضي أنهم يُجاهَدُون بالسيوف إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ قال: بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه.

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٢٩٨٩ ـ ٢٩٩٢).

وقال ابن عباس: أمره اللَّه ـ تَعَالَى ـ بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم.

وقال الضَّحاك: جَاهِد الكفَّار بالسيف، واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم؛ وعن الربيع مثله.

وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم.

وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال؛ لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا، بحسب الأحوال. واللَّه أعلم»[1].

قال القرطبي: «قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ وتدخل فيه أمته من بعده.

قيل: المراد جاهد بالمؤمنين الكفار. وقال الحسن: جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم، وباللسان واختاره قتادة، وكانوا أكثر من يصيب الحدود. ابن العربي: «أما إقامة الحجة باللسان فكانت دائمة، وأما بالحدود؛ لأن أكثر إصابة الحدود، وكانت عندهم، فدعوى لا برهان عليها، وليس العاصي بمنافق، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق كامنًا، لا بما تتلبَّس به الجوارح ظاهرًا، وأخبار المحدودين يشهد سياقُها أنهم لم يكونوا منافقين.

وقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ الغِلظ: نقيض الرأفة، وهي شدة القلب على إحلال الأمر بصاحبه. وليس ذلك في اللسان.

ومعنى الغلظ خشونة الجانب، فهي ضد قوله ـ تَعَالَى ـ:

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشعراء: ٢١٥].

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/٢٣٧).

وهذه الآية نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح[(١)] ، فرحم اللَّه رجلًا جاهد المنافقين في هذا الزمان (وهم الزنادقة الذين يطعنون في ثوابت الإسلام بعلم منهم بها)، رحم اللَّه من جاهدهم جهادًا عنيفًا غليظًا لا رحمة فيه ولا هوادة، وعرَّاهم وأبطل شبههم، وكشف خبيئاتهم للنظار.

٣٤ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: ١٢٣].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: (٧/٣١٩ـ ٣٢١): «أمر اللَّه ـ تَعَالَى ـ المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولًا فأولًا، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسـول اللَّه ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم، وفتح اللَّه عليه مكة، والمدينة، والطائف واليمن، واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين اللَّه أفواجًا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهَّز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام؛ لكونهم أهل الكتاب، فبلغ «**تبوك**» ثم رجع؛ لأجل جهد الناس، وجدب البلاد، وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته ﷺ.

ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حجة الوداع، ثم عاجلته المنية، صلوات اللَّه وسلامه عليه، بعد حجته بأحد وثمانين يومًا، فاختاره اللَّه لما عنده.

وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل[(٢)] فثبته اللَّه ـ تَعَالَى ـ به، فوطد القواعد، وثبت الدعائم، وردَّ

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٣٠٤٣، ٣٠٤٤).

(٢) انجفل ـ جفله؛ بمعنى: جرفه وأبعده.

شارد الدين وهو راغم، وردَّ أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغام، وبيَّن الجهل لمن جهله، وأدَّى عن الرسول ما حمله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدةِ الصلبان، وإلى الفرس عبدةِ النيران، ففتح اللَّه ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد، وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الإله.

وكان تمام الأمر على يدي وصيِّه من بعده، ووليِّ عهده الفاروق الأوَّاب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأرغم اللَّه به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك، شرقًا وغربًا، وحُمِلت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم، بُعدًا وقربًا، ففرَّقها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي.

ثم لما مات شهيدًا، وقد عاش حميدًا، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، شهيد الدار، فكسا الإسلام رياسة حلة سابغة، وامتدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجةُ اللَّه البالغة، فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلَتْ كلمة الله، وظهر دينه، وبلغت الأمة الحنيفية من أعداء اللَّه غاية مآربها، فكلما عَلَوْا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجّار؛ امتثالًا لقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾». اهـ.

«قال قتادة: الآية على العموم في قتال الأقرب فالأقرب، والأدنى فالأدنى.

قلت ـ أي القرطبي ـ: قول قتادة هو ظاهر الآية.

واختار ابن العربي أن يُبدأ بالروم قبل الدَّيلم؛ على ما قاله ابن عمر؛ لثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم أهل كتاب، فالحجة عليهم أكثر وآكد.

والثاني: أنهم إلينا أقرب، وأعني أهل المدينة.

الثالث: أن بلاد الأنبياء في بلادهم أكثر فاستنقاذها منهم أوجب. واللَّه

أعلم»[1].

قوله ـ تعَالَى ـ: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾؛ أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقًا لأخيه المؤمن، غليظًا على عدوه الكافر، كقوله ـ تعالَى ـ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله ـ تعَالَى ـ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال ـ تعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾.

وفي الحديث أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**أنا الضحوك القتّال**»؛ يعني: أنه ضحوك في وجه وليّه، قتال لهامة عدوه». اهـ من تفسير ابن كثير.

قال القرطبي: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾؛ أي: شدة وقوة وحَمية.

«**قوله**: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: قاتلوا الكفَّار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن اللَّه معكم إن اتقيتموه وأطعتموه.

وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة،في غاية الاستقامة والقيام بطاعة اللَّه ـ تعَالَى ـ لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدَّموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلدانًا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله ـ سبحانه ـ الأمر من قبل ومن بعد!! فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر اللَّه وتوكل على الله، فتح اللَّه عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية الله، واللَّه المسئول المأمول أن يمكنَّ المسلمين من نواصي أعدائه

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٣١٣٦، ٣١٣٧).

الكافرين، وأن يُعليَ كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم»[١].

● **وقفة مهمة مع الآية:**

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾.

سارت الفتوح الإسلامية، تواجه من يلون «**دار الإسلام**» ويجاورونها، مرحلة فمرحلة. فلما أسلمت الجزيرة العربية ـ أو كادت ولم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف قوة يُخشَى منها على دار الإسلام بعد فتح مكة ـ كانت غزوة «**تبوك**» على أطراف بلاد الروم. ثم كان انسياح الجيوش الإسلامية في بلاد الروم وفي بلاد فارس، فلم يتركوا وراءهم جيوبًا؛ ووحدت الرقعة الإسلامية، ووصلت حدودها، فإذا هي كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء، متماسكة الأطراف؛ ثم لم يأتها الوهن فيما بعد إلا من تمزقها، وإقامة الحدود المصطنعة فيما بينها على أساس البيوت، أو على أساس القوميات! وهي خطة عمل أعداء هذا الدين على التمكين لها جهد طاقتهم، وما يزالون يعملون.

وستظل هذه الشعوب التي جعل منها الإسلام «**أمة واحدة**» في «**دار الإسلام**» المتصلة الحدود ـ وراء فواصل الأجناس واللغات والأنساب والألوان ـ ستظل ضعيفة مهيضة إلا أن تثوب إلى دينها، وإلى رايته الواحدة؛ وإلا أن تتبع خطى رسول الله ﷺ، وتدرك أسرار القيادة الربانية التي كفلت لها النصر والعز والتمكين.

ونقف مرة أخرى أمام قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

فنجد أمرًا بقتال الذين يلون المسلمين من الكفار. لا يذكر فيه أن يكونوا معتدين على المسلمين، ولا على ديارهم. وندرك أن هذا هو الأمر الأخير، الذي

---

(١) تفسير ابن كثير (٣٢١/٧).

يجعل «**الانطلاق**» بهذا الدين هو الأصل الذي ينبثق منه مبدأ الجهاد، وليس هو مجرد «**الدفاع**» كما كانت الأحكام المرحلية أول العهد بإقامة الدولة المسلمة في المدينة. ويريد بعض الذين يتحدثون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام، وعن أحكام الجهاد في الإسلام، وبعض الذين يتعرضون لتفسير آيات الجهاد في القرآن ـ أن يتلمسوا لهذا النص النهائي الأخير قيدًا من النصوص المرحلية السابقة؛ فيقيدوه بوقوع الاعتداء أو خوف الاعتداء! والنص القرآني بذاته مطلق، وهو النص الأخير! وقد عودنا البيان القرآني، عند إيراد الأحكام، أن يكون دقيقًا في كل موضع، وألا يحيل في موضع على موضع؛ بل يتخير اللفظ المحدد؛ ويسجل التحفظات والاستثناءات والقيود والتخصيصات في ذات النص. إن كان هناك تحفظ، أو استثناء، أو تقييد، أو تخصيص.

إن الذين يكتبون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام، وعن أحكام الجهاد في الإسلام، والذين يتصدون لتفسير الآيات المتضمنة لهذه الأحكام، يتعاظمهم ويهولهم أن تكون هذه هي أحكام الإسلام، وأن يكون اللّٰه ـ سبحانه ـ قد أمر الذين آمنوا أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار، وأن يظلوا يقاتلون من يلونهم من الكفار، كلما وجد هناك من يلونهم من الكفار!.. ويتعاظمهم ويهولهم أن يكون الأمر الإلهي هكذا، فيروحون يتلمسون القيود للنصوص المطلقة؛ ويجدون هذه القيود في النصوص المرحلية السابقة!

إننا نعرف لماذا يهولهم هذا الأمر ويتعاظمهم على هذا النحو.

إنهم ينسون أن الجهادَ في الإسلام جهادٌ في «**سبيل الله**»، جهادٌ لتقرير ألوهية اللّٰه في الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة لسلطان الله، جهادٌ لتحرير «**الإنسان**» من العبودية لغير الله، ومن فتنته بالقوة عن الدينونة لله وحده، والانطلاق من العبودية للعباد.. ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾، وأنه ليس جهادًا لتغليب مذهب بشري على مذهب بشري مثله، إنما هو جهاد لتغليب منهج

اللَّه على مناهج العبيد! وليس جهادًا لتغليب سلطان قوم على سلطان قوم، إنما هو جهاد لتغليب سلطان اللَّه على سلطان العبيد! وليس جهادًا لإقامة مملكة لعبد، إنما هو جهاد لإقامة مملكة اللَّه في الأرض. ومن ثم ينبغي له أن ينطلق في «**الأرض**» كلها، لتحرير «**الإنسان**» كله، بلا تفرقة بين ما هو داخل في حدود الإسلام وبين ما هو خارج عنها، فكلها «**أرض**» يسكنها «**الإنسان**»، وكلها فيها طواغيت تُعَبِّدُ العباد للعباد!

وحين ينسون هذه الحقيقة يهولهم ـ طبعًا ـ أن ينطلق منهج ليكتسح كل المناهج، وأن تنطلق أمة لتخضع سائر الأمم.. إنها في هذا الوضع لا تستساغ! وهي فعلًا لا تستاغ!.. لولا أن الأمر ليس كذلك. وليس له شبيه فيما بين أنظمة البشر اليوم من إمكان التعايش! إنها كلها اليوم أنظمة بشرية. فليس لواحد منها أن يقول: إنه هو وحده صاحب الحق في البقاء! وليس الحال كذلك في نظام إلهي يواجه أنظمة بشرية؛ ليبطل هذه الأنظمة كلها ويدمرها كي يطلق البشر جميعًا من ذلة العبودية للعباد؛ ويرفع البشر جميعًا إلى كرامة العبودية لله وحده بلا شريك!

ثم إنه يهولهم الأمر ويتعاظمهم؛ لأنهم يواجهون هجومًا صليبيًّا منظمًا لئيمًا ماكرًا خبيثًا يقول لهم: إن العقيدة الإسلامية قد انتشرت بالسيف، وأن الجهاد كان لإكراه الآخرين على العقيدة الإسلامية؛ وانتهاك حرمة حرية الاعتقاد!

إن الإسلام يقوم على قاعدة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].. ولكن لماذا ينطلق إذن بالسيف مجاهدًا؟ ولماذا اشترى اللَّه من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ [التوبة: ١١١]؟.. إنه لأمر آخر غير الإكراه على العقيدة كان هذا الجهاد.. بل لأمر مناقض تمامًا للإكراه على العقيدة.. إنه لضمان حرية الاعتقاد كان هذا الجهاد! لأن الإسلام كإعلان عام لتحرير «**الإنسان**» في «**الأرض**» من العبودية للعباد؛ يواجه دائمًا طواغيت في الأرض يخضعون العباد للعباد. ويواجه

دائمًا أنظمة تقوم على أساس دينونة العبيد للعبيد؛ كما تحول دونهم ودون اعتناق العقيدة إذا ارتضتها نفوسهم، أو تفتنهم عنها بشتى الوسائل. وفي هذا يتمثل انتهاك حرية الاعتقاد بأقبح أشكاله. وانطلق الإسلام بالسيف ليحطم الكفر.. إما الإسلام، وإما الجزية، وإما السيف.

إن لم يرضوا بالإسلام أو الجزية ـ فالسيف هو الحكم، وبعد السيف إما الإسلام وإما الجزية.

أين الإسلام من الصليبية التي انطلقت على مدار التاريخ تذبح وتبيد شعوبًا بأسرها؛ كشعب الأندلس قديمًا، وشعب زنجبار حديثًا؛ لتكرههم على التنصر. وأحيانًا لا تقبل منهم حتى التنصر، فتبيدهم لمجرد أنهم مسلمون.. وأحيانًا لمجرد أنهم يدينون بمذهب نصراني مخالف لمذهب الكنيسة الرسمية.. وقد ذهب مثلًا اثنا عشر ألفًا من نصارى مصر ضحايا بصور بشعة؛ إذ أُحرقوا أحياءً على نار المشاعل لمجرد مخالفتهم لجزئية اعتقادية عن كنيسة روما.

وأخيرًا فإن صورة الانطلاق في الأرض لمواجهة من يلون المسلمين من الكفار تهول المهزومين روحيًّا في هذا الزمان وتتعاظمهم؛ لأنهم يبصرون بالواقع من حولهم وبتكاليف هذا الانطلاق فيهولهم الأمر.. وهو يهول فعلًا مسلمي اليوم البعيدين عن ربهم..

هل هؤلاء هم الذين سينطلقون في الأرض يواجهون أمم الأرض جميعًا بالقتال، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله؟! إنه لأمر لا يتصور عقلًا.. ولا يمكن أن يكون هذا هو أمر اللَّه فعلًا!

ولكن فات هؤلاء جميعًا أن يروا متى كان هذا الأمر؟ وفي أي ظرف؟ لقد كان بعد أن قامت للإسلام دولة تحكم بحكم الله؛ دانت لها الجزيرة العربية ودخلت في هذا الدين، ونظمت على أساسه. وقبل ذلك كله كانت هناك العصبة المسلمة التي باعت أنفسها لله بيعة صدق، فنصرها اللَّه يومًا بعد يوم، وغزوة بعد

غزوة، ومرحلة بعد مرحلة[1].

﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾؛ أي: بلا هوادة، ولا تميُّع، ولا تراجع؛ حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله.

ولكنه ينبغي أن نعرف وأن يعرف الناس جميعًا أنها الغلظة على الذين من شأنهم أن يحاربوا وحدهم ـ وفي حدود الآداب العامة لهذا الدين ـ، وليست هي الغلظة المطلقة من كل قيد وأدب!

إنه قتال يسبقه إعلان، وتخيير بين: قبول الإسلام، أو أداء الجزية، أو القتال.. ويسبقه نبذ العهد إن كان هناك عهد ـ في حالة الخوف من الخيانة ـ «والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين يقبلون مسالمة الإسلام وأداء الجزية؛ ولا عهد في غير هذه الحالة إلا أن يكون بالمسلمين ضعف يجعل الحكم المتعين في حالتهم هذه هو الحكم المرحلي الذي كان في حالة تشبه الحالة التي هم فيها».

● **وهذه آداب المعركة كلها، من وصية رسول الله ﷺ:**

«عن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّرَ الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى اللَّه ـ تَعَالَى ـ ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله. وقاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا وليدًا. فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ادعهم إلى الإسلام. فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم اللَّه ـ تَعَالَى ـ الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم من الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع

---

(١) الظلال (١٧٣٦ ـ ١٧٣٩) باختصار وتنقيح.

المسلمين. وإن هم أبوا فسلهم الجزية. فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. فإن أبوا فاستعن بالله - تَعَالَى - عليهم وقاتلهم...»[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان»[٢].

«ونهى النبي ﷺ عن المُثْلَة»[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**ما بال أقوام جاوز بهم القتل اليوم حتى قتلوا الذُّرِّية؟ ألا إن خياركم أبناء المشركين، ألا لا تقتلوا ذرية.. ألا لا تقتلوا ذرية، كل نسمة تولد على الفطرة، فما يزالُ عليها حتى يُعرب[٤] عنها لسان، فأبواها يهوِّدانها، أو ينصِّرانها**»[٥].

● **هذه التعليمات النبوية هي التي سار عليها الخلفاء بعده:**

روى مالك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: «ستجدون قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له، ولا تَقْتُلُنَّ امرأة ولا صبيًّا ولا كبيرًا هرمًا».

وقال زيد بن وهب: أتانا كتاب عمر رضي الله عنه وفيه: «لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدًا، واتقوا الله في الفلاحين».

ومن وصاياه: «ولا تقتلوا هرمًا ولا امرأة ولا وليدًا، وتوقوا قتلهم إذا التقى

---

(١) أخرجه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) **صحيح**: أخرجه الحاكم عن عمران، والطبراني في «الكبير» عن ابن عمر وعن المغيرة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الإرواء» (٢٢٣٠)، و«صحيح الجامع» (٦٨٩٩).

(٤) يُعْرِبُ: يوضح.

(٥) **صحيح**: أخرجه أحمد، والنسائي، وابن حبان، والحاكم في «المستدرك» عن الأسود بن سريع، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» رقم (٤٠١)، و«الإرواء» (١٢٢٠)، و«صحيح الجامع» رقم (٥٥٧١).

الزحفان، وعند شن الغارات»(١).

وهكذا تتواتر الأخبار بالخط العام الواضح لمستوى المنهج الإسلامي في قتاله لأعدائه، وفي آدابه الرفيعة، وفي الرعاية لكرامة الإنسان. وفي قصر القتال على القوى المادية التي تحول بين الناس وبين أن يخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه وحده. وفي اليسر الذي يعامل به حتى أعداءه.

أما الغلظة فهي الخشونة في القتال والشدة؛ وليست هي الوحشية مع الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة، غير المحاربين أصلًا؛ وليست تمثيلًا بالجثث والأشلاء على طريقة المتبربرين الذين يسمون أنفسهم متحضرين في هذا الزمان. وقد تضمن الإسلام ما فيه الكفاية من الأوامر لحماية غير المحاربين، ولاحترام بشرية المحاربين. إنما المقصود هو الخشونة التي لا تميع المعركة؛ وهذا الأمر ضروري لقوم أمروا بالرحمة والرأفة في توكيد وتكرار، فوجب استثناء حالة الحرب، بقدر ما تقتضي حالة الحرب، دون رغبة في التعذيب والتمثيل والتنكيل.

❑ دعوة إلى الثبات

٣٥ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ **[الأنفال: ٤٥ـ ٤٧]**.

قال ابن كثير: «هذا تعليم من اللَّه ـ تعَالَى ـ لعباده المؤمنين آداب اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾.

---

(١) صحيح البخاري (٢٩٣٣، ٢٩٦٦، ٣٠٢٤، ٤١١٥، ٦٣٩٢، ٧٤٨٩)، وصحيح مسلم (١٧٤٢).

عن عبدالله بن أبي أوفى عن رسول الله ﷺ أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، حتى إذا مالت الشمس، قام فيهم فقال: «**يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**»، ثم قام النبي ﷺ وقال: «**اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم**»(١).

وقال سعيد بن أبي عروبة: عن قتادة في هذه الآية قال: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون؛ عند الضرب بالسيوف.

عن عطاء قال: وجب الإنصات وذكر الله عند الزحف، ثم تلا هذه الآية. قلت: يجهرون بالذكر؟ قال: نعم(٢).

عن كعب الأحبار قال: ما من شيء أحب إلى الله ـ تَعَالَى ـ من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥﴾.

فأمر الله ـ تَعَالَى ـ بالثبات عند قتال الأعداء، والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا، ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال، ولا ينسوه، بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك؛ فما أمرهم الله ـ تَعَالَى ـ به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم ـ أيضًا ـ فيختلفوا، فيكون سببًا لتخاذلهم وفشلهم».

﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾؛ أي: قوتكم وحدَّتُكم وما كنتم فيه من الإقبال، ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وقد كان للصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ في باب الشجاعة، والائتمار بما أمرهم

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٥/٩١٣٣).

اللَّه ورسوله، وامتثال ما أرشدهم إليه، ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربًا في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم، والفرس، والترك، والصقالبة، والبربر، والحبوش، وأصناف السودان، والقبط، وطوائف بني آدم. قهروا الجميع حتى علت كلمة اللَّه وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي اللَّه عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم إنه كريم وهَّاب»(١).

قال القرطبي: قوله - تَعَالَى -: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً﴾؛ أي: جماعة. ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ أمر بالثبات عند قتال الكفار، كما في الآية قبلها النهي عن الفرار عنهم، فالتقى الأمر والنهي على سواء. وهذا تأكيد على الوقوف للعدو والتجلُّد له.

قوله - تَعَالَى -: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ للعلماء في هذا الذكر ثلاثة أقوال:

الأول: اذكروا اللَّه عند جزع قلوبكم؛ فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد.

الثاني: اثبتوا بقلوبكم، واذكروه بألسنتكم، فإن القلب لا يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان؛ فأمر بالذكر حتى يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على الذكر، ويقول ما قاله أصحاب طالوت: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]. وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة، واتقاد البصيرة، وهي الشجاعة المحمودة في الناس.

الثالث: اذكروا ما عندكم من وعد اللَّه لكم في ابتياعه أنفسكم ومُثامنته لكم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/٩٦ - ٩٨).

قلت: والأظهر أنه ذكر اللسان الموافق للجنان. قال محمد بن كعب القرظي: لو رُخِّص لأحد في ترك الذكر لرُخِّص لزكريا؛ يقول اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾ [آل عمران: ٤١]، ولرخص للرجل يكون في الحرب؛ يقول اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾.

وحكم هذا الذكر أن يكون خفيًّا؛ لأن رفع الصوت في مواطن القتال رديء مكروه إذا كان الذاكر واحدًا. فأما إذا كان من الجميع عند الحملة فحسن؛ لأنه يفُتُّ في أعضاء العدو.

وروى أبو داود عن قيس بن عباد قال: كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ يكرهون الصوت عند القتال.

وروى أبو بردة عن أبيه عن النبي ﷺ مثل ذلك.

﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾؛ أي: قوتكم ونصركم، كما تقول: الريح لفلان، إذا كان غالبًا في الأمر. قال الشاعر:

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحٌ فَاغْتَنِمْهَا ... فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونَا

وقال قتادة وابن زيد: إنه لم يكن نصر قط إلا بريح، فتضرب في وجوه الكفار، ومنه قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**نُصِرت بالصَّبا، وأهلكت عاد بالدبور**».

قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ أمر بالصبر، وهو محمود في كل المواطن وخاصة موطن الحرب(١).

❏ عوامل النصر وأسبابه

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ

---

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٨٦٢ - ٢٨٦٤).

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

فهذه هي عوامل النصر الحقيقية: الثبات عند لقاء العدو، والاتصال بالله بالذكر، والطاعة لله والرسول، وتجنب النزاع والشقاق، والصبر على تكاليف المعركة، والحذر من البطر والرئاء والبغي.

فأما **الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر.** فأثبتُ الفريقين أغلبُهما. وما يُدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون، وأنه يألم كما يألمون، ولكنه لا يرجو من اللَّه ما يرجون؛ فلا مدد له من رجاء في اللَّه يثبت أقدامه وقلبه. وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل عدوهم وينهار؛ وما الذي يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسنيين؛ الشهادة أو النصر؟ بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا؛ وهو حريص على هذه الحياة التي لا أمل له وراءها، ولا حياة له بعدها، ولا حياة له سواها؟!

وأما **ذكر اللَّه كثيرًا عند لقاء الأعداء** فهو التوجيه الدائم للمؤمن؛ كما أنه التعليم المطرد الذي استقر في قلوب العصبة المؤمنة، وحكاه عنها القرآن الكريم في تاريخ الأمة المسلمة في موكب الإيمان التاريخي.

ومما حكاه القرآن الكريم من قول سحرة فرعون عندما استسلمت قلوبهم للإيمان فجأة، فواجههم فرعون بالتهديد المروع البشع الطاغي؛ قولهم: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٦].

ومما حكاه كذلك عن الفئة المؤمنة من بني إسرائيل، وهي تواجه جالوت وجنوده: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة: ٢٥٠].

ومما حكاه عن الفئات المؤمنة على مدار التاريخ في مواجهة المعركة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن

نَبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ولقد استقر هذا التعليم في نفوس العصبة المسلمة؛ فكان هذا شأنها حيثما واجهت عدوًا. وقد حكى اللَّه ـ فيما بعد ـ عن العصبة التي أصابها القرح في «**أحد**»؛ فلما دعيت إلى الخروج ثاني يوم، كان هذا التعليم حاضرًا في نفوسها: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

إن ذكر اللَّه عند لقاء العدو يؤدي وظائف شتى؛ إنه الاتصال بالقوة التي لا تغلب؛ والثقة باللَّه الذي ينصر أولياءه.. وهو في الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها، فهي معركة لله، لتقرير ألوهيته في الأرض، وطرد الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية؛ وإذن فهي معركة لتكون كلمة اللَّه هي العليا؛ لا للسيطرة، ولا للمغنم، ولا للاستعلاء الشخصي أو القومي.. كما أنه توكيد لهذا الواجب ـ واجب ذكر اللَّه ـ في أحرج الساعات وأشد المواقف.. إيحاءات ذات قيمة في المعركة؛ يحققها هذا التعليم الرباني.

وأما **طاعة اللَّه ورسوله**، فلكي يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين لله ابتداء؛ فتبطل أسباب النزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.. فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه، وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار. فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيس للنزاع بينهم ـ مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة ـ فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها! وإنما هو وضع

«**الذات**» في كفة، والحق في كفة؛ وترجيح الذات على الحق ابتداء!.. ومن هذا التعليم بطاعة اللّٰه ورسوله عند المعركة.. إنه من عمليات «**الضبط**» التي لا بد منها في المعركة.. إنها طاعة القيادة العليا فيها، التي تنبثق منها طاعة الأمير الذي يقودها. وهي طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية في الجيوش التي لا تجاهد لله، ولا يقوم ولاؤها للقيادة على ولائها لله أصلًا.. والمسافة كبيرة كبيرة.

وأما **الصبر** فهو الصفة التي لا بد منها لخوض المعركة.. أية معركة.. في ميدان النفس أم في ميدان القتال.

﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وهذه المعية من اللّٰه هي الضمان للصابرين بالفوز والغلب والفلاح..

ويبقى التعليم الأخير:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾﴾.

يبقى هذا التعليم ليحمي العصبة المؤمنة من أن تخرج للقتال متبطرة طاغية، تتعاجب بقوتها، وتستخدم نعمة القوة التي أعطاها اللّٰه لها في غير ما أرادها.. والعصبة المؤمنة إنما تخرج للقتال في سبيل الله.

ولقد كانت صورة الخروج بطرًا ورئاء الناس وصدًّا عن سبيل اللّٰه حاضرة أمام العصبة المسلمة؛ يرونها في خروج قريش بالصورة التي خرجت بها؛ كما كانت صورة العاقبة لهذا الخروج حاضرة فيما أصاب قريشًا التي خرجت في ذلك اليوم بفخرها وعزها وكبريائها تحاد اللّٰه ورسوله، وعادت في آخر اليوم بالذل والخيبة والانكسار والهزيمة.. وكأن اللّٰه ـ سبحانه ـ يذكر العصبة المسلمة بشيء حاضر له وقعة وله إيحاؤه:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾﴾

والبطر في اللغة: التقوية بنعم اللَّه عَجَلَّ وما ألبسه من العافية على المعاصي. والبطر والمراءاة والصد عن سبيل اللَّه تتجلى في قولة أبي جهل، وقد جاءه رسول أبي سفيان ـ بعد أن ساحل بالعير فنجت من رصد المسلمين ـ يطلب إليه الرجوع بالنفير، إذ لم تعد بهم حاجة لقتال محمد وأصحابه. وكانت قريش قد خرجت بالقيان والدفوف يغنون وينحرون الجزر على مراحل الطريق. فقال أبو جهل: لا واللَّه لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم ثلاثًا، ننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونشرب الخمر، وتعزف القيان علينا، فلن تزال العرب تهابنا أبدًا».. فلما عاد الرسول إلى أبي سفيان برد أبي جهل قال: «وا قوماه! هذا عمل عمرو بن هشام (يعني أبا جهل) كره أن يرجع؛ لأنه ترأس على الناس فبغى، والبغي منقصة وشؤم، إن أصاب محمد النصر ذللنا».. وصحَّت فراسة أبي سفيان، وأصاب محمد ﷺ النفير؛ وذل المشركون بالبطر والبغي والرياء والصد عن سبيل الله؛ وكانت بدر قاصمة الظهر لهم.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لا يفوته منهم شيء، ولا يعجزه من قوتهم شيء، وهو محيط بهم وبما يعملون»[1].

٣٦ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [**الأنفال: ١٥، ١٦**].

قال ابن كثير: «يقول ـ تعَالَى ـ متوعدًا على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾؛ أي: تقاربتم منهم ودنوتم منهم. ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾؛ أي: تفروا وتتركوا أصحابكم. ﴿وَمَن

---

(١) **انظر**: الظلال (١٥٢٨/٣ ـ ١٥٣٠).

﴿يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾؛ أي: يفرُّ بين يدي قرنه مكيدةً؛ ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه، ثم يكرُّ عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك، نصَّ عليه سعيد بن جبير والسدي.

وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غِرَّة من العدو فيصيبها.

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾؛ أي: فرَّ من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونوه، فيجوز له ذلك حتى لو كان في سرية، ففرَّ إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أبي عبيدة لما قُتِل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس، فقال عمر: لو انحاز إليَّ كنت له فئة.

وقال مجاهد: قال عمر: أنا فئة كل مسلم.

وقال الضحاك في قوله: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾: المتحيز الفار إلى النبي وأصحابه، وكذلك من فرَّ اليوم إلى أميره أو أصحابه.

فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب؛ فإنه حرام وكبيرة من الكبائر، لما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» قيل: يا رسول الله، وما هُنَّ؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم اللَّه إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»[(١)]، ولهذا قال - تَعَالَى - ﴿فَقَدْ بَآءَ﴾؛ أي: رجع. ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ﴾؛ أي: مصيره ومنقلبه يوم ميعاده. ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

عن السدوسي - يعني ابن الخصاصية - وهو بشير بن معبد رضي الله عنه قال: «**أتيت النبي ﷺ** لأبايعه، فاشترط عليَّ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله،

---

(١) رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان (٨٩).

وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله. فقلت: يا رسول الله، أما اثنتان فواللَّه لا أطيقهما؛ الجهاد؛ فإنهم زعموا أنه من ولى الدبر، فقد باء بغضب من الله؛ فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسي وكرهت الموت، والصدقة؛ فواللَّه مالي إلا غنيمة وعشر ذَوْد هن رَسَل أهلي وحمولتهم، فقبض رسول اللَّه ﷺ يده، ثم حرَّك يده، ثم قال: «**فلا جهاد ولا صدقة فبم تدخل الجنة إذًا؟**» فقلت: يا رسول الله: أنا أبايعك فبايعته عليهن كلهن[(١)].

وعن بلال بن يسار بن زيد مولى رسول اللَّه ﷺ قال: سمعت أبي يحدث عن جدي، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من قال: أستغفر اللَّه الذي لا إله إلا هو وأتوب إليه، غُفِر له وإن كان قد فرَّ من الزحف**»[(٢)].

وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حرامًا على الصحابة؛ لأنه (يعني: الجهاد) كان فرض عين عليهم، وقيل: على الأنصار خاصة؛ لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وقيل: المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة، يروى هذا عن عمر، وابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي نضرة، ونافع مولى ابن عمر، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

---

(١) **رجاله موثقون**: أخرجه أحمد في «المسند» برقم (٥/٢٢٤) (٢٢٠٤٧)، ورواه الطبراني في «الكبير» (٢/٤٤، ٤٥) رقم (١٢٣٣، ١٢٣٤)، وفي «الأوسط»، كما في «مجمع البحرين» (١/٨٤) رقم (٤٠)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/٤٢)، وقال: رواه أحمد والطبراني في «الكبير والأوسط»، واللفظ للطبراني، ورجال أحمد موثقون.

(٢) **إسناده جيد**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٥/٨٩) (٤٦٧٠)، وهو في سنن أبي داود (١٥١٧)، والترمذي (٣٥٧٧)، وقال المنذري: إسناده جيد متصل؛ فقد ذكر البخاري في «التاريخ الكبير»: أن بلالًا سمع من أبيه يسار، وأن يسار سمع من أبيه زيد مولى رسول الله ﷺ. ورواه الحاكم من حديث ابن مسعود، وقال: صحيح على شرطهما إلا أنه قالها ثلاثًا. ورواه الطبراني في «الصغير» (٢/٩١) عن البراء بن عازب.

وحجتهم في هذا: أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيئون إليها سوى عصابتهم تلك، كما قال النبي ﷺ: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض**»(١).

ولهذا قال الحسن في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ قال: ذلك يوم بدر، فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر فلا بأس عليه.

وعن يزيد بن أبي حبيب قال: أوجب الله ـ تَعَالَى ـ لمن فرَّ يوم بدر النار، قال: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين، قال: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ٢٧].

وعن أبي سعيد أنه قال في هذه الآية ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ قال: إنما أنزلت في أهل بدر»(٢).

وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حرامًا على غير أهل بدر، وإن كان سبب نزول الآية فيهم، كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم، من أن الفرار من الزحف من الموبقات، كما هو مذهب الجماهير. والله أعلم»(٣).

قال القرطبي: قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿زَحْفًا﴾ الزحف الدنو قليلًا قليلًا. وأصله الاندفاع على الألْيَة، ثم سُمِّي كل ماش في الحرب إلى آخر زاحفًا. والتزاحف: التداني والتقارب؛ يُقال: زحف إلى العدو زحفًا. وازدحف القوم؛ أي: مشى

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٣)، والترمذي (٣٠٨١)، وأحمد (٢٢١) عن ابن عمر.
(٢) رواه أبو داود (٢٦٤٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٠٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٢٧)، وابن جرير (١٣/ ١٥٨٠٠).
(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٥ ـ ٤٠).

بعضهم إلى بعض.

يقول: إذا تدانيتم وتعاينتم فلا تفرُّوا عنهم ولا تعطوهم أدباركم. حرّم اللَّه ذلك على المؤمنين حين فرض عليهم الجهاد وقتال الكفار.

قال ابن عطية: والأدبار جمع دُبُر. والعبارة بالدُّبر في هذه الآية متمكنة الفصاحة؛ لأنها بشيعة على الفارِّ، ذامَّة له.

أمر اللَّه ﷻ في هذه الآية ألا يُولِّي المؤمنون أمام الكفار. وهذا الأمر مُقَيد بالشريطة المنصوصة في مِثْلي المؤمنين، فإذا لقيت فئة من المؤمنين فئة هي ضِعف المؤمنين من المشركين فالفرض ألا يفرُّوا أمامهم. فمن فرَّ من اثنين فهو فارٌّ من الزحف. ومن فرَّ من ثلاثة فليس بفارٍّ من الزحف، ولا يتوجَّه عليه الوعيد.

والفرار كبيرة موبقة بظاهر القرآن وإجماع الأكثر من الأئمة.

على قول الجمهور لا يحلُّ فرار مئة إلا مما زاد على المئتين؛ فمهما كان في مقابلة مسلم أكثر من اثنين فيجوز الانهزام، والصبر أحسن.

وقد وقف جيش مؤتة وهم ثلاثة آلاف في مقابل مئتي ألف، منهم مئة ألف من الروم، ومئة ألف من المستعربة من لخْمْ وجُذَام.

قلت: ووقع في تاريخ الأندلس، أن طارقًا مَوْلى موسى بن نصير سار في ألف وسبع مئة رجل إلى الأندلس، وذلك في رجب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة، فالتقى وملك الأندلس «**لذريق**» وكان في سبعين ألف عنان؛ فزحف إليه طارق وصبر له فهزم اللَّه الطاغية لذريق، وكان الفتح. قال ابن وهب: سمعت مالكًا يسأل عن القوم يَلْقون العدو ويكونون في مَحْرس يحرسون فيأتيهم العدو وهم يسير، أيقاتلون أو ينصرفون فيؤذنون أصحابهم؟

قال: إن كانوا يقوون على قتالهم قاتلوهم، وإلا انصرفوا إلى أصحابهم فآذنوهم.

واختلف الناس هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر أم عامٌّ في الزُّحوف كلها إلى يوم القيامة؟ فرُوِي عن أبي سعيد الخدري أن ذلك مخصوص بيوم بدر، وبه قال نافع، والحسن، وقتادة، ويزيد بن أبي حبيب والضحاك، وبه قال أبو حنيفة.

وأن ذلك خاص بأهل بدر، فلم يكن لهم أن ينحازوا، ولو انحازوا لانحازوا للمشركين، ولم يكن في الأرض يومئذ مسلمون غيرهم، ولا للمسلمين فئة إلا النبي ﷺ.

قال الكِيَا: وهذا فيه نظر؛ لأنه كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار لم يأمرهم النبي ﷺ بالخروج ولم يكونوا يروْن أنه قتال، وإنما ظنوا أنها العِير، فخرج رسول اللَّه ﷺ فيمن خفَّ معه.

ويَروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن الآية باقية إلى يوم القيامة.

احتج الأولون بما ذكرنا، وبقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فقالوا: هو إشارة إلى يوم بدر، وأنه نسخ حكم الآية بآية الضِّعف. وبقي حكم الفرار من الزحف ليس بكبيرة. وقد فرَّ الناس يوم «**أُحُد**» فعفا عنهم، وقال اللَّه فيهم يوم حُنَيْن: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، ولم يقع على ذلك تعنيف.

وقال الجمهور من العلماء: إنما ذلك إشارة إلى يوم الزحف الذي يتضمنه قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ﴾، وحكم الآية باق إلى يوم القيامة بشرط الضِّعف الذي بيَّنه اللَّه ـ تَعَالَى ـ في آية أخرى، وليس في الآية نسخ.

والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب وذهاب اليوم بما فيه. وإلى هذا ذهب مالك، والشافعي، وأكثر العلماء.

وفي «**صحيح مسلم**» عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»... ـ وفيه ـ «**والتولي يوم الزحف**»، وهذا نص في المسألة.

وأما يوم «**أحد**» فإنما فرَّ الناس من أكثر من ضعفهم ومع ذلك عُنِّفوا.

وأما يوم «**حنين**» فكذلك من فرَّ إنما انكشف عن الكثرة.

قال ابن القاسم: لا تجوز شهادة من فرَّ من الزحف، ولا يجوز لهم الفِرار من أكثر من ضِعفهم، وهذا ما لم يبلغ عدد المسلمين اثني عشر ألفًا؛ فإن بلغ اثني عشر ألفًا لم يحلَّ لهم الفرار، وإن زاد عدد المشركين على الضِّعف؛ لقول رسول اللَّه ﷺ: «**ولن يُغلب اثنا عشر ألفًا من قلة**»، فإن أكثر أهل العلم خصَّصوا هذا العدد بهذا الحديث من عموم الآية»[1].

«عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربع مئة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولا تُهزَم اثنا عشر ألفًا من قلّة**»[2].

قال القرطبي: «وروي عن مالك ما يدل على ذلك من مذهبه، وهو قوله للعمري العابد إذ سأله: هل لك سعة في ترك مجاهدة من غيَّر الأحكام وبدَّلها؟ فقال: إذا كان معك اثنا عشر ألفًا فلا سعة لك في ذلك.

وقوله - تعَالَى -: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ التَّحرُّف: الزوال عن جهة الاستواء. فالمتحرف من جانب إلى جانب لمكايد الحرب، غير منهزم، وكذلك المتحيِّز إذا نوى التحيُّز إلى فئة من المسلمين ليستعين بهم فيرجع إلى القتال غير منهزم أيضًا.

قال محمد بن سيرين: لما قُتِل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر فقال: لو انحاز إليَّ لكنتُ له فئة، فأنا فئة كل مسلم.

وعلى هذه الأحاديث لا يكون الفِرار كبيرة؛ لأن الفئة هنا المدنية والإمام

---

(١) تفسير القرطبي (٢٨١٦/٤ - ٢٨١٨).

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود، والترمذي، والحاكم في «المستدرك»، وكذا رواه أحمد، وعبد بن حميد، والدارمي، وابن خزيمة، وابن حبان، وابن عدي، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» (٩٨٦)، و«صحيح الجامع» رقم (٣٢٧٨)، و«الإرواء» (١٩٨٢).

وجماعة المسلمين حين كانوا. وعلى القول الآخر كبيرة؛ لأن الفئة هناك الجماعة من الناس الحاضرة للحرب. هذا على قول الجمهور أن الفِرار من الزحف كبيرة. قالوا: وإنما كان ذلك القول من النبي ﷺ وعمر على جهة الحيطة على المؤمنين، إذ كانوا في ذلك الزمان يثبتون لأضعافهم مِرارًا. والله أعلم.

وفي قوله: «**والتولي يوم الزحف**» ما يكفي»[١].

«يبدو في التعبير القرآني شدة في التحذير، وتغليظ في العقوبة، وتهديد بغضب من الله ومأوى في النار.

إن قلب المؤمن ينبغي أن يكون راسخًا ثابتًا لا تهزمه في الأرض قوة، وهو موصول بقوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده.. وإذا جاز أن تنال هذا القلب هزة ـ وهو يواجه الخطر ـ فإن هذه الهزة لا يجوز أن تبلغ أن تكون هزيمة وفرارًا، والآجال بيد الله، فما يجوز أن يولي المؤمن خوفًا على الحياة. وليس في هذا تكليف للنفس فوق طاقتها، فالمؤمن إنسان يواجه عدوه إنسانًا. فهما من هذه الناحية يقفان على أرض واحدة، ثم يمتاز المؤمن بأنه موصول بالقوة الكبرى التي لا غالب لها، ثم إنه إلى الله إن كان حيًّا، وإلى الله إن كُتبت له الشهادة، فهو في كل حالة أقوى من خصمه الذي يواجهه وهو يشاق الله ورسوله.

انظر إلى التعبير ذاته، وما فيه من إيماءات عجيبة ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾، ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ فهو تعبير عن الهزيمة في صورتها الحسية، مع التقبيح والتشنيع، والتعريض بإعطاء الأدبار للأعداء!.. ثم ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فالمهزوم مولٍّ ومعه (غضب من الله) يذهب به إلى مأواه ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، وهو يثير في الوجدان شعور الاستقباح والاستنكار للتولي يوم الزحف والفرار.

---

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٨١٩، ٢٨٢٠).

قال رسول اللَّه ﷺ: «**اجتنبوا الكبائر السبع: الشرك بالله، وقتل النفس، والفِرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وقذف المحصنة، والتعرُّب**[١] **بعد الهجرة**»[٢].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**الكبائر الإشراك بالله، وقذفُ المحصنة، وقتلُ النفس المؤمنة، والفِرارُ يوم الزحف، وأكلُ مال اليتيم، وعقوق الوالدين المسلمَيْن، وإلحادٌ بالبيت، قبلتكم أحياءً وأمواتًا**»[٣].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**خمس ليس لهن كفارة: الشرك بالله، وقتلُ النفس بغير حق، وبُهتُ**[٤] **المؤمن، والفِرارُ من الزحف، ويمين صابرة يقتطع بها مالًا بغير حق**»[٥].

وقال ﷺ: «**الكبائر تسع، أعظمهن إشراك بالله، وقتل النفس بغير حق، وأكلُ الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، والفرار يوم الزحف وعقوق الوالدين، واستحلال البيت الحرام، قبلتكم أحياءً وأمواتًا**»[٦].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**الكبائر سبع: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم اللَّه إلا بالحق، وقذف المُحصنة، والفرار من الزحف، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة**»[٧].

---

(١) أي: العودة للبادية للحياة مع الأعراب.

(٢) **حسن**: رواه الطبراني في «الكبير» عن سهل بن أبي حثمة، وَحَسَّنَهُ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٣)، والألباني في «صحيح الجامع» (١٤٥).

(٣) **حسن**: أخرجه البيهقي في «سننه» عن ابن عمر، وَحَسَّنَهُ الألباني في «الإرواء» (٦٩٠)، و«صحيح الجامع» (٤٦٠٢).

(٤) المراد: الافتراء والكذب عليه المؤدي لشحوب لونه.

(٥) **حسن**: أخرجه أحمد، وأبو الشيخ في «التوبيخ» عن أبي هريرة، وَحَسَّنَهُ الألباني في «الإرواء» (١٢٠٢) و«صحيح الجامع» (٣٢٤٧).

(٦) **حسن**: أخرجه النسائي، وأبو داود عن عمير، وكذا أخرجه الطحاوي، والحاكم، والبيهقي في «سننه»، وَحَسَّنَهُ الألباني في «الإرواء» (٦٩٠) و«صحيح الجامع» رقم (٤٦٠٥).

(٧) **حسن**: أخرجه الطبراني في «الأوسط» عن أبي سعيد، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٦٠٦).

وقال رسول الله ﷺ: «**من جاء يعبد الله لا يشرك به شيئًا، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان، ويتقي الكبائر فإن له الجنة**» قالوا: ما الكبائر؟ قال: «**الإشراك بالله، وقتل النفس المسلمة، وفرار يوم الزحف**»(١).

٣٧- قال - تعالَى -: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠].

قال ابن كثير (١٠٩/٧، ١١٠): «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾؛ أي: مهما أمكنكم، ﴿مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»(٢).

قال القرطبي (٢٨٧٤/٤، ٢٨٧٥): «قوله - تعالَى -: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ أمر - سبحانه - المؤمنين بإعداد القوة للأعداء بعد أن أكدَّ تقدمة التقوي، فإن الله - سبحانه - لو شاء لهزمهم بالكلام والتَّفْل في وجوههم وبحَفْنة من تراب، كما فعل رسول الله ﷺ، ولكنه أراد أن يبتلي بعض الناس ببعض بعلمه السابق وقضائه النافذ. وكلما تعدُّه لصديقك من خير أو لعدوك من شرٍّ فهو داخل في عدتك.

قال ابن عباس: القوة هاهنا السلاح والقسي.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد، والنسائي، وابن حبان، والحاكم عن أبي أيوب، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الإرواء» (١٢٠٢)، و«صحيح الجامع» رقم (٦١٨٥).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٦/٤) رقم (١٧٤٧٩)، ومسلم (١٩١٧)، وأبو داود (٢٥١٤)، وابن ماجه (٩٤٠/٢) حديث (٢٨١٣)، والدارمي (٢٠٤/٢)، وأبو داود الطيالسي في «مسنده» (١١٨٢).

وفضل الرمي عظيم، ومنفعته عظيمة للمسلمين، ونكايته شديدة على الكافرين». اهـ.

قال رسول اللَّه ﷺ «**ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميًا**»[(١)].

وقال ﷺ «**رميًا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميًا**»[(٢)].

وقال القرطبي: «**وتعلُّم الفروسية واستعمال الأسلحة فرض كفاية، وقد يتعيَّن**».

قال أبو جعفر ابن جرير: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن اللَّه أمر المؤمنين بإعداد الجهاد، وآلة الحرب، وما يتقوَّون به على جهاد عدوِّه وعدوِّهم من المشركين من السلاح، والرمي، وغير ذلك، ورباط الخيل. ولا وجه أن يُقال: عنى بالقوة معنى دون معنى من معاني القوة، وقد عمَّ اللَّه الأمر بها. فإنْ قال قائل: فإن رسول اللَّه ﷺ قد بيَّن أن ذلك مراد به الخصوص بقوله: «**ألا إن القوة الرمي**». قيل له: إن الخبر إن كان قد جاء بذلك فليس في الخبر ما يدل على أنه مراد بها الرمي خاصة دون سائر معاني القوة عليهم، فإن الرمي أحد معاني القوة؛ لأنه إنما قيل في الخبر: ألا إن القوة الرمي ولم يقل دون غيرها. ومن القوة ـ أيضًا ـ السيف والرمح والحربة وكل ما كان معونة على قتال المشركين كمعونة الرمي، أو وأبلغ من الرمي فيهم، وفي النكاية منهم»[(٣)].

وقال رسول اللَّه ﷺ «**ستُفتح عليكم أرضون[(٤)]، ويكفيكم الله، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بسهمه**»[(٥)].

---

(١) رواه أحمد والبخاري عن سلمة بن الأكوع، والحاكم عن أبي هريرة وعن سلمة، وابن حبان عن أبي هريرة، وأحمد، وابن ماجه، والحاكم عن ابن عباس.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده»، وابن ماجه، والحاكم عن ابن عباس، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٥٢٠).

(٣) تفسير الطبري (٢٣/١٠).

(٤) أرضون: جمع أرض.

(٥) رواه أحمد، ومسلم عن عقبة بن عامر.

وقال ﷺ: **«ألا إن اللَّه سيفتح لكم الأرض وستُكْفَوْن المؤنة[١]؟ فلا يعجزنَّ أحدكم أن يلهوَ بأسهمه»**[٢].

وقال ﷺ: **«عليكم بالرمي، فإنه من خير لعبكم»**[٣].

وقال رسول اللَّه ﷺ: **«عليكم بالرمي، فإنه من خير لهوكم»**[٤].

وقال ﷺ: **«من أحسن الرمي ثم تركه، فقد ترك نعمة من النعم»**[٥].

وقال ﷺ: **«من ترك الرمي بعد ما علمه، رغبة عنه، فإنها نعمة كفرها»**[٦].

وقال رسول اللَّه ﷺ: **«من علم الرمي ثم تركه فليس منا»**[٧].

«وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك رضي الله عنه إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى؛ للحديث. واللَّه أعلم»[٨].

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾

قال ابن زيد: الرباط من الخيل الخَمسُ فما فوقها، وجماعته رُبُط. وهي التي ترتبط، يُقال: ربط يرْبطِ رَبْطًا. وارتبط يرتبط ارتباطًا. ومربط الخيل ومرابطها وهي

---

(١) المؤنة: القوت.

(٢) رواه أحمد، ومسلم، والترمذي واللفظ له عن عقبة بن عامر.

(٣) **صحيح**: رواه الطبراني في «الأوسط» عن سعد، وَصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٢٩)، و«صحيح الجامع» (٤٠٦٥).

(٤) **صحيح**: رواه البزار عن سعد، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» (٦٢٩)، و«صحيح الجامع» (٤٠٦٦).

(٥) **صحيح**: أخرجه القراب في «الرمي» عن يحيى بن سعيد مرسلًا، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٩٧٢). **انظر**: الترغيب (١٧٢/٢).

(٦) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «الكبير»، وأحمد، وأبو داود، والنسائي، والدارمي، وابن خزيمة، والحاكم، والبيهقي في «سننه»، والطيالسي عن عقبة، ورواه البزار والطبراني في «الصغير والأوسط» عن أبي هريرة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦١٤٢)، **وانظر**: الترغيب (١٧٢/٢).

(٧) رواه مسلم عن عقبة بن عامر.

(٨) تفسير ابن كثير (١١١/٧).

ارتباطها بإزاء العدو؛ قال الشاعر:

أَمَـرَ الْإِلَـهُ بِـرَبْـطِـهَـا لِـعَـدُوِّهِ   فِي الْحَرْبِ إِنَّ اللَّهَ خَيْرُ مُوَفِّقِ

وقال مكحول بن عبدالله:

تَلُومُ عَلَى رَبْطِ الْجِيَادِ وَحَبْسِهَا   وَقَدْ أَوْصَى بِهَا اللَّهُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا

ورباط الخيل فضل عظيم ومنزلة شريفة. وكان لعُروة البارقي رضي الله عنه سبعون فرسًا مُعَدَّة للجهاد.

قال القرطبي: «**فإنْ قيل: إن قوله:** ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ كان يكفي، فلم خصَّ الرمي والخيل بالذكر؟ قيل له: إن الخيل لما كانت أصل الحروب وأوزارها[1] التي عُقد الخير في نواصيها، وهي أقوى القوة وأشد العُدَّة وحصون الفرسان، وبها يُجال في الميدان، خصَّها بالذكر؛ تشريفًا، وأقسم بغبارها تكريمًا، فقال: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١﴾ [العاديات: ١] الآية، ولما كانت السهام من أنجح ما يُتعاطى في الحروب والنكاية في العدو وأقربها تناولًا للأرواح خصها رسول الله ﷺ بالذكر لها والتنبيه عليها. ونظير هذا في التنزيل: ﴿وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] ونظيره كثير»[2]. ولله ما أحلى إضافة الخيل إلى الله فيقال: «**يا خيل الله اركبي**»

❑ **والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة:**

عن عروة بن أبي الجعد البارقي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغنم**»[3] وفي رواية: بنواصيها.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**البركة في نواصي الخيل**»[4].

---

(١) أوزار الحرب: أثقالها من آلة حرب وسلاح وغيره.

(٢) تفسير القرطبي (٢٨٧٦/٤).

(٣) رواه البخاري برقم (٢٨٥٠) وأحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن عروة، وأحمد ومسلم والنسائي عن جرير.

(٤) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«الخيل ثلاثة: ففرس للرحمن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان، فأما فرس الرحمن، فالذي يُرتبط في سبيل الله، فعلفه وروثه وبوله في ميزانه، وأما فرس الشيطان فالذي يُقامَر أو يُراهَن عليه، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها[1]، فهي ستر من الفقر»**[2].

وعن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول الله ﷺ: **«الخيلُ في نواصي شُقرِها الخيرُ»**[3].

وقال رسول الله ﷺ: **«الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة، والمنفق على الخيل كالباسط كفَّه بالنفقة لا يقبضها»**[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الخيل لثلاثة: هي لرجل أجر، ولرجل سِتر، وعلى رجل وزر؛ فأما الذي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرْج أو روضة[5]، فما أصابت في طيلها[6] من المرج والروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت[7] شرفًا أو شرفين[8] كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرَّت بنَهر فشربت ولم يُرد أن يسقيها كان ذلك له حسنات. ورجل ربطها تغنِّيًا، وسِترًا، وتعففًا، ثم لم ينس حق الله في رقابها وظهورها**

---

(١) أي: يطلب ما في بطنها للنسل.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد في «المسند» (٣٩٥/١)، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الإرواء» برقم (١٥٠٨)، و«صحيح الجامع» رقم (٣٣٥٠).

(٣) **حسن**: رواه الخطيب في «تاريخ بغداد»، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٣٥١). **انظر**: الترغيب والترهيب (١٦٢/٢، ١٦٣).

(٤) **صحيح**: رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» عن أبي هريرة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٣٤٩)، **انظر**: الترغيب (١٦٠/٢).

(٥) المرج: هو الأرض الواسعة ذات النبات. والروضة: البستان.

(٦) هو: الحبل تُربط به.

(٧) أي: عَدَت نشيطة من غير راكب عليها.

(٨) شوطًا أو شوطين.

فهي له سِتر، ورجل ربطها فخرًا ورياءً ونواءً[1] لأهل الإسلام فهي له وزر»[2].

وقال ﷺ: **«الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»**[3].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، فامسحوا بنواصيها، وادعوا لها بالبركة، وقلدوها، وتقلدوها الأوتار[4]»**[5].

وقال ﷺ: **«الخيل معقود في نواصيها الخير واليُمْنُ[6] إلى يوم القيامة، وأهلها مُعَانون عليها، قلِّدوها، ولا تقلدوها الأوتار»**[7].

وقال ﷺ: **«من ارتبط فرسًا في سبيل الله، ثم عالج[8] علفه بيده كان له بكل حبة حسنة»**[9].

وقال رسول الله ﷺ: **«ما من امرئ مسلم يُنَقي لفرسه شعيرًا، ثم يُعَلِّقُه عليه إلا**

---

(١) عداء.

(٢) رواه مالك في «الموطإ» (٢/٤١٤) ومن طريقه البخاري (٢٣٧١)، ورواه مسلم (٩٨٧)، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

(٣) رواه مالك وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر، وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه عن عروة بن الجعد، ورواه البخاري عن أنس، ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة، ورواه أحمد عن أبي ذر وعن أبي سعيد، ورواه الطبراني في «الكبير» عن سوادة ابن الربيع، وعن النعمان بن بشير، وعن أبي كبشة.

(٤) قلدوها؛ أي: ألزموها الخير والدفاع عن المسلمين.

الأوتار: الدم وطلب الثأر.

(٥) **حسن**: أخرجه أحمد في «مسنده»، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٥٥).

(٦) البركة.

(٧) **حسن**: رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» عن جابر، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٥٦).

(٨) عالج؛ أي: زاول إطعامه بيده.

(٩) **صحيح**: رواه ابن ماجه، وابن حبان عن تميم الداري، وكذا رواه الطبراني في «الأوسط»، والدولابي، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٠٠٨).

كتب الله له بكل حبة حسنة»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «**من احتبس فرسًا في سبيل الله، إيمانًا بالله، وتصديقًا بوعده، كان شبعه، وريِّه، حسناتٍ في ميزانه يوم القيامة**»[٢].

وقال ﷺ: «**إن المنفق على الخيل في سبيل الله كالباسط يديه بالصدقة لا يقبضها**»[٣].

وقال ﷺ: «**المنفق على الخيل في سبيل الله كباسط يديه بالصدقة لا يقبضها**»[٤].

وقال رسول الله ﷺ: «**عليك بالخيل، فإن الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**»[٥].

ونختم بهذا الحديث العجيب الجميل، الجميل الرقيق.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنه ليس من فرس عربي إلا يُؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين، يقول: «اللهم إنك خوَّلتني[٦] من خوَّلتني من بني آدم، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه**»[٧].

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن تميم، وَصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٢٦٩)، و«صحيح الجامع» رقم (٥٦٨٨).

(٢) رواه أحمد، والبخاري، والنسائي عن أبي هريرة.

(٣) **حسن**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» عن سهل بن الحنظلية، ورواه أبو داود، والحاكم، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٩٦٤)، **وانظر**: الترغيب (٢/١٦١).

(٤) **صحيح**: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم في «المستدرك» عن ابن الحنظلية، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٧٣٣).

(٥) **صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير»، والضياء في «المختارة» عن الصحابي سوادة بن الربيع، وَصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٩٣٦)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٠٤٠).

(٦) أعطيتني إياه متفضِّلًا.

(٧) **صحيح**: رواه أحمد (٥/١٦٢) (٢١٥٢٣) (٥/١٧٠) (٢١٥٧٨)، والنسائي (٦/٢٢٣)، والحاكم، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٤١٤)، **وانظر**: الترغيب (٢/١٦١).

ولله ما أحلى قول القائل:

جَوَادُ دِينِكَ فِي الْمَيْدَانِ مُنْطَلِقُ ... وَبَيْنَ عَيْنَيْهِ مِنْ إِصْرَارِهِ أَلَقُ
صَهِيلُهُ نَغَمٌ يُصْغِي الزَّمَانُ لَهُ ... ونَقْعُهُ لِحِجَابِ الشَّمْسِ يَخْتَرِقُ
تَشْدُو حَوَافِرُهُ لَحْنًا يُهَشُّ لَهُ ... قَلْبُ التُّرَابِ وتَسْتَرْخِي لَهُ الطُّرُقُ
يُسَابِقُ الرِّيحَ فِي دَرْبِ الْإِبَاءِ وَكَمْ ... خَيْلٌ سِوَاهُ إِلَى الْأَهْوَاءِ تَسْتَبِقُ
جَوَادُ دِينِكَ يَجْرِي النُّورُ فِي دَمِهِ ... وتَشْرَئِبُّ إِلَى غَارَاتِهِ الْعُنُقُ
تَكُفُّ عَنْ وَجْهِهِ الصَّحْرَاءُ مَا حَمَلَتْ ... مِنْ سَفْيِهَا وَيُنَاغِي رَكْضَهُ الشَّفَقُ
يَقُضُّ مَضْجَعَ كُلِّ الصَّافِنَاتِ إِذَا ... ثَارَ الْغُبَارُ وَطَارَتْ نَحْوَهُ الْحَدَقُ
مُجَاهِدٌ وَالْأَمَانِي الْبِيضُ لَاهِثَةٌ ... وَرَاءَهُ وَبِحَارُ الشَّوْقِ تَصْطَفِقُ
إِذَا تَلَفَّتَ غَنَّى فَجَرُ غُرَّتِهِ ... لَحْنَ الضِّيَاءِ وَأَرْخَى طَرْفَهُ الغَسَقُ
وَسَافَرَ اللَّيْلُ مَبْهُورًا وَأَعْقَبَهُ ... فَجْرٌ تَحَفَّزَ لِاسْتِقْبَالِهِ الْأُفُقُ

● ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

قال القرطبي: «وقد استدل بعض علمائنا بهذه الآية على جواز وقف الخيل والسلاح، واتخاذ الخزائن والخزان لها عُدَّةً للأعداء.

وقد اختلف العلماء في جواز وقف الحيوان كالخيل والإبل على قولين: المنع، وبه قال أبو حنيفة. والصحة، وبه قال الشافعي رضي الله عنه، وهو أصح؛ لهذه الآية، ولحديث ابن عمر في الفرس الذي حمل عليه في سبيل الله، وقوله عليه السلام في حق خالد: «**وأما خالد فإنكم تظلمون خالدًا فإنه قد احتبس أدراعه وأَعْتَادَهُ**[1] **في سبيل الله**» الحديث»[2].

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ قال ابن عباس: تخزون به عدو الله

(١) أعتاده: آلات الحرب من السلاح والدواب وغيرها.

(٢) تفسير القرطبي (٢٨٧٦/٤، ٢٨٧٧).

وعدوكم﴾(١).

وقال ابن كثير (١١٢/٧): أي: تخوفون به.

﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ من الكفار.

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ قال مجاهد: يعني قريظة، وقال السدي: فارس، وقال سفيان الثوري: قال ابن يمان: «**هم الشياطين التي في الدور**». وقيل: الجن، وهو اختيار الطبري.

وقيل: المراد بذلك كل من لا تُعرف عداوته.

قال القرطبي (٢٨٧٧/٤): «ولا ينبغي أن يقال فيهم شيء، لأن اللَّه ـ سبحانه ـ قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾؛ فكيف يدَّعي أحد علمًا بهم، إلا أن يصح حديث جاء في ذلك عن رسول اللَّه ﷺ وهو قوله في هذه الآية: «**هم الجن**».

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

قال الطبري (٢٣/١٠): «وما أنفقتم أيها المؤمنون من نفقة في شراء آلة حرب من سلاح أو حرب أو كراع أو غير ذلك من النفقات في جهاد أعداء اللَّه من المشركين يخلفه اللَّه عليكم في الدنيا ويدَّخر لكم أجوركم على ذلك عنده حتى يوفيكموها يوم القيامة.

﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ لا يضيع أجوركم عليه.

قال ابن إسحاق: لا يضيع لكم عند اللَّه أجره في الآخرة، وعاجل خلفه في الدنيا».

وقال ابن كثير: «مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفي إليكم على التمام والكمال، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى

(١) تفسير الطبري ٢٢/١٠.

كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال ﷺ للذي وقف ناقة مخطومة في سبيل الله ﷻ: «**لك بها سبع مئة ناقة في الجنة**»[١]، وقال ﷺ: «**لك بها يوم القيامة سبع مئة ناقة مخطومة**»[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**من أظل رأس غازٍ أظله الله يوم القيامة، ومن جهز غازيًا في سبيل الله، فله مثل أجره حتى يموت أو يرجع، ومن بنى لله مسجدًا يذكر فيه اسم الله بنى الله له بيتًا في الجنة**»[٣].

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾.

«**إنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في «الأرض»** لتحرير «**الإنسان**».. وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة أن تُؤَمِّنَ الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها؛ فلا يُصَدُّوا عنها، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها.. والأمر الثاني: أن ترهب أعداء هذا الدين، فلا يفكروا في الاعتداء على «**دار الإسلام**» التي تحميها تلك القوة.. والأمر الثالث: أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي، وهو ينطلق لتحرير «**الإنسان**» كله في «**الأرض**» كلها.. والأمر الرابع: أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية، فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها؛ ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده؛ ومن ثم فالحاكمية له وحده ـ سبحانه ـ..

---

(١) **صحيح**: رواه أبو نعيم في «الحلية» عن ابن مسعود، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٠٣٠)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (٦٣٤).

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن ابن مسعود، ويحتمل أن يكون الحديث على ظاهره، ويكون له بها في الجنة سبع مئة ناقة كلها مخطومة يركبهن حيث شاء للتنزه. قال الثوري: وهذا الاحتمال أظهر.

(٣) **صحيح**: رواه ابن أبي شيبة (١/ ٣١٠)، وابن ماجه (٢٧٥٨)، وابن حبان (٤٦٢٨)، والبيهقي (٩/ ١٧٢)، والحاكم (٢/٨٩)، وأحمد (١/ ٢٠): وقال شعيب الأرناءوط في «الإحسان»: رجاله ثقات، رجال الصحيح.

إن الإسلام ليس نظامًا لاهوتيًا يتحقق بمجرد استقراره عقيدة في القلوب، وتنظيمًا للشعائر، ثم تنتهي مهمته.

إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة؛ يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سلطات وتقف وراءها قوى مادية. فلا مفر للإسلام - لإقرار منهجه الرباني - من تحطيم تلك القوى المادية، وتدمير السلطات التي تنفذ تلك المناهج الأخرى، وتقاوم المنهج الرباني.

وينبغي للمسلم ألا يتمتم ولا يجمجم وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة.. ينبغي ألا يستشعر الخجل من طبيعة منهجه الرباني.

ينبغي أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق في الأرض إنما ينطلق لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية اللَّه وحده وتحطيم ألوهية العبيد! إنه لا ينطلق بمنهج من صنع البشر؛ ولا لتقرير سلطان زعيم، أو دولة، أو طبقة، أو جنس! إنه لا ينطلق لاسترقاق العبيد ليفلحوا مزارع الأشراف كالرومان؛ ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالرأسمالية الغربية؛ ولا لفرض مذهب بشري من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية وما إليها من المذاهب البشرية.

إنما ينطلق بمنهج من صنع اللَّه العليم الحكيم الخبير البصير؛ ولتقرير ألوهية اللَّه وحده وسلطانه؛ لتحرير «**الإنسان**» في «**الأرض**» من العبودية للعبيد.

هذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يدركها المهزومون الذين يقفون بالدين موقف الدفاع؛ وهم يتمتمون ويجمجمون للاعتذار عن المد الإسلامي! والجهاد الإسلامي[1].

ويحسن أن نعرف حدود التكليف بإعداد القوة. فالنص يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.

---

(١) تفسير في ظلال القرآن

فهي حدود الطاقة إلى أقصاها. بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها.

كذلك يشير النص إلى الغرض الأول من إعداد القوة: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

فهو إلقاء الرعب والرهبة في قلوب أعداء اللَّه الذين هم أعداء العصبة المسلمة في الأرض. الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون؛ ومَنْ وراءهم ممن لا يعرفونهم، أو لم يجهروا لهم بالعداوة، واللَّه يعلم سرائرهم وحقائقهم. وهؤلاء ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد بالفعل إليهم. والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء، وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة؛ ليكونوا مرهوبين في الأرض؛ ولتكون كلمة اللَّه هي العليا، وليكون الدين كله لله.

ولما كان إعداد العدة يقتضي أموالًا، وكان النظام الإسلامي كله يقوم على أساس التكافل، فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل الله؛ ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

وهكذا يجرد الإسلام الجهاد والنفقة في سبيله، من كل غاية أرضية، ومن كل دافع شخصي؛ ومن كل شعور قومي أو طبقي؛ ليتمحض خالصًا لله ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لتحقيق كلمة الله، وابتغاء رضوان الله.

ومن ثم ينفي الإسلام من حسابه - منذ الوهلة الأولى - كل حرب تقوم على أمجاد الأشخاص والدول، وكل حرب تقوم للاستغلال وفتح الأسواق، وكل حرب تقوم للقهر والإذلال، وكل حرب تقوم لتسويد وطن على وطن، أو قوم على قوم، أو جنس على جنس، أو طبقة على طبقة.. ويستبقي نوعًا واحدًا من الحركة.. حركة الجهاد في سبيل الله.

والله - سبحانه - لا يريد تسويد جنس، ولا وطن، ولا قوم، ولا طبقة، ولا فرد، ولا شعب. إنما يريد أن تسود ألوهيته وسلطانه وحاكميته. وهو غني عن

العالمين، ولكن سيادة ألوهيته هي وحدها التي تكفل الخير والبركة والحرية والكرامة للعالمين.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾: تخزون به عدو الله وعدوكم؛ إما الإسلام، وإما الجزية، وإما السيف.

يا لها من هزيمة روحية وعقلية.. وأي هزيمة.. الهزيمة الروحية والعقلية يعانيها الكثيرون ممن يكتبون عن «الجهاد في الإسلام»؛ فيثقل ضغط الواقع الحاضر على أرواحهم وعقولهم؛ ويستكثرون على دينهم ـ الذي لا يدركون حقيقته ـ أن يكون منهجه الثابت هو مواجهة البشرية كلها بواحدة من ثلاث: الإسلام، أو الجزية، أو القتال، وهم يرون القوى الجاهلية كلها تحارب الإسلام وتناهضه؛ وأهله ـ الذين ينتسبون إليه وهم لا يدركون حقيقته ولا يشعرون بها شعورًا جديًّا ـ ضعاف أمام جحافل أتباع الديانات والمذاهب الأخرى؛ كما يرون طلائع العصبة المسلمة الحقة قلة بل ندرة؛ ولا حول لهم في الأرض ولا قوة.. وعندئذ يعمد أولئك الكتاب إلى لَيِّ أعناق النصوص؛ ليؤولوها تأويلًا يتمشى مع ضغط الواقع وثقله؛ ويستكثرون على دينهم أن يكون هذا منهجه وخطته!

إنهم يعمدون إلى النصوص المرحلية، فيجعلون منها نصوصًا نهائية؛ وإلى النصوص المقيدة بحالات خاصة، فيجعلون منها نصوصًا مطلقة الدلالة؛ حتى إذا وصلوا إلى النصوص النهائية المطلقة أوَّلوها وفق النصوص المقيدة المرحلية! وذلك كله كي يصلوا إلى أن الجهاد في الإسلام هو مجرد عملية دفاع عن أشخاص المسلمين، وعن دار الإسلام عندما تهاجم! وأن الإسلام يتهالك على أي عرض للمسالمة. والمسالمة معناها مجرد الكف عن مهاجمة دار الإسلام!

إن الإسلام ـ في حسهم ـ يتقوقع، أو يجب أن يتقوقع داخل حدوده ـ في كل وقت ـ، وليس له الحق أن يطالب الآخرين باعتناقه، ولا بالخضوع لمنهج الله، اللهم إلا بكلمة أو نشرة أو بيان، أما القوة المادية ـ الممثلة في سلطان الجاهلية على الناس ـ

فليس للإسلام أن يهاجمها إلا أن تهاجمه، فيتحرك حينئذ للدفاع!

ولو أراد هؤلاء المهزومون روحيًّا وعقليًّا أمام ضغط الواقع الحاضر، أن يلتمسوا في أحكام دينهم ما يواجه هذا الواقع - دون ليٍّ لأعناق النصوص - لوجدوا فيه هذه الواقعية الحركية في أحكامه وتصرفاته المرحلية التي كان يواجه بها ضغط الواقع المشابه لما نواجهه نحن اليوم؛ ولاستطاعوا أن يقولوا: إنه في مثل هذه الحال كان الإسلام يتصرف على هذا النحو، ولكن هذه ليست هي القواعد الدائمة؛ إنما هي الأحكام والتصرفات التي تواجه الضرورة.

ليست خيولهم بالعاديات صبحًا، ولا هي الموريات قدحًا، ولا المغيرات صبحًا؛ الخيل التي أقسم اللَّه بها وبما تثيره من الغبار ليست هي خيولنا، إنما هي خيل أبي سليمان خالد.. هي فرس أبي قتادة فارس رسول اللَّه ﷺ.. إنما خيلنا خيل المعلم متقال.. خيول رقص.. عوَّدُوها على الرقص والمزمار، بل - واللَّه - وأطعموها القات والسيجار، وجعلوها تنفس هذا التبغ والدخان.

أين فرس خالد، وطارق؟!.. أين فرس أبي قتادة؟!..

سَعَيْتُ إِلَيْكِ كَطَيْفٍ جَرِيحٍ ... كَسِيرَ الْفُؤَادِ حَزِينًا عَلِيلَا
سَعَيْتُ يُمَزِّق خَطْوِي الضَّيَاعُ ... وَمَا غَيْرُ شَوْقِي إِلَيْكِ الدَّلِيلَا
لِكَيْمَا أُعَانِقَ فِيكِ الْإِبَاءَ ... وَأَتْلُوَ سِفْرَ عُلَاكِ الْجَلِيلَا
وَأَسْتَنْشِقَ الْعَبَقَ الْيَعْرُبِيَّ ... وعَزْمًا عنيدًا ومجدًا أثيلَا
فَيَنْدَاحُ يَأْسِي وَيَذْوِي أَسَايَ ... وَلَكِنَّنِي لَمْ أَجِدْكِ الْخُيُولَا
وَلَكِنْ بَقَايَا نِعَاجٍ عِجَافٍ ... مُفَكَّكَةِ الْعَزْمِ تَحْكِي الطُّلُولَا
وَفِي مُقْلَتَيْكِ ذُبَابٌ مُقِيمٌ ... لِيَمْتَصَّ مِنْكِ الْبَرِيقَ الْأَصِيلَا
وَمِضْمَارُكِ الْفَذُّ أَضْحَى حَلَالًا ... لِمَنْ يَبْتَغِيهِ وَقَدْ كَانَ غِيلَا
أُشَاهِدُ كَلْبًا عَقُورًا بِهِ ... وَذِئْبًا حَقِيرًا وَضَبْعًا هَزِيلَا
فَنَامِي وَنَامِي فَلَا الْفَجْرُ لَاحَ ... وَلَيْلُكِ يَبْدُو طَوِيلًا طَوِيلَا

وَفِي سَاحَةِ الْهَوْلِ لاَ النَّقْعُ ثَارَ ... وَلاَ «خَالِدٌ» جَاءَ يَحْمِي الْقَبِيلاَ
وَلاَ «سَعْدُ» قَامَ يَشُقُّ الصُّفُوفَ ... لِيَجْعَلَ جَيْشَ الأَعَادِي فُلُولاَ
وَلاَ الرُّمْحُ سُدِّدَ نَحْوَ النُّحُورِ ... وَلاَ السَّيْفُ عَادَ حُسَامًا صَقِيلاَ
فَلَنْ تَسْمَعِي قَعْقَعَاتِ الرِّمَاحِ ... وَلَنْ تَسْمَعِي لِسُيُوفٍ صَلِيلاَ
وَلاَ تَعْجَبِي فَهُمْ كَفَّنُوهَا ... بِأَغْمَادِ ذُلٍّ أَبَى أَنْ يَزُولاَ
وَأَنَّى لَكِ الْيَوْمَ أَنْ تَنْهَضِي ... وَإِنِّي أَرَاكِ كَثِيبًا مَهِيلاً؟
وَلَوْ قَدْ نَهَضْتِ فَمَا مِنْ غَنَاءٍ ... وَسَعْيُكِ مَا عَادَ يُجْدِي فَتِيلاَ
وَمَا قِيمَةُ السَّعْيِ إِنْ لَمْ يُحَقِّقْ ... إِبَاءً وَضَرْبًا يُرَوِّي الْغَلِيلاَ

* * *

فَنَامِي فَلَيْسَ سِوَى أَنْ تَنَامِي ... وَمَا عُدْتِ تَمْتَلِكِينَ الْبَدِيلاَ
وَلاَ تَحْلُمِي بِانْطِلاَقٍ جَلِيلٍ ... يَرُودُ السَّنَا وَالذُّرَا وَالسُّهُولاَ
تَعِيشِينَ فِيهِ ابْتِسَامَ الصَّبَاحِ ... وَشَمْسَ الأَصِيلِ تُنَاجِي الْخَمِيلاَ
وَعُشْبًا نَدِيًّا لَذِيذَ الْمَذَاقِ ... وَرِيحًا رَخِيًّا وَظِلًّا ظَلِيلاَ
وَلَحْنًا يَجُودُ بِهِ فِي الرَّبِيعِ ... خَرِيرُ مِيَاهٍ جَرَتْ سَلْسَبِيلاَ
يُجَاوِبُ فِيهِ حَفِيفَ الْغُصُونِ ... وَتَغْرِيدَ حُسُونِهَا وَالْهَدِيلاَ

* * *

وَإِيَّاكِ أَنْ تَصْهَلِي فَالصَّهِيلُ ... سَيَحْرِمُكِ الْعُشْبَ عَرْضًا وَطُولاَ
وَلاَ تَضْبَحِي فَالضُّبَاحُ سَيَغْدُو ... إِذَا مَا ضَبَحْتِ دَمًا أَوْ عَوِيلاَ
هُوَ الصَّمْتُ أَصْبَحَ أَعْلَى مَقَامًا ... وَأَجْدَى مَرَامًا وَأَقْوَمَ قِيلاَ
وَإِيَّاكِ أَنْ تَحْلُمِي بِالإِبَاءِ ... فَإِنَّ الإِبَاءَ غَدَا مُسْتَحِيلاَ
فَنَامِي وَشُدِّي عَلَيْكِ الْغِطَاءَ ... كَثِيفًا كَثِيفًا ثَقِيلاً ثَقِيلاَ
فَمَنْ لَمْ يَنَمْ تَاهَ مِنْهُ الطَّرِيقُ ... وَنَالَ مِنَ الْكَرْبِ حَظًّا وَبِيلاَ
وَلاَ تَسْأَلِينِيَ أَيْنَ الدَّلِيلُ؟ ... فَقَدْ خَدَعَ الْقَوْمُ عَنْكِ الدَّلِيلاَ
وَلاَ تَسْأَلِينِي أَيْنَ السَّبِيلُ؟ ... فَإِنِّيَ أَيْضًا ضَلَلْتُ السَّبِيلاَ

فَـهَـذَا زَمَـانُ الـدَّعِـيِّ الَّـذِي ... بِـهِ حَـرَمُـوا الْحُرَّ حَتَّـى الرَّحِـيلَا
وَفِيهِ اخْتَفَتْ مَكْرُمَاتُ الرِّجَالِ ... وَأَنْـكَـرَ كُـلُّ خَـلِـيـلٍ خَـلِـيـلَا
وَعَـاشَ بِـهِ الْحُرُّ يَـخْـشَـى الْحَيَاةَ ... وَيَخْشَى الْمَمَاتَ وَيَخْشَى الْمَقِيلَا
وَيَـخْـشَـى أَنَـامِـلَـهُ إِنْ سَـهَـا ... فَـتُـرْدِيـهِ غَـدْرًا بِـخَـنْـقٍ قَـتِـيـلَا
حَنَانَيْكِ نَامِي وَشُدِّي الْغِطَاءَ ... وَلَوْ كَانَ نَسْجُ الْغِطَاءِ الْوُحُولَا
فَـإِنِّـي رَأَيْـتُ الْخَزَايَـا تَـسُـودُ ... وَشَاهَدْتُ «عَنْتَرَ» عَبْدًا ذَلِيلَا
وَقَدْ مَاتَ فِي شَفَتَيْهِ الْقَصِيدُ ... عَلَى جِلْدِهِ السَّوْطُ يَهْوِي مَهُولَا
يُـنَـادَى عَـلَـيْـهِ «أَمَنْ يَـشْـتَـرِيـهِ» ... وَيَـدْفَـعُ فِـيهِ الْـبَـخِـيـسَ الْـقَـلِـيـلَا؟
وَ«طَـارِقَ» شُـدَّ عَـلَـيْـهِ الْـوَثَـاقُ ... يُـعَـذَّبُ فِي السِّجْنِ حَتَّى يَمِيلَا
وَيُـنْـكِـرَ مَـا صَـاغَـهُ مِنْ فُـتُـوحٍ ... وَحَـقَّـقَ فِـيـهَـا انْـتِـصَـارًا جَـلِـيـلَا
وَيُـحْـنِـي قَـامَـتَـهُ لِـلـدَّعِـيِّ ... وَيَتْرُكَ «لِذْرِيقَ» كَيْمَا يَصُولَا[1]

* * *

٣٨- قال - تعالى -: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦].

قال القرطبي: «قوله - تعالى -: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ﴾؛ أي: حُثَّهم وحضَّهم. يقال: حارض على الأمر وواظب وواصب وأكبَّ بمعنى واحد»[2].

---

(١) زيارة فوق العادة للخيول العربية، للدكتور جابر قميحة، «مجلة القدس» العدد «١٣١» «رمضان - شوال ١٤٢٠هـ - يناير ٢٠٠٠م» ص (٨٠، ٨١).

(٢) القرطبي (٤/٢١٨٣).

قال ابن جرير (١٠/٢٧، ٢٨): ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾ حُثَّ متبعيك ومصدقيك على ما جئتهم به من الحق على قتال من أدبر وتولى عن الحق من المشركين. إن يكن منكم عشرون رجلًا صابرون عند لقاء العدو، يحتسبون أنفسهم، ويثبتوا لعدوهم، يغلبوا مئتين من عدوهم ويقهروهم، وإن يكن منكم مئة عند ذلك يغلبوا ألفًا. ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ من أجل أن المشركين قوم يقاتلون على غير رجاء وثواب، ولا لطلب أجر ولا احتساب؛ لأنهم لم يفقهوا أن اللَّه موجب لمن قاتل احتسابًا وطلب موعود اللَّه في المعاد ما وعد المجاهدين في سبيله، فهم لا يثبتون إذا صدقوا في اللقاء؛ خشية أن يُقتلوا فتذهب دنياهم.

ثم خفف ـ تعالَى ذكره ـ عن المؤمنين، إذ علم ضعفهم، فقال لهم: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ﴾ ؛ يعني: أن في الواحد منهم عن لقاء العشرة من عدوهم ضعفًا، ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ عند لقائهم للثبات لهم ﴿يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِۚ﴾ منهم، ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ﴾ منهم ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ؛ يعني: بتخلية اللَّه إياهم؛ لغلبتهم ومعونته إياهم. ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ لعدوهم وعدوِّ الله؛ احتسابًا في صبره، وطلبًا لجزيل الثواب من ربه بالعون منه له والنصر عليه.

قال عطاء: كان الواحد لعشرة، ثم جُعِل الواحد باثنين لا ينبغي له أن يفرَّ منهما.

وقال ابن عباس: أمر اللَّه الرجل من المؤمنين أن يقاتل عشرة من الكفار، فشق ذلك على المؤمنين، ورحمهم اللَّه فقال: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ فأمر اللَّه الرجل من المؤمنين أن يقاتل رجلين من الكفار». وقال: «كان جعل على رجل من المسلمين عشرة من العدو يؤشبهم (يعني: يغريهم) بذلك؛ ليوطنوا أنفسهم على الغزو وأن اللَّه ناصرهم على العدو».

قال ابن جرير: «**وهذه الآية:** ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ وإن كان مخرجها مخرج الخبر فإن معناها الأمر، يدل على ذلك قوله: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ فلم يكن التخفيف إلا بعد التثقيل، ولو كان ثبوت العشرة منهم للمئة من عدوهم كان غير فرض عليهم قبل التخفيف وكان ندبًا لم يكن للتخفيف وجه؛ لأن التخفيف إنما هو ترخيص في ترك الواحد من المسلمين الثبوت للعشرة من العدو.

وعن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - قال: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مئتين، ومئة ألفًا، فخفف اللَّه عنهم، فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدو لهم لم يَنْبَغِ لهم أن يفروا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم».

عن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما -: «**كان فرض على المؤمنين أن يقاتل الرجل منهم عشرة من المشركين، فشق ذلك عليهم، فأنزل اللَّه التخفيف. وبمثل قوله قال قتادة، وابن أبي نجيح، ومجاهد، والضحاك.**

• ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾

قال ابن إسحاق: أي: لا يقاتلون على نية، ولا حق فيه، ولا معرفة لخير ولا شر».

﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفًا﴾ قراءة بعض المدنيين وبعض البصريين بضم الضاد، ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ بفتح الضاد قراءة عامة قرَّاء الكوفة، وهما قراءتان معروفتان، ولغتان مشهورتان بمعنى واحد، فبأيتهما قرأ القارئ فهو مصيب».

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾.

«حرضهم. وهم لعدوهم وعدو اللَّه كفء، وإن قل عددهم وكثر أعداؤهم وأعداء اللَّه حولهم:

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. فأما تعليل هذا التفاوت فهو تعليل مفاجئ عجيب، ولكنه صادق عميق؛ ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾..

فما صلة الفقه بالغلب في ظاهر الأمر؟ ولكنها صلة حقيقية، وصلة قوية..إن الفئة المؤمنة إنما تمتاز بأنها تعرف طريقها، وتفقه منهجها، وتدرك حقيقة وجودها وحقيقة غايتها.. إنها تفقه حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية؛ فتفقه أن الألوهية لا بد أن تنفرد وتستعلي، وأن العبودية يجب أن تكون لله وحده بلا شريك. وتفقه أنها هي ـ الأمة المسلمة ـ المهتدية بهدى الله، المنطلقة في الأرض بإذن الله؛ لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده؛ وأنها هي المستخلفة عن اللّه في الأرض؛ الممكنة فيها لا لتستعلي هي وتستمتع، ولكن لتعلي كلمة اللّه وتجاهد في سبيل الله، ولتعمر الأرض بالحق، وتحكم بين الناس بالقسط، وتقيم في الأرض مملكة اللّه التي تقوم على العدل بين الناس.. وكل ذلك فقه يسكب في قلوب العصبة المسلمة النور والثقة والقوة واليقين؛ ويدفع بها إلى الجهاد في سبيل اللّه في قوة وفي طمأنينة للعاقبة تضاعف القوة. بينما أعداؤها ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾. قلوبهم مغلقة. وبصائرهم مطموسة؛ وقوتهم كليلة عاجزة مهما تكن متفوقة ظاهرة. إنها قوة منقطعة معزولة عن الأصل الكبير!

وهذه النسبة .. (واحد لعشرة).. هي الأصل في ميزان القوى بين المؤمنين الذين يفقهون والكافرين الذين لا يفقهون.. وحتى في أضعف حالات المسلمين الصابرين فإن هذه النسبة هي: واحد لاثنين». اهـ. من الظلال.

* * *

٣٩ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج: ٧٨].

قال الطبري: «قال بعضهم معناه: وجاهدوا المشركين في سبيل اللَّه حق جهاده.

قال ابن عباس: وجاهدوا في اللَّه حق جهاده كما جاهدتم أول مرة.

وقال ابن عباس: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾: لا تخافوا في اللَّه لومة لائم.

قال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك قول من قال: عنى به الجهاد في سبيل الله؛ لأن المعروف من الجهاد ذلك، وهو الأغلب على قول القائل: جاهدت في الله. وحق الجهاد: هو استفراغ الطاقة فيه»(١).

قال ابن كثير في تفسيره (١٠/٩٩): «أي: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال ـ تعالَى ـ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقال القرطبي (٧/٤٤٩١): «قيل: عنى به جهاد الكفار. وقيل: هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر اللَّه به، والانتهاء عن كل ما نهى اللَّه عنه؛ أي: جاهدوا أنفسكم في طاعة اللَّه وردُّوها عن الهوى، وجاهدوا الشيطان في ردِّ وسوسته، والظلمةَ في رد ظلمهم، والكافرين في رد كفرهم».

قال ابن عطية: وقال مقاتل: وهذه الآية منسوخة بقوله ـ تعالَى ـ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، وكذا قال هبة الله: إن قوله: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾،

---

(١) تفسير الطبري (١٧/١٤٢).

وقوله في الآية: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ منسوخ بالتخفيف إلى الاستطاعة في هذه الأوامر.

ولا حاجة إلى تقدير النسخ، فإن هذا هو المراد من أول الحكم؛ لأن ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ ما ارتفع عنه الحرج.

وقال أبو جعفر النحّاس: وهذا مما لا يجوز أن يقع فيه نسخ؛ لأنه واجب على الإنسان».

قال رسول اللَّه ﷺ: «أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه»[1].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في الله»[2].

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾: قال الطبري: «هو اختاركم لدينه، واصطفاكم لحرب أعدائه والجهاد في سبيله».

قال ابن زيد: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾: هو هداكم.

وقال القرطبي (٤٤٩٢/٧): «أي: اختاركم للذب عن دينه والتزام أمره، وهذا تأكيد للأمر بالمجاهدة؛ أي: وجب عليكم أن تجاهدوا؛ لأن اللَّه اختاركم له».

«يجمع اللَّه في هذه الآية والآية السابقة لها المُنهاجَ الذي رسمه اللَّه لهذه الأمة، ويلخص تكاليفها التي ناطها بها، ويقرر مكانها الذي قدَّره لها، ويثبت جذورها في الماضي والحاضر والمستقبل متى استقامت على النهج الذي أراده لها الله؛ يبدأ بالركوع والسجود، وهما ركنا الصلاة، ويثني بالأمر العام وهو العبادة، ويختم بفعل الخير عامة، فإذا استعدت الأمة المسلمة بهذه العدَّة من الصلة باللَّه واستقامة الحياة، فاستقام ضميرها، واستقامت حياتها نهضت بالتبعة الشاقة.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ وهو تعبير شامل جامع دقيق، يصور

---

(١) **صحيح**: رواه ابن النجار عن أبي ذر، ورواه أبو نعيم، والديلمي، وَصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٤٩٦)، و«صحيح الجامع» رقم (١٠٩٩).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي، وابن حبان، وأحمد عن فضالة بن عُبيد، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» رقم (٥٤٩)، و«صحيح الجامع» رقم (٦٦٧٩)، **انظر**: الترغيب (١٥٠/٢).

تكليفًا ضخمًا يحتاج إلى تلك التعبئة وهذه الذخيرة وذلك الإعداد.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ .. فقد انتدبكم لهذه الأمانة الضخمة، واختاركم لها من بين عباده، ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ .. وإن هذا الاختيار يضخم التبعة، ولا يجعل هنالك مجالًا للتخلي عنها أو الفرار! وإنه لإكرام من اللَّه لهذه الأمة ينبغي أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء»[(١)].

❑ الترهيب من النكوص عن الجهاد وتركه وذمُّ من يتشاغل عنه

٤٠ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ **[التوبة: ٢٤]**.

قال ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/٦٩): «يقول ـ تبارك وتعالى ـ لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد للمتخلفين عن الهجرة إلى دار الإسلام، المقيمين بدار الشرك: إن كان المقام مع آبائكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وكانت أموال ﴿ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ يقول: اكتسبتموها، ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ بفراقكم بلدكم، ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ فسكنتموها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ من الهجرة إلى اللَّه ورسوله من دار الشرك، ومن ﴿جهاد في سبيله﴾؛ يعني: في نصرة دين اللَّه الذي ارتضاه، ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ فانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ﴾ بفتح مكة. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ واللَّه لا يوفق للخير الخارجين عن طاعته وفي معصيته».

قال الحافظ ابن كثير (٧/١٦٤، ١٦٥): «**أمر ـ تعَالَى ـ رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على اللَّه ورسوله وجهاد في سبيله، فقال:** ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾؛ أي: اكتسبتموها

---

(١) الظلال (٤/٢٤٤٦).

وحصَّلتموها. ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ﴾ ؛ أي تحبونها؛ لطيبها وحسنها؛ أي: إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ﴾ ؛ أي: فانتظروا ما يحلُّ بكم من عقابه ونكاله بكم، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ .

قال القرطبي (٤/٢٩٣٤، ٣٩٣٥): ﴿وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾ يقول: اكتسبتموها بمكة. وأصل الاقتراف اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره.

﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا﴾ قال ابن المبارك: هي البنات والأخوات إذا كسدت في البيت لا يجدن لهن خاطبًا. قال الشاعر:

كَسَدْنَ مِنَ الْفَقْرِ فِي قَوْمِهِنَّ ... وَقَدْ زَادَهُنَّ مَقَامِي كُسُودَا

﴿وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ﴾ ؛ أي: تعجبكم الإقامة فيها.

﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ صيغة أمر، ومعناه التهديد؛ يقول: انتظروا.

﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ ؛ قال الحسن: بعقوبة آجلة أو عاجلة.

﴿وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ دليل على فضل الجهاد، وإيثاره على راحة النفس وعلاقتها بالأهل والمال».

قال ابن عطية: «**في ضمن قوله:** ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ وعيد بيِّنٌ.

﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا﴾ بيِّنٌ في أنواع المال.

وقال ابن المبارك: الإشارة إلى البنات اللواتي لا يتزوجن لا يوجد لهن خاطب»[1] .

وقال ابن الجوزي: «فأما العشيرة، فهم الأقارب الأدنون. وروى أبو بكر عن عاصم: ﴿وَعَشِيرَاتُكُمْ﴾ على الجمع. قال أبو علي: وجهه أن كل واحد من المخاطبين له عشيرة، فإذا اجمعت قلت: عشيراتكم. وحجة من أفرد أن العشيرة

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (١٥٢/٨، ١٥٣) مكتبة ابن تيمية.

واقعة على الجمع، فاسْتُغْنِيَ بذلك عن جمعها.

وقال الأخفش: لا تكاد العرب تجمع عشيرة: عشيرات، إنما يجمعونها عشائر.

● **وفي قوله:** ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ **قولان:**

أحدها: أنه فتح مكة، قاله مجاهد والأكثرون، ومعنى الآية: إن كان المُقام في أهاليكم، وكانت الأموال التي اكتسبتموها، ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ لفراقكم بلدكم، ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ من الهجرة، فأقيموا غير مُثابين حتى تفتح مكة، فيسقط فرض الهجرة.

والثاني: أنه العقاب؛ قاله الحسن»(١).

هنا في هذه الآية «استعرض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ؛ ليضعها كلها في كفة، ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى: الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة (وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج)، والأموال، والتجارة (مطمع الفطرة ورغبتها)، والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذتها).. وفي الكفة الأخرى: حب الله ورسوله، وحب الجهاد في سبيله.. الجهاد بكل مقتضايته وبكل مشقاته.. الجهاد وما يتبعه من تعب ونصب، وما يتبعه من تضييق وحرمان، وما يتبعه من ألم وتضحية، وما يتبعه من جراح واستشهاد، وهو ـ بعد هذا كله ـ **«الجهاد في سبيل الله»** مجردًا من الصيت والذكر والظهور.. مجردًا من المباهاة، والفخر والخيلاء، مجردًا من إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشادتهم بصاحبه، وإلا فلا أجر عليه ولا ثواب.

وهذا التجرد لا يُطالب به الفرد وحده، إنما تُطالب به الجماعة المسلمة والدولة المسلمة، فما يجوز أن يكون هناك اعتبار ـ لعلاقة أو مصلحة ـ يرتفع على مقتضيات العقيدة في الله ومقتضيات الجهاد في سبيل الله.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٣/٤١٢، ٤١٣)، المكتب الإسلامي.

وما يكلف اللَّه الفئة المؤمنة هذا التكليف إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه - فاللَّه لا يكلف نفسًا إلا وسعها - وإنه لمن رحمة اللَّه بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال؛ وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد، لا تعدلها لذائذ الأرض كلها.. لذة الشعور بالاتصال بالله، ولذة الرجاء في رضوان الله، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط، والخلاص من ثقلة اللحم والدم، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء، فإذا غلبتها ثقلة الأرض ففي التطلع إلى الأفق، مما يجدد الرغبة الطامعة في الخلاص والفكاك»[1].

قال ابن القيم في هذه الآية: «وأما تقديمهم الأموال في تينك الآيتين فلحكمة باهرة، وهي أن «**براءة**» متضمنة لوعيد من كانت تلك الأشياء المذكورة فيها أحب إليه من الجهاد في سبيل الله، ومعلوم أن تصور المجاهد فراق أهله وآبائه وإخوانه وعشيرته تمنعه من الخروج عنهم أكثر مما يمنعه مفارقته ماله، فإنْ تصور مع هذا أن يقتل فيفارقهم فراق الدهر نفرت نفسه عن هذه أكثر وأكثر، ولا يكاد - عند هذا التصور - يخطر له مفارقة ماله، بل يغيب بمفارقة الأحباب عن مفارقة المال، فكان تقديم هذا الجنس أولى من تقديم المال.

وتأمل هذا الترتيب البديع في تقديم ما قدَّم، وتأخير ما أخَّر يطلعك على عظمة هذا الكلام وجلالته، فبدأ أولا بذكر أصول العبد، وهم: آباؤهم المتقدمون طبعًا وشرفًا ورتبة، وكان فخر القوم بآبائهم ومحاماتُهم عنهم أكثر من محاماتهم عن أنفسهم وأموالهم وحتى عن أبنائهم، ولهذا حملتهم محاماتهم عن آبائهم ومناضلتهم عنهم إلى أن احتملوا القتل وسبي الذرية - ولا يشهدون على آبائهم بالكفر والنقيصة ويرغبون عن دينهم؛ لما في ذلك من ازرائهم بهم. ثم ذكر الفروع، وهم: الأبناء؛ لأنهم يتلونهم في الرتبة، وهم أقرب أقاربهم إليهم، وأعلق بقلوبهم، وألصق بأكبادهم من الإخوان والعشيرة. ثم ذكر الإخوان، وهم:

---

(١) الظلال (٣/١٦١٥، ١٦١٦).

الكلالة، وحواشي النسب، فذكر الأصول أولًا، ثم الفروع ثانيًا، ثم الفطرة ثالثًا، ثم الأزواج رابعًا؛ لأن الزوجة أجنبية عنده، ويمكن أن يتعوض عنها بغيرها، وهي إنما تراد للشهوة، وأما الأقارب من الآباء والأبناء والإخوان فلا عوض عنهم، ويرادون للنصرة والدفاع، وذلك مقدم على مجرد الشهوة. ثم ذكر القرابة البعيدة «**خامسًا**»، وهي العشيرة وبنو العم، فإن عشائرهم كانوا بني عمتهم غالبًا، وإن كانوا أجانب فأولى بالتأخير. ثم انتقل إلى ذكر الأموال بعد الأقارب «**سادسًا**»، ووصفها بكونها مقترفة؛ أي: مكتسبة؛ لأن القلوب إلى ما اكتسبته من المال أميل، وله أحب، وبقدره أعرف؛ لما حصل له فيه من التعب والمشقة، بخلاف مال جاء عفوًا بلا كسب، من ميراث، أو هبة، أو وصية، فإن حفظه للأول ومراعاته له وحرصه على بقائه أعظم من الثاني، والحس شاهد بهذا، وحسبك به. ثم ذكر التجارة «**سابعًا**»؛ لأن محبة العبد للمال أعظم من محبته للتجارة التي يحصله بها، فالتجارة عنده وسيلة إلى المال المقترف، فقدَّم المال على التجارة تقديم الغايات على وسائلها، ثم وصف التجارة بكونها مما يخشى كسادها، وهذا يدل على شرفها وخطرها، وأنه قد بلغ قدرها إلا أنها مخوفة الكساد. ثم ذكر الأوطان «**ثامنًا**» آخر المراتب؛ لأن تعلق القلب بها دون تعلُّقه بسائر ما تقدم، فإن الأوطان تتشابه، وقد يقوم الوطن الثاني مقام الأول من كل وجه، ويكون خيرًا منه، فمنها عوض، وأما الآباء والأبناء والأقارب والعشائر فلا يتعوَّض منها بغيرها، فالقلب وإن كان يحنُّ إلى وطنه الأول فحنينه إلى آبائه وأبنائه وزوجاته أعظم، فمحبة الوطن آخر المراتب، وهذا هو الواقع إلا لعارض يترجح عنده إيثار البعيد على القريب فذلك جزئي لا كلي، فلا تناقض به، وأما عند عدم العوارض فهذا هو الترتيب المناسب والواقع»(١).

قال القشيري في هذه الآية: «**ليس هذا تخييرًا لهم، ولا إذنًا في إيثار الحظوظ**

---

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم (١/٧٥، ٧٦).

على الحقوق، ولكنه غاية التحذير والزجر عن إيثار شيء من الحظوظ على الدين، ومرور الأيام حكم عدل يكشِف في العاقبة عن أسرار التقدير، قال قائلهم:

سَوْفَ تَرَى إِذَا انْجَلَى الْغُبَارُ أَفَرَسٌ تَحْتَكَ أَمْ حِمَارُ؟

ويقال: علامة الصدق في التوحيد قطع العلاقات، ومفارقة العادات، وهجران المعهودات، والاكتفاء بالله في دوام الحالات.

ويقال: مَنْ كسدت سوقُ دينه كَسَتْ أسواق حظوظه، وما لم تَخْلُ منك منازل الحظوظ لا تعمرُ بك مَشَاهِدُ الحقوق»[1].

٤١- وقال - تعالَى -: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

مصائر الكانزين للذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، والسياق يمهد لغزوة العسرة حينذاك.

تنتهي الآية بإجمال وإبهام في العذاب، ثم يأخذ في التفصيل بعد الإجمال: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾، ثم هاهي ذي حميت واحمرت، وها هي ذي مُعدَّة مهيأة، ويبدأ العذاب الأليم، ها هي ذي الجباه تُكوى.. لقد انتهت عملية الكي في الجباه، فليُداروا على الجنوب.. ها هي ذي الجنوب تُكوَى.. لقد انتهت هذه، فليداروا على الظهور.. ها هي ذي الظهور تُكوى ـ لقد انتهى هذا اللون من العذاب، فليتبعه الترذيل والتأنيب: ﴿هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ هذا هو بذاته

(١) لطائف الإشارات، للقشيري (١٨/٢)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الذي كنزتموه للذة، فانقلب أداة لهذا اللون الأليم من العذاب ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾!.

ذوقوه بذاته، فهو هو الذي تذوقون منه مسَّه للجنوب والظهور والجباه! ألا إنه مشهد مفزع مروع، يعرض في تفصيل وتطويل وأناة.

قال القرطبي (٥/٢٩٦٧): «ظاهر الآيةِ تعليق الوعيد على من كنز ولا ينفق في سبيل الله، ويتعرَّض للواجب وغيره؛ غير أن صفة الكنز لا ينبغي أن تكون معتبرة؛ فإن من لم يكنز ومنع الإنفاق في سبيل اللَّه فلا بد وأن يكون كذلك، إلا أن الذي يخبأ تحت الأرض هو الذي يُمنع إنفاقه في الواجبات عُرْفًا، فلذلك خُصَّ الوعيد به. واللَّه أعلم» اهـ.

٤٢- قال - تعالَى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩].

﴿ٱنفِرُواْ﴾؛ أي: اخرجوا من منازلكم إلى مغزاكم. وأصل النفر: مفارقة مكان إلى مكان آخر لأمرٍ هاجه على ذلك، ومنه: نفور الدابة. غير أنه يُقال: من النفر إلى الغزو. ونفر فلان إلى ثغر كذا ينفر نفْرًا ونفيرًا».

قال ابن جرير (١٠/٩٤): «فمعنى الكلام: ما لكم أيها المؤمنون إذا قيل لكم اخرجوا غزاة في جهاد أعداء اللَّه تثاقلتم إلى لزوم أرضكم ومساكنكم والجلوس فيها، ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾؟ أرضيتم بحظ الدنيا والدعة فيها عوضًا من نعيم الآخرة وما عند اللَّه للمتقين في جناته. ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: فما الذي يتمتع به المتمتعون في الدنيا من عيشها ولذاتها في نعيم الآخرة والكرامة التي عند اللَّه لأوليائه وأهل طاعته إلا قليل

يسير؛ يقول لهم: فاطلبوا أيها المؤمنون نعيم الآخرة وترف الكرامة التي عند اللَّه لأوليائه بطاعته والمسارعة إلى الإجابة إلى أمره بالنفير لمجاهدة عدوه.

قال مجاهد: أمروا بغزوة «**تبوك**» بعد الفتح، وبعد الطائف، وبعد حُنين أُمِروا بالنفير في الصيف حين خرفت النخل وطابت الثمار واشتهوا الظلال، وشق عليهم المخرج فقالوا: منا الثقيل وذو الحاجة والضيعة والشغل والمنتشر به أمره في ذلك كله، فأنزل الله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾». اهـ.

قال القرطبي: «﴿مَا لَكُمْ﴾»: «**ما**» حرف استفهام معناه التقرير والتوبيخ، التقدير: أي شيء يمنعكم عن كذا؛ ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتابًا على تخلُّف مَن تخلَّف عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة «**تبوك**».

قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: اثاقلتم إلى نعيم الأرض، وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج، وهو نحو من أخلد إلى الأرض. وأصله: تثاقلتم، أُدغمت التاء في الثاء؛ لقربها منها، واحتاجت إلى ألف الوصل؛ لتصل إلى النطق بالساكن، ومثله: ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾ [الأعراف: ٣٨]، و﴿ادَّارأتم﴾ [البقرة: ٧٢]، و﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾ [النمل: ٤٧]، و﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤].

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: بدلًا؛ لتقدير: أرضيتم بنعيم الدنيا بدلًا من نعيم الآخرة. فـ«**مِن**» تتضمن معنى البدل؛ كقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزخرف: ٦٠]؛ أي: بدلًا منكم.

عاتبهم اللَّه على إيثار الراحة في الدنيا على الراحة في الآخرة؛ إذ لا تنال راحة الآخرة إلا بنَصَبِ الدنيا. قال ﷺ لعائشة وقد طافت راكبة: «**أجرك على قدر نَصَبِكِ**» [خرَّجه البخاري].

قال ابن كثير في تفسيره (٧/٢٠٣، ٢٠٤): «هذا شروع في عتاب مَن تخلَّف

عن رسول الله ﷺ في غزوة «**تبوك**»، حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر حمَّارَة القيظ [1]، فقال ـ تعَالَى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا دُعيتم إلى الجهاد في سبيل الله. ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تكاسلتم، وملتم إلى المُقام في الدعة والخفض وطيب الثمار. ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: ما لكم فعلتم هكذا؟ أرضيً منكم بالدنيا بدلًا من الآخرة؟

ثم زهَّد ـ تبارك وتعالى ـ في الدنيا ورغَّب في الآخرة، فقال: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع؟**» وأشار بالسبابة [2].

فالدنيا ما مضى منها، وما بقي منها عند الله قليل.

عن الأعمش في الآية: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: كزاد الراكب. لما حضرت عبدالعزيز بن مروان الوفاة قال: ائتوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه، فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال: أَمَا لي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولّي ظهره فبكى وهو يقول: أُفٍ لكِ من دار، إنْ كان كثيرك لقليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك لفي غرور».

ثم توعد على ترك الجهاد، فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حيًّا من العرب فتثاقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ أي: لنصرة نبيه وإقامة دينه، كما قال ـ تعَالَى ـ:

---

(١) حمَّارَة القيظ: شدة الحر.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/٢٢٨)، ومسلم (٢٨٥٨).

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٠].

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾؛ أي: ولا تضرُّوا اللَّه شيئًا بتوليكم عن الجهاد، ونكولكم وتثاقلكم عنه.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

وقد قيل: إن هذه الآية، وقوله: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾: إنهن منسوخات بقوله ـ تعالَى ـ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾؛ روي هذا عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، وردَّه ابن جرير وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول اللَّه ﷺ إلى الجهاد، فتعينَّ عليهم ذلك، فلو تركوه لعوقبوا عليه، وهذا له اتجاه، واللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بالصواب». اهـ.

قال القرطبي: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا﴾: هذا تهديد شديد، ووعيد مؤكد في ترك النفير.

والتثاقل عن الجهاد مع إظهار الكراهة حرام على كل أحد. فأما من غير كراهة فمن عيَّنه النبي ﷺ حرُم عليه التثاقل، وإن أمن منهما فالفرض فرض كفاية؛ ذكره القشيري.

وقد قيل: إن المراد بهذه الآية وجوب النفير عند الحاجة وظهور الكفرة واشتداد شوكتهم.

وظاهر الآية يدل على أن ذلك على وجه الاستدعاء، فعلى هذا لا يتَّجه الحمل على وقت ظهور المشركين؛ فإن وجوب ذلك لا يختص بالاستدعاء؛ لأنه متعينٌ. وإذا ثبت ذلك فالاستدعاء والاستنفار يبعد أن يكون موجبًا شيئًا لم يجب من قبل، إلا أن الإمام إذا عينَّ قومًا وندبهم إلى الجهاد لم يكن لهم أن يتثاقلوا عند التعيين،

ويصير بتعيينه فرضًا على من عيَّنه، لا لمكان الجهاد، ولكن لطاعة الإمام. والله أعلم[١].

ثم قال اللَّه ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ الآية.

قال القرطبي: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ يقول: تُعينوه بالنفر معه في غزوة «**تبوك**»، عاتبهم اللَّه بعد انصراف نبيه ﷺ من «**تبوك**»، والمعنى: إن تركتم نصره فاللَّه يتكفَّل به، إذ قد نصره اللَّه في مواطن القلة، وأظهره على عدوه بالغلبة والعزَّة.

«أرضيتم نزر الدنيا على خطير الآخرة وحظها الأسعد؟ ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ﴾ شرط وجواب. وقوله: ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ لفظ عام يدخل تحته أنواع عذاب الدنيا والآخرة، والتهديد بعمومه أشد تخويفًا»[٢].

قال القشيري في هاتين الآيتين: «عاتبهم على ترك البدار عند توجيه الأمر، وانتهاز فرصة الرخصة. وأمرهم بالجد في العزم، والقصد في الفعل، فالجنوح إلى التكاسل، والاسترواح إلى التثاقل أمارات ضعف الإيمان، إذ الإيمان غريم مُلازِم لا يرضى من العبد بغير ممارسة الأشق، وملابسة الأحق.

قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهل يجمُل بالعابد أن يختار دنياه على عُقباه؟

وهل يحسن بالعارف أن يُؤثر هواه على رضا مولاه؟

أَيَجْمُلُ بِالْأَحْبَابِ مَا قَدْ فَعَلُوا مَضَوا وَانْصَرَفُوا يَا لَيْتَهُمْ قَفَلُوا

إن غيبة الزاهد عن الباب تعدلِ شهورًا، وغيبة لحظةٍ للعارف عن البساط تعدل دهورًا.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

العذاب الأليم: إذا أعرض العبد عن الطاعة ألا يبعث وراءه من جنود التوفيق ما

(١) تفسير القرطبي (٥/٢٩٨٠، ٢٩٨١).
(٢) المحرر الوجيز (٨/١٨٤).

يَرُدُّه إلى الباب.

العذاب الأليم: أن يسلبه حلاوة النجوى إذا آب.

العذاب الأليم: الصدود يوم الورود.

العذاب الأليم: الوعيد بالفِراق، فأما نفس الفِراق فهو تمام التلف.

وَزَعَمْتَ أَنَّ الْبَيْنَ مِنْكَ غَدًا هَدِّدْ بِذَلِكَ مَنْ يَعِيشُ غَدَا

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يصرف ما كان من إقبال عليه إلى غيره من أشكاله، وليس كل من حفر بئرًا يشرب من معينها.

تَسْقِي رَيَاحِينَ الْحِفَاظِ مَدَامِعِي وَسِوَايَ فِي رَوْضِ التَّوَاصُلِ يَرْتَعُ[1]

عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «**من لم يَغْزُ، أو يجهز غازيًا، أو يَخْلُف غازيًا في أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة**»[2].

وهل يعدل عاقل عن الجهاد وقد روى أبو فاطمة رضي الله عنه قال: يا رسول الله! أخبرني بعمل أستقيم عليه وأعْمله. قال: «**عليك بالجهاد في سبيل الله فإنه لا مِثْل له**»[3].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾.

إنها ثقلة الأرض، ومطامع الأرض، وتصورات الأرض.. ثقلة الخوف على الحياة، والخوف على المال، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع.. ثقلة الدعة

---

(١) لطائف الإشارات (٢/٢٥، ٢٦).

(٢) **إسناده حسن**: أخرجه ابن أبي عاصم في «الجهاد» واللفظ له (٣١٢/١) (٩٩)، وشمس الدين المقدسي في «فضل الجهاد والمجاهدين»، والطبراني في «مسند الشاميين» وفي «المعجم الكبير» (٨/ ٢١١) (٧٧٤٧)، وأخرجه أبو داود (٢٥٠٣)، وابن ماجه (٢٧٦٢)، والدارمي في «مسنده» (٢٤٢٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤٨/٩).

(٣) **إسناده حسن لغيره**: أخرجه ابن أبي عاصم في «الجهاد» (١٩٩/١) حديث (٤١)، والطبراني في «مسند الشاميين» (ق/٦٧٠)، وفي «المعجم الكبير» (٣٢١/٢٢) (٨٠٩).

والراحة والاستقرار. ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب... ثقلة اللحم والدم والتراب.. والتعبير يلقي كل هذه الظلال بجرس ألفاظه: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل. ويلقيها بمعنى ألفاظ: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾.. وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق.

إن النفرة للجهاد في سبيل اللَّه انطلاق من قيد الأرض، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم، وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان، وتغليب لعنصر الشوق المجنح في كيانه على عنصر القيد والضرورة؛ وتطلع إلى الخلود الممتد، وخلاص من الفناء المحدود.

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وما يحجم ذو عقيدة في اللَّه عن النفرة للجهاد في سبيله، إلا وفي هذه العقيدة دخن، وفي إيمان صاحبها بها وهن. لذلك يقول الرسول ﷺ: «**من مات ولم يغزُ ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق**». فالنفاق ـ وهو دخل في العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال ـ هو الذي يقعد ـ بمن يزعم أنه على عقيدة ـ عن الجهاد في سبيل الله؛ خشية الموت أو الفقر، والآجال بيد الله، والرزق من عند الله. وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل.

ومن ثم يتوجه الخطاب إليهم بالتهديد: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

والخطاب لقوم معينين في موقف معين. ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في الله. والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده، فهو كذلك عذاب الدنيا. عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح، والغلبة عليهم

للأعداء، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين؛ وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد؛ ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء.

وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل، فدفعت ـ مرغمة صاغرة لأعدائها ـ أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

يقومون على العقيدة، ويؤدون ثمن العزة، ويستعلون على أعداء الله.

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾.

ولا يقام لكم وزن، ولا تقدمون أو تؤخرون في الحساب.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لا يعجزه أن يذهب بكم، ويستبدل قومًا غيركم، ويغفلكم من التقدير والحساب!

إن الاستعلاء على ثقلة الأرض وعلى ضعف النفس، إثبات للوجود الإنساني الكريم، فهو حياة بالمعنى العلوي للحياة.

وإن التثاقل إلى الأرض والاستسلام للخوف إعدام للوجود الإنساني الكريم، فهو فناء في ميزان الله وفي حساب الروح المميزة للإنسان.

ويضرب الله لهم المثل من الواقع التاريخي الذي يعلمونه، على نصرة الله لرسوله بلا عون منهم ولا ولاء، والنصر من الله يؤتيه من يشاء:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾

ذلك مثل على نصرة اللَّه لرسوله ولكلمته؛ واللَّه قادر على أن يعيده على أيدي قوم آخرين غير الذين يتثاقلون ويتباطئون. وهو مثل من الواقع إن كانوا في حاجة بعد قول اللَّه إلى دليل[1].

٤٣- قال - تعَالَى -: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢)﴾ [التوبة: **٤٢**].

قال ابن كثير في تفسيره (٧/ ٢١٠): «**يقول - تعَالَى - موبخًا للذين تخلَّفوا عن النبي** ﷺ في غزوة «**تبوك**»، وقعدوا عن النبي ﷺ بعدما استأذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك، فقال ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾؛ قال ابن عباس: غنيمة قريبة. ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾؛ أي: قريبًا أيضًا. ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾؛ أي: لكانوا جاءوا معك لذلك. ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾؛ أي: المسافة إلى الشام. ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾؛ أي: لكم إذا رجعتم إليهم. ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾؛ أي: لو لم تكن لنا أعذار لخرجنا معكم. ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

قال القرطبي: (الشُّقة): حكى أبو عبيدة وغيره أن الشقة: السفر إلى أرض بعيدة. يقال: منه شُقَّة شاقة، والمراد بذلك كله غزوة «**تبوك**»، وحكى الكسائي أنه يُقال شُقَّة وشِقَّة. وقال الجوهري: الشُّقة بالضم: من الثياب، والشقة أيضًا السفر البعيد، وربما قالوه بالكسر.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾؛ أي: لو كان لنا سعة في الظهر والمال[2].

قال الطبري (١٠/ ٩٩): «قال قتادة: إنهم يستطيعون الخروج، ولكن كان تبطئة من عند أنفسهم والشيطان، وزهادة في الخير». اهـ.

---

(١) الظلال (٣/ ١٦٥٥، ١٦٥٦، ١٦٥٧).

(٢) تفسير القرطبي (٥/ ٢٩٩٣).

إذا رأيت الرجل يتبع الرخص ويجنح إلى الكسل، ويتعلل بالتأويلات، فاعلم أنه منصرف عن الطريق، متخلف عن السلوك، وأنشدوا:

وَكَـذَا الْمَلُولُ إِذَا أَرَادَ قَطِيـعَـةً مَلَّ الْوِصَالَ وَقَالَ كَانَ وَكَانَا

ومَن جَدَّ في الطلب لم يُعرِّج في أوطان الفشل، ويواصل السير والسُّرَى، ولا يحتشم من مقاساة الكد والعناء.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾:

يوجبون لأنفسهم الهلاك والعطب بحلفهم بالله كاذبين، ويورثونها سخط الله، ويكسبونها أليم عقابه.

يمين المتعلل والمتأول يمين فاجرة تشهد بكذبها عيون الفراسة، وتنفر منها القلوب، فلا تجد من القلوب محلًّا.

قالوا هذا وعندهم الأموال مما يحتاجه الغازي في غزوه، وصحة الأبدان وقوى الأجسام، ولكنها الدعة والراحة.

«لو كان الأمر أمر عرض قريب من أعراض هذه الأرض، أو سفر قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك، ولكنها الشقة البعيدة، التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة. ولكنه الجهد الخطر الذي تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب المنخوبة، ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة.

وإنه لنموذج مكروه في البشرية ذلك الذي ترسمه تلك الكلمات الخالدة: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾، فكثيرون هم أولئك الذي يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة.. كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق، فيتخلفون عن الركب، ويميلون إلى عرض تافه أو مطلب رخيص. كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان ومكان، فما هي قلة عارضة، إنما هي النموذج المكرور، وإنهم ليعيشون على حاشية الحياة، وإن خُيِّل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب، واجتنبوا الثمن الغالي، فالثمن القليل لا يشتري سوى التافه

الرخيص.

﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ فهو الكذب المصاحب للضعف أبدًا.

وما يكذب إلا الضعفاء - أجل ما يكذب إلا ضعيف، ولو بدا في صورة الأقوياء الجبارين في بعض الأحايين. فالقوي يواجه والضعيف يحاور - وما تتخلَّف هذه القاعدة في موقف من المواقف ولا في يوم من الأيام.

﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ : بهذا الحلف وبهذا الكذب، الذي يخيل إليهم أنه سبيل النجاة عند الناس، واللَّه يعلم الحق، ويكشفه للناس، فيهلك الكاذب في الدنيا بكذبه، ويهلك في الآخرة يوم لا يُجدي النكران.

***

٤٤- قال - تعالَى -: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة: **٤٤، ٤٥**].

قال ابن جرير الطبري: «هذا إعلام من اللَّه نبيه ﷺ سيما المنافقين؛ أن من علاماتهم التي يُعرفـون بها تخلفهـم عن الجهاد في سبيل اللَّه باستئذانهم رسول اللَّه ﷺ في تركهم الخروج معه إذا استنفروا بالمعاذير الكاذبة، فأما الذي يصدق باللَّه ويقرُّ بوحدانيته وبالبعث والدار الآخرة والثواب والعقاب فإنه لا يستأذنك في ترك الغزو وجهاد أعداء اللَّه بماله ونفسه». اهـ.

«هذه هي القاعدة التي لا تُخطئ. فالذين يؤمنون بالله، ويعتقدون بيوم الجزاء، لا ينتظرون أن يُؤذن لهم في أداء فريضة الجهاد، ولا يتلكئون في تلبية داعي النفرة في سبيل اللَّه بالأموال والأرواح، بل يسارعون إليها خفافًا وثقالًا كما أمرهم الله؛

طاعةً لأمره، ويقينًا بلقائه، وثقة بجزائه، وابتغاءً لرضاه، وإنهم ليتطوعون تطوعًا فلا يحتاجون إلى من يستحثهم، فضلًا عن الإذن لهم، إنما يستأذن أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلكئون ويتلمسون المعاذير، لعل عائقًا من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها، وهم يرتابون فيها ويترددون.

إن الطريق إلى الله واضحة مستقيمة، فما يتردد ويتلكأ إلا الذي لا يعرف الطريق، أو الذي يعرفها ويتنكبها؛ اتقاءً لمتاعب الطريق».

هؤلاء الذين يُقال لهم: ﴿ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ ، وتخلَّفوا مع العجائز والنساء والأطفال الذين لا يستطيعون الغزو ولا ينبعثون للجهاد، فهذا مكانكم اللائق بالهمم الساقطة والقلوب المرتابة والنفوس الخاوية من اليقين.

قلوب حائرة تبث الخور والضعف في الصفوف لو خرجت للقتال.

ولله در القائل: «المخلص في عقده غيرُ مؤثرٍ شيئًا على أمره، ولا يدّخر مستطاعًا في استفراغ وُسْعِه، وبذل جهده، ومقاساة كَدِّه، واستعمال جِدِّه».

أما «من رام عن عهدة الإلزام خروجًا انتهز للتأخير والتخلف فرصة لعدم إيمانه وتصديقه، ولاستمكان الريبة من قلبه وسره. أولئك الذين يتقلَّبون في ريبهم، ويترددون في شكهم.

لو صدقوا في الطاعة لاستجابوا ببذل الوسع والطاقة، ولكن سقمت إرادتهم، فحصلت دون الخروج بلادتهم، وكذلك قيل: لو صحَّ منك الهوى أُرشِدتَ للحيل.

﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾

٤٥- قال - تعالى -: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٩﴾ [التوبة: ٤٩].

قال ابن كثير (٧/٢١٣، ٢١٤): «يقول الله - تعالى -: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: ﴿ٱئْذَن لِّى﴾ في القعود، ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم. قال الله - تعالى -: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾؛ أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا، كما قال محمد بن إسحاق، والزهري، ويزيد بن رومان[1] قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم، وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة: «**هل لك ياجد العام في جلاد بني الأصفر؟**» فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «**قد أذِنت لك**».

ففي الجد بن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾.

قال ابن عباس، مجاهد، وغير واحد: وإنه إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم، بيَّن الله أن الذي هربوا منه - بزعمهم - سقطوا فيه بفعلهم، وكذلك المتجلد بما يهواه متطوِّح في وادي بلواه، وسيلقى في الآخرة من الهوان ما يغني عن الحاجة والبرهان.

وعلى الطرف الآخر التقى قول المؤمنين الموقنين الصادقين: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢].

---

(١) تفسير الطبري (١٤/٢٨٧).

٤٦- قال - تعالَى -: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: ٥١، ٥٢].

قال ابن جرير (١٠/١٠٥): «قل يا محمد لهؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عنك: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ﴾ أيها المرتابون في ربهم ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ في اللوح المحفوظ، وقضاه علينا. ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾: هو ناصرنا على أعدائه. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم إن يتوكلوا عليه، ولم يرجوا النصر من عند غيره، ولم يخالفوا شيئًا غيره - يكفهم أمورهم، وينصرهم على من بغاهم وكادهم».

هذه مقالة الذين امتلأت قلوبهم بالتسليم لله، والرضا بقدره. والمسلم الصادق يبذل جهده، ويُقْدِمُ لا يخشى؛ اعتقادًا بأن ما يصيبه من خير أو شر معقود بإرادة الله، وأن الله ناصر له ومعين.

والمؤمن لا تلحقه شماتة عدوه؛ لأنه ليس يرى إلا مراد وليه، فهو يتحقق أن ما يناله مراد مولاه، فيسقط عن قلبه ما يهواه، ويستقبله بروْح رضاه، فَيَعْذُب عنده ما كان يصعبُ من بلواه.

إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمُ أَلَمُ

وشهود جريان التقدير يُخفِّف على العبد كل عسير. والله مولاهم، وله - سبحانه - أن يفعل ما يريد؛ لأنه تصرفُ مالكِ الأعيان في مُلْكِه، فهو يُبدي ويُجري ما يريد بحق حكمه. وعباده يتوكلون عليه، وأول التوكل الثقة بوعده، ثم الرضا باختياره، ثم نسيان أمورك بما يغلب على قلبك من أذكاره.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾:

«قل: هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخَلَّتين اللتين هما أحسن من غيرهما؛ إما ظفرًا بالعدو وفتحًا لنا بغلَبِنَا لهم، ففيها الأجر والغنيمة والسلامة، وإمَّا قتلًا من عدونا لنا،

ففيه الشهادة والفوز بالجنة والنجاة من النار، وكلتاهما مما يُحَبُّ ولا يُكْرَهُ»[١] .

إن كان من شأن المؤمنين وقوع الدائرة عليهم في القتال، أو أن القتل ينالهم، فأي واحد من الأمرين ينالهم فهو لهم من اللَّه نعمة؛ لأنهم إن ظفروا بعدوهم فنصر وغنيمة، وعزٌّ للدين ورفعة، وإنْ قُتِلوا فشهادة ورحمة، ورضوان من الله وزلفى. وإن كان الذي يصيبهم في الدنيا هزيمة ونكبة، فذلك موجب للأجر والمثوبة، فإذًا لن يستقبلهم إلا ما هو حُسنى ونعمة».

في كلا الحالتين يصاحبهم رضا اللَّه عنهم ورضاهم عنهم. رضاهم باللَّه حظًّا ونصيبًا، ربًّا وإلهاً ومعبودهم. إن لحظةَ اتصالٍ باللَّه لحظةُ شهودٍ لجلاله، لحظة انطلاق من حبسة هذه الأمشاج ومن ثقلة هذه الأرض وهمومها القريبة، لحظة تنبثق فيها في أعماق القلب البشري شعاعة من ذلك النور الذي لا تدركه الأبصار، لحظة إشراق تنير فيها حنايا الروح بقبس من روح الله.

إن لحظة واحدة من هذه اللحظات التي تتفق للندرة القليلة من البشر في ومضة صفاء، ليتضاءل إلى جوارها كل متاع، وكل رجاء. فكيف برضوان من اللَّه يغمر هذه الأرواح، وتستشعره بدون انقطاع.

❑ فَرَحُ المخلفين بمقعدهم خلاف رسول الله، وفَرح المؤمنين بالجهاد والشهادة في سبيل الله:

أَفمن رغِب إلى اللَّه كمن رغب عن الله؟ أفمن بقي مع اللَّه كمن بقي عن الله؟ لا يستويان، ولا يلتقيان.

٤٧- قال - تعالَى -: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ **[التوبة: ٨١]**.

---

(١) تفسير الطبري (١٠/١٠٥).

قال ابن جرير (١٠/١٣٩): «فرح الذين خلَّفهم اللَّه عن الغزو - مع رسوله والمؤمنين به وجهاد أعدائه - بمقعدهم على الخلاف لرسول اللَّه ﷺ، وكره هؤلاء المُخَلَّفون أن يغزو الكفار بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله؛ لينصروه؛ ميلًا إلى الدعة والخفض، وإيثارًا للراحة على التعب والمشقة، وشحًّا بالمال أن ينفقوه في طاعة الله. وقال المنافقون بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحرِّ. قل: نار جهنم - التي أعدها اللَّه - أشد حرًّا من هذا الحرِّ الذي تتواصون بينكم أن لا تنفروا فيه، لو كانوا يفقهون عن اللَّه وعظه، ويتدبرون آي كتابه».

﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

«فليضحكوا فرحين قليلًا في هذه الدنيا الفانية بمقعدهم خلاف رسول اللَّه ولهوهم عن طاعة ربهم، فإنهم سيبكون طويلًا في جهنم مكان ضحكهم القليل؛ جزاءً على معصيتهم، وبما كانوا يجترحون من الذنوب».

إذا صاروا إلى الآخرة بكوا بكاءً لا ينقطع.

فليضحكوا قليلًا في الدنيا، وليبكوا كثيرًا في الآخرة؛ قاله الربيع بن خيثم، والحسن، وقتادة.

﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾؛ أي: بقعودهم. قَعَدَ قُعُودًا ومَقْعَدًا؛ أي: جلس. والمخلَّف: المتروك. أي: خلفهم اللَّه وثبطهم، أو خلفهم رسول اللَّه والمؤمنون لما علموا تثاقلهم عن الجهاد.

﴿خِلَٰفَ﴾: مصدر من قول القائل: خَالَفَ فُلَانٌ فُلَانًا فهو يخالفه خِلَافًا، وليس مصدرًا من خَلَفَهُ؛ لأن مصدر خَلَفَهُ خَلْف لا خِلَاف.

«استحوذ عليهم سرورهم بتخلفهم، ولم يعلموا أن ثبورهم في تأخرهم، فنزع اللَّه الراحة بما عاقبهم، وسيصلون سعيرًا في الآخرة بما قدَّموه من نفاقهم، وسوف يتحسرون، وَلَاتَ حِينَ تَحَسُّرٍ.

بدَّل اللَّه مسرَّتهم بحسرة، وفرحتهم بترْحة، وراحتهم بعَبْرَة، حتى يكثر

بكاؤهم في العتبى كما كثر ضحكهم في الدنيا.

هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض.. ثقلة الحرص على الراحة، والشح بالنفقة، وقعد بهم ضعف الهمة وهزال النخوة، وخواء القلب من الإيمان.

هؤلاء المخلفون. والتعبير يلقي ظل الإهمال، كما لو كانوا متاعًا يُخلَّف أو هَمَلًا يُترك. فرحوا بالسلامة والراحة خلاف رسول الله، وتركوا المجاهدين يلاقون الحرَّ والجهد، وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال!

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾: وهي قولة المسترخي الناعم، الذي لا يصلح لشيء مما يصلح الرجال.

إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة، وطراوة الإرادة، وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب وينفرون من الجهد، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز، وهم يتساقطون إعياءً خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الجهاد، ولكن هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك؛ لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان، وأنه ألذُّ وأجمل من القعود والتخلُّف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال.

والنص يرد عليهم بالتهكم المنطوي على الحقيقة: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾: إن كانوا يشفقون من حرِّ الأرض، ويؤثرون الراحة المسترخية في الظلال، فكيف بهم في حر جهنم وهي أشد حرًّا وأطول أمدًا؟

إما جهاد في سبيل اللَّه فترة محدودة في حرِّ الأرض، وإما انصراح في جهنم لا يعلم مداه إلا الله.

هؤلاء الذين آثروا الراحة على الجهد، وتخلَّفوا عن الرَّكب أول مرة. هؤلاء لا يصلحون لكفاح، ولا يُرْجون لجهاد.. بل ولا يصلحون لشَرَفِهِ.

إن الجهاد يحتاج إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة، تصمد في الطريق

الشاق الطويل.. إن الجهاد عبء لا ينهض به إلَّا من هم له أهل، لا هؤلاء الذين تعلَّلوا إلى السَّعة، وركنوا إلى اختيار الدَّعة، واحتالوا في موجبات التخلُّف، الذين خصَّهم اللَّه بخذلانه، وصرف قلوبهم عن ابتغاء رضوانه.

بعدوا عن بساط العبادة فاستطابوا الدَّعة، ورضوا بالتعريج في منازل الفرقة، ولو أنهم رجعوا إلى اللَّه بصدق التوبة والندم لقابلهم بالفضل والكرم.

٤٨ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة: ٨٦، ٨٧].

﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ﴾: أهل الغنى.

﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾: من يقعد في منزله مع النساء، وضعفاء الناس، ومرضاهم، والصبيان، وأصحاب الأعذار.

والخوالف جمع خَالِفَة، وقد يُقال للرجل: خَالِفَةٌ وخَالِفٌ ـ أيضًا ـ إذا كان غير نجيب. يُقال: فُلَانٌ خَالِفَةُ أَهْلِهِ، إذا كان دونهم.

قال النحاس: وأصله من: خَلَفَ اللبنُ يَخْلُفُ إذا حَمُضَ من طول مكثه. وخَلَفَ فمُ الصائمِ إذا تغيَّر ريحه.

«إذا قيل لهم: آمنوا بالله، وجاهدوا مع رسوله استأذنك أهل الغنى منهم في التخلف عن الغزو والخروج معك، ورضوا أن يكونوا في منازلهم؛ كالنساء اللواتي ليس عليهن فرض الجهاد، فهن قعود في منازلهن وبيوتهن».

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة: ٨٦ ـ ٨٩].

إنهما طبيعتان.. طبيعة النفاق والضعف والاستخدام، وطبيعة الإيمان والقوة والبلاء. وإنهما خطتان.. خطة الالتواء والتخلف والرضى بالدون، وخطة الاستقامة والبذل والكرامة.

فإذا أنزلت سورة تأمر بالجهاد جاء أولوا الطول، الذين يملكون وسائل الجهاد والبذل، جاءوا لا ليتقدموا الصفوف كما تقتضيهم المقدرة التي وهبها اللَّه لهم، وشكر النعمة التي أعطاها اللَّه إياهم، ولكن ليتخاذلوا ويعتذروا ويطلبوا أن يقعدوا مع النساء، لا يذودون عن حرمة، ولا يدفعون عن سكن. دون أن يستشعروا ما في هذه القعدة الذليلة من صغار وهوان، ما دام فيها السلامة، وطلاب السلامة لا يحسون العار، فالسلامة هدف الراضين بالدون.

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾.

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

ولو كانوا يفقهون لأدركوا ما في الجهاد من قوة وكرامة وبقاء كريم، وما في التخلف من ضعف ومهانة وفناء ذميم.

«إن للذل ضريبة، كما أن للكرامة ضريبة. وإن ضريبة الذل لأفدح في كثير من الأحايين. وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق، فتختار الذل والمهانة؛ هربًا من هذه التكاليف الثقال، فتعيش عيشة تافهة رخيصة، مفزعة قلقة، تخاف من ظلها، وتفرق من صداها، يحسبون كل صيحة عليهم، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة.. هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة. إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة. يؤدونها من نفوسهم، ويؤدونها من أقدارهم، ويؤدونها من سمعتهم، ويؤدونها من اطمئنانهم، وكثيرًا ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم، وهم لا يشعرون».

ومن هؤلاء.. أولئك الذين ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ .. وهم طراز آخر غير ذلك الطراز.. ﴿جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ﴾ .. فنهضوا بتكاليف العقيدة، وأدوا واجب الإيمان؛ وعملوا للعزة التي لا تنال بالقعود ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ﴾ .. خيرات الدنيا والآخرة؛ في الدنيا لهم العزة، ولهم الكرامة، ولهم المغنم، ولهم الكلمة العالية، وفي الآخرة لهم الجزاء الأوفى، ولهم رضوان الله الكريم، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ..

الفلاح في الدنيا بالعيش الكريم القويم، والفلاح في الآخرة بالأجر العظيم: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ .. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

❑ لا يستويان ولا يلتقيان:

ليس من أقبل كمن أعرض وصُدَّ، ولا من قُبِل أمره كمن رُدَّ، ولا من وحَّد كمن جحد، ولا مَن عَبَد كَمَن عَنَد، ولا من أتى كَمَن أبى، فلا جرم رَبحت تجارتهم وجَلَّت رتبتهم. راحاتهم موعودة، وإن كانت مشقاتهم في الحال موجودة مشهودة، وصادق يقينهم بالثواب يُهوِّن عليهم مقاساة ما يلقونه من الأتعاب، صدقوا في الولاء وما احتشموا من مقاساة العناء.

وغيرهم في الولاء مماذِق، وللصدق مفارق، يتعلَّل بما لا أصل له؛ لأنه حُرِم الخلوص فيما هو أهل له.

استوطنوا مركب الكسل، واكتسوْا لباس الفشل، وركنوا إلى مخاريق الحيل، حُرموا استحقاق القُربة، أراد الله هوانهم، وأذاقهم خذلانه.

❑ بكاء الرجال.. حزنًا على حِرمانهم من الجهاد:

٤٩ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩٢].

قال مجاهد: نزلت في بني مقرن من مزينة.

قال محمد بن كعب: كانوا سبعة نفر؛ من بني عمرو بن عوف: سالم بن عوف، ومن بني واقف: هرمي بن عمرو؛ ومن بني مازن بن النجار: عبدالرحمن بن كعب، ويكنى أبا ليلى؛ ومن بني المعلى: سلمان بن صخر، ومن بني حارثة: عبدالرحمن بن يزيد، أبو عيلة، وهو الذي تصدَّق بعرضه فقبله اللَّه منه، ومن بني سلمة: عمرو بن عَنَمة وعبداللَّه بن عمرو المزني.

وقال محمد بن إسحاق في سياق غزوة «**تبوك**»: ثم إن رجالًا من المسلمين أتوْا رسول اللَّه ﷺ وهم البَكَّاءُون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وعَلْبة بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبدالرحمن بن كعب أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بني سلمة، وعبداللَّه بن المغفل المزني، وبعض الناس يقول: بل هو عبداللَّه بن عمرو المزني، وهَرَميُّ بن عبداللَّه أخو بني واقف، وعرباض بن سارية الفزاري، فاستحملوا رسول اللَّه ﷺ، وكانوا أهل حاجة، فقال: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾»[١].

قَالَ لِي مَنْ أُحِبُّ وَالْبَيْنُ قَدْ حَلَّ وَدَمْعِي مُرَافِقٌ لِشَهِيقِي
مَا تُرَى فِي الطَّرِيقِ تَصْنَعُ بَعْدِي؟ قُلْتُ أَبْكِي عَلَيْكَ طُولَ الطَّرِيقِ

هذا واللَّه بكاء الرجال.. بكاؤهم على موطن تندر فيه الرءوس.

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/٢٦٥، ٢٦٦)، والسيرة النبوية، لابن هشام (٢/٥١٨).

❑ فرحهم بالجهاد:

قال حاتم الأصم: كنا مع شقيق البلخي، ونحن مصافُّو الترك، في يوم لا أرى فيه إلا رءوسًا تندر[١]، وسيوفًا تقْطع. فقال لي شقيق، ونحن بين الصفين: يا حاتم، كيف ترى نفسك في هذا اليوم؟ تراها مثلها في الليلة التي زُفَّتْ إليك امرأتك؟ فقلت: لا والله.

فقال: لكني - واللَّه - أرى نفسي في هذا اليوم مثلها في الليلة التي زُفَّت فيها امرأتي.

قال: ثم نام بين الصفين ودَرَقته[٢] تحت رأسه، حتى سمعت غطيطه[٣]»[٤].

❑ قصة أخرى من فرحهم بالجهاد والشهادة:

قال أبو قدامة الشامي: كنت أميرًا على الجيش في بعض الغزوات، فدخلتُ بعض البلدان، فدعوت الناس إلى الجهاد، ورغبتهم في الثواب، وذكرت فضل الشهادة، ثم تفرق الناس، وسرت إلى منزلي فإذا بامرأة من أحسن الناس تنادي: يا أبا قدامة، فقلت: هذه مكيدة من الشيطان، فلم أجبها، فعادت فنادتني، فلم أجبها، فقالت: هكذا يفعل أرباب الصلاح بأهل الإرادة؟! فوقفت لها، فجاءت ودفعت إليَّ رقعة وحزمة مشدودة، ثم انصرفت وهي تبكي، قال: فنظرت إلى الورقة، وإذا مكتوب فيها: دعوتَ الناس إلى الجهاد، وحرَّضتهم على الثواب، وأنا امرأة ولا قدرة لي على الجهاد، وقد قطعت أحسن ما فيَّ وهما ضفيرتاي، وقد أتيت بهما، لتجعلهما قيدًا لفرسك، لعل اللَّه يرى ذلك فيغفر لي.

فلما كانت ليلة القتال أخرجتُ الضفيرتين فقيدتُ بهما فرسي، فلما طلع

---

(١) تندر: تزول.
(٢) الدرقة: الترس من جلد ليس فيها خشب ولا عقب.
(٣) الغطيط: الشخير.
(٤) صفة الصفوة، لابن الجوزي (٤/ ١٦٠).

الفجر ووقع القتال، فإذا أنا بغلام حسن الوجه صبور على الشدائد فتقدمت إليه، يا بني أنت راجل، ولا آمن أن تجول الخيل فتطؤك بأرجلها، فارجع إلى موضعك، قال: فالتفتَ إليَّ وقال: كيف أرجع وقد قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال: ١٥]؟ قال: فأعطيته قوسًا كان معي، فقال: يا أبا قدامة أقرضني ثلاثة أسهم، فقلت: ما هذا وقت قرض، فقال: باللَّه عليك أقرضني. قال: فأعطيته سهمًا، فوضعه في قوسه فقتل، فقلت: أنا شريكك في الثواب؟ فقال: نعم، فأعطيته سهمًا آخر فقتل به روميًا آخر، ثم ناولته الثالث فرمى به وقال: السلام عليك، سلام مودع، فجاءه سهم بين عينيه، فخر صريعًا، فوقفت عليه وقلت: يا ولدي لا تنسني، فإنك عاهدتني، فقال: نعم. ثم قال: يا أبا قدامة لي إليك حاجة إذا دخلت المدينة فائت والدتي وسلم عليها عني، وناولها هذا الخرج، فقلت: ومن والدتك؟ قال: التي قطعت شعرها وقالت: اجعله قيدًا لفرسك، قال: فاشتغلت بالبكاء، فقضى نحبه رحمه الله، فدفنته، فلما انقضى القتال وعدت إلى قبره، رأيته على وجه الأرض قد قذفته الأرض، فحفرت له حفرة أخرى فدفنته، فقذفته ثانيًا، فقال أصحابنا: دعه فهو غلام، ولعله خرج من غير إذن والدته، قال: فوقعت في حيرة، فأذن مؤذن العشاء فقمت فصليت، وجعلت أتضرع إلى اللَّه وأبكي وأقول: يا رب ما أدري ما أصنع به، قال: فسمعت صوتًا: يا أبا قدامة دع ولي اللَّه واذهب، قال: فتركته فنزلت طيور فأكلته، وأتت السباع فابتلعت العظام.

فلما أتيت المدينة ذهبت إلى بيت والدته فطرقت الباب، فخرجت طفلة صغيرة، فلما رأت الخرج رجعت ونادت: يا أماه، جاء أبو قدامة بخرج أخي، وما أرى أخي معه، واحسرتاه! في العام الأول أصبنا بأبي، وفي الثاني بأخي، وفي هذا بأخي الآخر، قال: فكدت أتلف من البكاء.

فخرجت تلك المرأة وهي تقول: أمهنيًا جئت أم معزيًا؟ إن كان ولدي قد مات

فعزني، وإن كان قد استشهد فهنني. فقلت: لا والله، بل استشهد، فقالت: وما علامة ذلك؟ قلت: قتل، قالت: قبلته الأرض أم لا؟ قلت: لا والله. قالت: الحمد لله. ثم فتحت صندوقًا وأخرجتْ مسحًا أسود وغلًّا من حديد وقالت: إنه كان إذا جنَّه الليل يلبس هذا المسح، ويغلُّ يده بهذا الغل ويقول: إلهي، احشرنيَ من حواصل الطير وبطون السباع، فما لي عين تراك. وقد استجاب اللَّه منه ذلك(1).

مَنْ أَنْتَ؟ وَانْبَهَرَتْ حُرُوفِي وَالْتَوى ... وَجْهُ السُّؤَالِ وَأَثْبَتَتْنِي الأَسْهُمُ

وَوَقَفْتُ حِينَ رَأَيْتُ طِفْلًا شَامِخًا ... قَامَاتُنَا مِنْ حَوْلِهِ تَتَقَزَّمُ

طِفْلٌ صَغِيرٌ غَيْرَ أَنَّ شُمُوخَهُ ... أَوْحَى إِلَيَّ بِأَنَّهُ لَا يُهْزَمُ

أَنَا مِنْ غِرَاسِ اللَّهِ طِفْلٌ فَارِسٌ ... أَنَا مُؤْمِنٌ بِمَبَادِئِي أَنَا مُسْلِمُ

لُغَةُ الْبُطُولَةِ مِنْ خَصَائِصِ أُمَّتِي ... عَنَّا رَوَاهَا الْآخَرُونَ وَتَرْجَمُوا

مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ الَّذِي انْتَفَضَتْ بِهِ ... بَطْحَاءُ مَكَّةَ وَالْحَطِيمُ وَزَمْزَمُ

مُنْذُ الْتَقَى جِبْرِيلُ فَوْقَ رُبُوعِهَا ... بِمُحَمَّدٍ يَتْلُو لَهُ وَيُعَلِّمُ

٥٠ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٢- ١٧٤].

«هذا كان يوم «**حمراء الأسد**»، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كرُّوا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم ندموا لِمَ لا تمَّموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة، فلما بلغ رسول اللَّه ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم؛ ليرعبهم، وليريهم أن بهم قوةً وجلدًا، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم «**أحد**» سوى جابر بن عبداللَّه رضي الله عنه لما سنذكره، فانتدب المسلمون على

(١) فضائل الجهاد، لابن النحّاس (٢/٦٩١، ٦٩٢).

ما بهم من الجراح والإثخان؛ طاعة لله ولرسوله ﷺ»(١).

وقذف اللَّه في قلب أبي سفيان الرعب، وقال له معبد الخزاعي: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرُّقًا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط، واللَّه لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتًا من شعر.

كَادَتْ تُهَدُّ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي ... إِذْ سَالَتِ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ
تَرْدَى بِأُسْدٍ كِرَامٍ لَا تَنَابِلَةً ... عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَا مِيلٌ مَعَازِيلِ
فَظَلْتُ عَدْوًا أَظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةً ... لَمَّا سَمَوْا بِرَئِيسٍ غَيْرِ مَخْذُولِ
فَقُلْتُ وَيْلَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمُ ... إذا تغطمطت البطحاءُ بالجيل
إِنِّي نَذِيرٌ لِأَهْلِ الْبَسْلِ ضَاحِيَةً ... لِكُلِّ ذِي إِرْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُولِ
مِنْ جَيْشِ أَحْمَدَ لَا وَخْشٌ تَنَابِلَةٌ ... وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أَنْذَرْتُ بِالْقِيلِ

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾.

«إنهم أولئك الذين دعاهم الرسول ﷺ إلى الخروج معه كرة أخرى غداة المعركة المريرة، وهم مثخنون بالجراح، وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس في المعركة، وهم لم ينسوا بَعْدُ هولَ الدعكة، ومرارة الهزيمة، وشدة الكرب. وقد فقدوا من أعزائهم من فقدوا، فقل عددهم، فوق ما هم مثخنون بالجراح!

ولكن رسول اللَّه ﷺ دعاهم، ودعاهم وحدهم، ولم يأذن لأحد تخلف عن الغزوة أن يخرج معهم - ليقويهم ويكثر عددهم كما كان يمكن أن يقال! -

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٦٥).

فاستجابوا .. استجابوا لدعوة الرسول ﷺ وهي دعوة اللّه ـ كما يقرر السياق، وكما هي في حقيقتها وفي مفهومهم كذلك ـ فاستجابوا بهذا لله والرسول ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾، ونزل بهم الضر، وأثخنتهم الجراح.

ولقد دعاهم رسول اللّه ﷺ ودعاهم وحدهم. وكانت هذه الدعوة وما تلاها من استجابة تحمل إيحاءات شتى، وتومئ إلى حقائق كبرى، نشير إلى شيء منها:

فلعل رسول اللّه ﷺ شاء ألا يكون آخر ما تنضم عليه جوانح المسلمين ومشاعرهم، هو شعور الهزيمة، وآلام البرح والقرح؛ فاستنهضهم لمتابعة قريش، وتعقبها، كي يقر في أخلادهم أنها تجربة وابتلاء، وليست نهاية المطاف.. وأنهم بعد ذلك أقوياء، وأن خصومهم المنتصرين ضعفاء، إنما هي واحدة وتمضي، ولهم الكرة عليهم، متى نفضوا عنهم الضعف والفشل، واستجابوا لدعوة اللّه والرسول.

ولعل رسول اللّه ﷺ شاء في الجانب الآخر ألا تمضي قريش، وفي جوانحها ومشاعرها أخيلة النصر ومذاقاته. فمضى خلف قريش بالبقية ممن حضروا المعركة أمس؛ يشعر قريشًا أنها لم تنل من المسلمين منالًا، وأنه بقي لها منهم من يتعقبها ويكر عليها.

وقد تحققت هذه وتلك، كما ذكرت روايات السيرة.

ولعل رسول اللّه ﷺ شاء أن يشعر المسلمين، وأن يشعر الدنيا كلها من ورائهم، بقيام هذه الحقيقة الجديدة التي وجدت في هذه الأرض.. حقيقة أن هناك عقيدة هي كل شيء في نفوس أصحابها. ليس لهم من أرب في الدنيا غيرها، وليس لهم من غاية في حياتهم سواها. عقيدة يعيشون لها وحدها، فلا يبقى لهم في أنفسهم شيء بعدها، ولا يستبقون هم لأنفسهم بقية في أنفسهم لا يبذلونها لها، ولا يقدمونها فداها.

لقد كان هذا أمرًا جديدًا في هذه الأرض في ذلك الحين. ولم يكن بد أن تشعر الأرض كلها ـ بعد أن يشعر المؤمنون ـ بقيام هذا الأمر الجديد، وبوجود هذه الحقيقة

الكبيرة.

ولم يكن أقوى في التعبير عن ميلاد هذه الحقيقة من خروج هؤلاء الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، ومن خروجهم بهذه الصورة الناصعة الرائعة الهائلة؛ صورة التوكل على الله وحده، وعدم المبالاة بمقالة الناس وتخويفهم لهم من جمع قريش لهم ـ كما أبلغهم رسل أبي سفيان ـ وكما هوَّل المنافقون في أمر قريش، وهو ما لا بد أن يفعلوا ـ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾..

هذه الصورة الرائعة الهائلة كانت إعلانًا قويًّا عن ميلاد هذه الحقيقة الكبيرة، وكان هذا بعض ما تشير إليه الخطة النبوية الحكيمة.

وتحدثنا بعض روايات السيرة عن صور من ذلك القرح ومن تلك الاستجابة:

قال محمد بن إسحاق: حدثني عبدالله بن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان أن رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبدالأشهل كان قد شهد أحدًا قال: شهدنا أحدًا مع رسول الله ﷺ أنا وأخي، فرجعنا جريحين. فلما أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي ـ أو قال لي ـ: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل. فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جراحًا منه، فكان إذا غلب حملته عقبة.. حتى انتهيا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

وقال محمد بن إسحاق: كان يوم «**أحد**» يوم السبت النصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، وأذن مؤذنه أن لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس. فكلمه جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام. فقال: يا رسول الله إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع. وقال: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك

هؤلاء النسوة ولا رجل فيهن. ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلف على إخوتك، فتخلفت عليهن.. فأذن له رسول الله ﷺ، فخرج معه.

وهكذا تتضافر مثل هذه الصور الرفيعة على إعلان ميلاد تلك الحقيقة الكبيرة في تلك النفوس الكبيرة. النفوس التي لا تعرف إلا الله وكيلًا، وترضى به وحده وتكتفي، وتزداد إيمانًا به في ساعة الشدة، وتقول في مواجهة تخويف الناس لهم بالناس: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾..

ثم تكون العاقبة كما هو المنتظر من وعد الله للمتوكلين عليه، المكتفين به، المتجردين له: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

فأصابوا النجاة - لم يمسسهم سوء -، ونالوا رضوان الله، وعادوا بالنجاة والرضى.

﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾..

فهنا يردهم إلى السبب الأول في العطاء: نعمة الله وفضله على من يشاء. ومع التنويه بموقفهم الرائع، فإنه يرد الأمر إلى نعمة الله وفضله؛ لأن هذا هو الأصل الكبير، الذي يرجع إليه كل فضل، وما موقفهم ذاك إلا طرف من هذا الفضل الجزيل!

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾..

بهذا يسجل الله لهم في كتابه الخالد، وفي كلامه الذي تتجاوب له جوانب الكون كله، وصورتهم هذه وموقفهم هذا، وهي صورة رفيعة، وهو موقف كريم»[١].

---

(١) الظلال (١/٥١٩ - ٥٢١).

❑ صورة أخرى وضيئة للموقنين الصادقين:

في يوم الأحزاب، الذي قال الله فيه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

قال محمد بن مسلمة: كان ليلنا بالخندق نهارًا، وكان المشركون يتناوبون بينهم، فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يومًا، ويغدو خالد بن الوليد يومًا، ويغدو عمرو بن العاص يومًا، ويغدو هبيرة بن أبي وهب يومًا، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يومًا، ويغدو ضرار بن الخطاب يومًا، حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفًا شديدًا..

إنها صورة الهول الذي روَّع المدينة، والكرب الذي شملها، والذي لم ينج منه أحد من أهلها، وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب؛ من أعلاها ومن أسفلها، فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب، وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب، وظنها بالله، وسلوكها في الشدة، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج، ومِن ثَمَّ كان الابتلاء كاملًا، والامتحان دقيقًا، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسمًا لا تردد فيه.

٥١ ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: **٢٢، ٢٣**].

«صورة الإيمان الواثق المطمئن؛ وصورة المؤمنين المشرقة الوضيئة، في مواجهة الهول، وفي لقاء الخطر.. الخطر الذي يزلزل القلوب المؤمنة، فتتخذ من هذا الزلزال مادة للطمأنينة والثقة والاستبشار واليقين: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا

مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

لقد كان الهول الذي واجهه المسلمون في هذا الحادث من الضخامة؛ وكان الكرب الذي واجهوه من الشدة؛ وكان الفزع الذي لقوه من العنف، بحيث زلزلهم زلزالًا شديدًا، كما قال عنهم أصدق القائلين: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

لقد كانوا ناسًا من البشر. وللبشر طاقة. لا يكلفهم اللَّه ما فوقها. وعلى الرغم من ثقتهم بنصر اللَّه في النهاية؛ وبشارة الرسول ﷺ لهم، تلك البشارة التي تتجاوز الموقف كله إلى فتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق. على الرغم من هذا كله، فإن الهول الذي كان حاضرًا يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفاسهم.

ومما يصور هذه الحالة أبلغ تصوير خبر حذيفة. والرسول ﷺ يحسن حالة أصحابه، ويرى نفوسهم من داخلها، فيقول: «**مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع؟**» يشرط له رسول اللَّه ﷺ الرجعة؛ «**أسأل اللَّه ـ تعالَى ـ أن يكون رفيقي في الجنة**»... ومع هذا الشرط بالرجعة، ومع الدعاء المضمون بالرفقة مع رسول اللَّه في الجنة، فإن أحدًا لا يلبي النداء. فإذا عين بالاسم حذيفة؛ قال: فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني!.. ألا إن هذا لا يقع إلا في أقصى درجات الزلزلة.

ولكن كان إلى جانب الزلزلة، وزوغان الأبصار، وكرب الأنفاس.. كان إلى جانب هذا كله الصلة التي لا تنقطع بالله؛ وإدراك الذي لا يضل عن سنن الله؛ والثقة التي لا تتزعزع بثبات هذه السنن؛ وتحقق أواخرها متى تحققت أوائلها.

ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سببًا في انتظار النصر. ذلك أنهم صدقوا قول اللَّه ـ سبحانه ـ من قبل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾. وها هم أولاء يزلزلوا. فنصر اللَّه إذن منهم قريب! ومن ثم قالوا: ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ

وَرَسُولُهُۥ﴾.. ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.. هذا الهول، وهذا الكرب، وهذه الزلزلة، وهذا الضيق، وَعَدَنا عليه النصر.. فلا بد أن يجيء النصر.

﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.. صدق اللَّه ورسوله في الأمارة وصدق اللَّه ورسوله في دلالتها.. ومن ثم اطمأنت قلوبهم لنصر اللَّه ووعد الله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

لقد كانوا ناسًا من البشر، لا يملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر، وضعف البشر. وليس مطلوبًا منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشري، ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس ويفقدوا خصائصه ومميزاته. فلهذا خلقهم الله؛ خلقهم ليبقوا بشرًا، ولا يتحولوا جنسًا آخر. لا ملائكة، ولا شياطين، ولا بهيمة، ولا حجرًا.. كانوا ناسًا من البشر يفزعون، ويضيقون بالشدة، ويزلزلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة. ولكنهم كانوا ـ مع هذا ـ مرتبطين بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى الله، وتمنعهم من السقوط، وتجدد فيهم الأمل، وتحرسهم من القنوط.. وكانوا بهذا وذاك نموذجًا فريدًا في تاريخ البشرية لم يعرف له نظير.

وعلينا أن ندرك هذا، لندرك ذلك النموذج الفريد في تاريخ العصور. علينا أن ندرك أنهم كانوا بشرًا، لم يتخلوا عن طبيعة البشر، بما فيها من قوة وضعف، وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا في بشريتهم هذه أعلى قيمة مهيأة لبني الإنسان في الاحتفاظ بخصائص البشر في الأرض مع الاستمساك بعروة السماء.

وحين نرانا ضعفنا مرة، أو زلزلنا مرة، أو فزعنا مرة، أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشدة والضيق.. فعلينا ألا نيأس من أنفسنا، وألا نهلع ونحسب أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبدًا. ولكن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا؛ لأنه من فطرتنا البشرية! ونصر عليه؛ لأنه يقع لمن هم خير منا! هنالك العروة الوثقى؛ عروة السماء، وعلينا أن نستمسك بها؛ لننهض من الكبوة، ونسترد الثقة والطمأنينة،

ونتخذ من الزلزال بشيرًا بالنصر. فنثبت ونستقر، ونقود ونطمئن، ونسير في الطريق..

وهذا هو التوازن الذي صاغ ذلك النموذج الفريد في صدر الإسلام. النموذج الذي يذكر عنه القرآن الكريم مواقفه الماضية وحسن بلائه وجهاده، وثباته على عهده مع الله، فمنهم من لقيه، ومنهم من ينتظر أن يلقاه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾..

هذا في مقابل ذلك النموذج الكريه.. نموذج الذين عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار، ثم لم يوفوا بعهد الله، ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾.

روى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن ثابت قال: «**عمي أنس بن النضر** رضي الله عنه سميت به ـ لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر، فشق عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه! لئن أراني الله ـ تَعَالَى ـ مشهدًا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله عز وجل ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها. فشهد مع رسول الله ﷺ يوم «**أحد**». فاستقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال له أنس رضي الله عنه: يا أبا عمرو، أين واهًا لريح الجنة! إني أجده دون «**أحد**». قال: فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه قال: فوُجِدَ في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية. فقالت أخته ـ عمتي الرُّبَيِّع ابنة النضر ـ: فما عرفت أخي إلا ببنانه. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إلخ. قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ. [ورواه مسلم، والترمذي، والنسائي من حديث سليمان بن المغيرة].

وهذه الصورة الوضيئة لهذا النموذج من المؤمنين تذكر هنا تكملة لصورة الإيمان، في مقابل صورة النفاق والضعف ونقض العهد من ذلك الفريق؛ لتتم المقابلة في معرض التربية بالأحداث وبالقرآن.

ويعقب عليها ببيان حكمة الابتلاء، وعاقبة النقض والوفاء؛ وتفويض الأمر في

هذا كله لمشيئة الله: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ - إن شاء الله - ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

ومثل هذا التعقيب يتخلل تصوير الحوادث والمشاهد -؛ ليرد الأمر كله إلى الله، ويكشف عن حكمة الأحداث والوقائع. فليس شيء منها عبثًا ولا مصادفة، إنما تقع وفق حكمة مقدرة، وتدبير قاصد. وتنتهي إلى ما شاء الله من العواقب.

وفيها تتجلى رحمة الله بعباده، ورحمته ومغفرته أقرب وأكبر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

ويختم الحديث عن الحدث الضخم بعاقبته التي تصدق ظن المؤمنين بربهم؛ وضلال المنافقين والمرجفين وخطأ تصوراتهم؛ وتثبت القيم الإيمانية بالنهاية الواقعية. ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

وقد بدأت المعركة، وسارت في طريقها، وانتهت إلى نهايتها. وزمامُها في يد الله، يصرفها كيف يشاء. وأثبت النص القرآني هذه الحقيقة بطريقة تعبيره، فأسند إلى الله - تَعَالَى - إسنادًا مباشرًا كل ما تم من الأحداث والعواقب؛ تقريرًا لهذه الحقيقة، وتثبيتًا لها في القلوب، وإيضاحًا للتصور الإسلامي الصحيح[1].

[1] الظلال (٥/٢٨٤٣ - ٢٨٤٥).

الجهاد اختبار وتمحيص لشرف أهله عند الله

الجهاد منهج عجيب في التربية على التفويض والرضا باختيار الله ﷻ

٥٢- قال - تعالى -: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

إن القتال في سبيل اللَّه فريضة شاقة، ولكنها فريضة واجبة الأداء. واجبة الأداء؛ لأن فيها خيرًا كثيرًا للفرد المسلم، وللجماعة المسلمة، وللبشرية كلها، وللحق والخير والصلاح.

والإسلام يحسب حساب الفطرة؛ فلا ينكر مشقة هذه الفريضة، ولا يهون من أمرها، ولا ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطري بكراهيتها وثقلها. فالإسلام لا يماري في الفطرة، ولا يصادمها، ولا يحرم عليها المشاعر الفطرية التي ليس إلى إنكارها من سبيل.. ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر، ويسلط عليه نورًا جديدًا. إنه يقرر أن من الفرائض ما هو شاق مرير كريه المذاق؛ ولكن وراءه حكمة تهون مشقته، وتسيغ مرارته، وتحقق به خيرًا مخبوءًا قد لا يراه النظر الإنساني القصير.. عندئذ يفتح للنفس البشرية نافذة جديدة تطل منها على الأمر، ويكشف لها عن زاوية أخرى غير التي تراه منها. نافذة تهب منها ريح رخية عندما تحيط الكروب بالنفس وتشق عليها الأمور.. إنه من يدري فلعل وراء المكروه خيرًا، ووراء المحبوب شرًّا. إن العليم بالغايات البعيدة، المطلع على العواقب المستورة، هو الذي يعلم وحده، حيث لا يعلم الناس شيئًا من الحقيقة.

وعند تنسم تلك النسمة الرخية على النفس البشرية تهون المشقة، وتتفتح منافذ الرجاء، ويستروح القلب في الهاجرة، ويجنح إلى الطاعة والأداء في يقين وفي رضاء.

هكذا يواجه الإسلام الفطرة، لا منكرًا عليها ما يطوف من المشاعر الطبيعية، ولا مريدًا لها على الأمر الصعب بمجرد التكليف، ولكن مربيًا لها على الطاقة، ومفسحًا لها في الرجاء؛ لتبذل الذي هو أدنى في سبيل الذي هو خير، ولترتفع على ذاتها متطوعة لا مجبرة، ولتحس بالعطف الإلهي الذي يعرف مواضع ضعفها، ويعترف بمشقة ما كتب عليها، ويعذرها ويقدرها، ويحدو لها بالتسامي والتطلع والرجاء.

وهكذا يربي الإسلام الفطرة، فلا تمل التكليف، ولا تجزع عند الصدمة الأولى، ولا تخور عند المشقة البادية، ولا تخجل وتتهاوى عند انكشاف ضعفها أمام الشدة. ولكن تثبت وهي تعلم أن اللَّه يعذرها ويمدها بعونه ويقويها، وتصمم عل المضي في وجه المحنة، فقد يكمن فيها الخير بعد الضرر، واليسر بعد العسر، والراحة الكبرى بعد الضنى والعناء. ولا تتهالك على ما تحب وتلتذ، فقد تكون الحسرة كامنة وراء المتعة! وقد يكون المكروه مختبئًا خلف المحبوب، وقد يكون الهلاك متربصًا وراء المطمع البرَّاق.

إنه منهج في التربية عجيب. منهج عميق بسيط. منهج يعرف طريقه إلى مسارب النفس الإنسانية وحناياها ودروبها الكثيرة بالحق وبالصدق، لا بالإيحاء الكاذب، والتمويه الخادع.. فهو حق أن تكره النفس الإنسانية القاصرة الضعيفة أمرًا ويكون فيه الخير كل الخير. وهو حق كذلك أن تحب النفس أمرًا وتتهالك عليه وفيه الشر كل الشر. وهو الحق كل الحق أن اللَّه يعلم والناس لا يعلمون! وماذا يعلم الناس من أمر العواقب؟ وماذا يعلم الناس مما وراء الستر المسدل؟ وماذا يعلم الناس من الحقائق التي لا تخضع للهوى والجهل والقصور؟!».

إن هذه اللمسة الربانية للقلب البشري لتفتح أمامه عالمًا آخر غير العالم المحدود الذي تبصره عيناه. وتبرز أمامه عوامل أخرى تعمل في صميم الكون، وتقلب الأمور، وترتب العواقب على غير ما كان يظنه ويتمناه. وإنها لتتركه حين يستجيب

لها طَيِّعًا في يد القدر، يعمل ويرجو ويطمع ويخاف، ولكن يرد الأمر كله لليد الحكيمة والعلم الشامل، وهو راض قرير.. إنه الدخول في السلم من بابه الواسع.. فما تستشعر النفس حقيقة السلام إلا حين تستيقن أن الخيرة فيما اختاره الله. وأن الخير في طاعة اللَّه دون محاولة منها أن تجرب ربها وأن تطلب منه البرهان!

إن الإذعان الواثق، والرجاء الهادئ، والسعي المطمئن هي أبواب السلم الذي يدعو اللَّه عباده الذين آمنوا ليدخلوا فيه كافة.. وهو يقودهم إليه بهذا المنهج العجيب العميق البسيط في يسر وفي هوادة وفي رخاء. يقودهم بهذا المنهج إلى السلم حتى وهو يكلفهم فريضة القتال، فالسلم الحقيقي هو سلم الروح والضمير حتى في ساحة القتال.

وإن هذا الإيحاء الذي يحمله ذلك النص القرآني، لا يقف عند حد القتال، فالقتال ليس إلا مثلًا لما تكرهه النفس، ويكون من ورائه الخير.. إن هذا الإيحاء ينطلق في حياة المؤمن كلها، ويلقي ظلاله على أحداث الحياة جميعها.. إن الإنسان لا يدري أين يكون الخير وأين يكون الشر.. لقد كان المؤمنون الذين خرجوا يوم «**بدر**» يطلبون عير قريش وتجارتها، ويرجون أن تكون الفئة التي وعدهم اللَّه إياها هي فئة العير والتجارة، لا فئة الحامية المقاتلة من قريش. ولكن اللَّه جعل القافلة تفلت، ولقاهم المقاتلة من قريش! وكان النصر الذي دوى في الجزيرة العربية ورفع راية الإسلام. فأين تكون القافلة من هذا الخير الضخم الذي أراده اللَّه للمسلمين! وأين يكون اختيار المسلمين لأنفسهم من اختيار اللَّه لهم؟ واللَّه يعلم، والناس لا يعلمون!

ولقد نسي فتى موسى ما كانا قد أعداه لطعامهما ـ وهو الحوت ـ فتسرب في البحر عند الصخرة. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا

عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ [الكهف: ٦٢ - ٦٥]، وكان هذا هو الذي خرج له موسى. ولو لم يقع حادث الحوت ما ارتدا، ولفاتهما ما خرجا لأجله في الرحلة كلها!

وكل إنسان - في تجاربه الخاصة - يستطيع - حين يتأمل - أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العميم، ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم. وكم من مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته ثم تبين له بعد فترة أنه كان إنقاذًا من اللَّه أن فوَّت عليه هذا المطلوب في حينه. وكم من محنة تجرعها الإنسان لاهثًا يكاد يتقطع لفظاعتها ثم ينظر بعد فترة فإذا هي تنشئ له في حياته من الخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل.

إن الإنسان لا يعلم. واللَّه وحده يعلم. فماذا على الإنسان لو يستسلم؟

إن هذا هو المنهج التربوي الذي يأخذ القرآن به النفس البشرية؛ لتؤمن، وتسلم، وتستسلم في أمر الغيب المخبوء، بعد أن تعمل ما تستطيع في محيط السعي المكشوف»[1].

قال الإمام ابن القيم - رحمه اللَّه -: «في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه؛ لم يأمن أن توافيه المضرَّة من جانب المسرَّة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرَّة، لعدم علمه بالعواقب، فإن اللَّه يعلم منها ما لا يعلمه العبد - أوجب له ذلك أمورًا:

منها: أنه لا أنفع له من امتثال أمر ربه، وإن شقَّ عليه في الابتداء؛ لأن عواقبه كلها خيرات ومسرَّات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها، وأنفع، وكذلك لا شيء أضرُّ عليه من ارتكاب المنهي، وإن هوته نفسه، ومالت إليه، وإن

---

(١) الظلال (١/٢٢٣ - ٢٢٥).

عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب. وخاصية العاقل تحمل الألم اليسير؛ لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة؛ لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل.

فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غايتها، والعاقل الكيِّس دائمًا ينظر إلى الغايات من وراء ستور مباديها؛ فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة؛ فيرى المناهي لطعام لذيذ قد خُلط فيه سم قاتل، فكلما دعته لذته إلى تناوله نهاه عنه ما فيه من السمِّ، ويرى الأوامر كدواء مُرِّ المذاق مفض إلى العافية والشفاء، وكلما نهته مرارة مذاقه عن تناوله، أمره نفعه بالتناول، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم، تدرك به الغايات من مبادئها، وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لم يؤمل عند الغاية، فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره؛ هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم، واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية أنها: تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له، ويقتضيه له؛ لما يرجو من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه، ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعلَّ مضرته وهلاكه فيه، وهو لا يعلم، فلا يختار على ربه شيئًا، بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوَّض إلى ربه، ورضي بما يختاره له؛ أمده فيما يختاره له بالقوة عليه، والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أن يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرِّغ قلبه من التقديرات والتدبيرات، التي يصعد منها في عقبة، وينزل في أخرى، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله؛ أصابه القدر وهو محمود مشكور

ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر، وهو مذموم عنده غير ملطوف به فيه، مع اختياره لنفسه.

ومتى صح تفويضه ورضاه؛ اكتنفه في المقدور العطفُ عليه، واللطف به، فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهوِّن عليه ما قدَّره.

إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيُّله في ردِّه، فلا أنفع له من الاستسلام، وإلقاء نفسه بين يديْ القدر طريحًا كالميت. فإن السبع لا يرضى أن يأكل الجيف»(١).

وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «بَيَّنَ ـ سبحانه ـ أن ما أمرهم به يعلم ما فيه من المصلحة والمنفعة لهم التي اقتضت أن يختاره ويأمرهم به، وهم قد يكرهونه إما لعدم العلم، وإما لنفور الطبع. فهذا علمه بما في عواقب أمره مما لا يعلمونه، وذلك علمه بما في اختياره من خلقه بما لا يعلمونه.

فهذه الآية تضمنت الحض على التزام أمر اللَّه وإن شقَّ على النفوس، وعلى الرضا بقضائه وإنْ كرهته النفوس»(٢).

٥٣ ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾: شدة الحاجة. ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: هي العلل والأوصاب. ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾: شبه الذين مضوا.

قال ابن جرير (١٩٨/٢): «أم حسبتم أنكم أيها المؤمنون باللَّه ورسله تدخلون الجنة ولم يصبكم مثل ما أصاب مَنْ قبلكم من أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد

---

(١) الفوائد، لابن القيم ص (١٣٤، ١٣٥).
(٢) شفاء العليل، لابن القيم ص (٣٣).

والمحن والاختبار، فتبتلوا بما ابتلوا واختبروا به من شدة الحاجة والفاقة والعلل والأوصاب، ولم تزلزلوا زلزالهم؛ يعني: ولم يصبهم من أعدائهم من الخوف والرعب شدة وجهد حتى يستبطئ القوم نصر اللَّه إياهم فيقولون: متى اللَّه ناصرنا؟ ثم أخبرهم اللَّه أن نصره منهم قريب وأنه مُعْلِيهِمْ على عدوهم، ومظهرهم عليه، ومنجز لهم ما وعدهم، ويعلي كلمتهم، ويُطفئ نار حرب الذين كفروا.

قال قتادة: نزلت في يوم «**الأحزاب**»؛ أصاب رسولَ اللَّه ﷺ وأصحابَه بلاءٌ وحصرٌ، فكانوا كما قال اللَّه ﷻ: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]».

«هكذا خاطب اللَّه الجماعة المسلمة الأولى، وهكذا وجهها إلى تجارب الجماعات المؤمنة قبلها، وإلى سنته ـ سبحانه ـ في تربية عباده المختارين الذين يكل إليهم رايته، وينوط بهم أمانته في الأرض، ومنهجه وشريعته. وهو خطاب مطرد لكل من يُختار لهذا الدور العظيم..

وإنها لتجربة عميقة جليلة مرهوبة.. إن هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه ـ من الرسول ـ وهو خير الناس وأعلمهم بالله.. الموصول بالله، والمؤمنين الذين آمنوا بالله، إن سؤالهم: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟ ليصور مدى المحنة التي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة، ولن تكون إلا محنة فوق الوصف، تُلقى ظلالها على مثل هاتيك القلوب، فتبعث منها ذلك السؤال المكروب: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾»؟

وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة.. عندئذ تتم كلمة الله، ويجيء النصر من الله.

﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾: إنه مُدَّخر لمن يستحقونه، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية.. الذين يثبتون على البأساء والضراء، الذين يصمدون للزلزلة، الذين لا يحنون رءوسهم للعاصفة، الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله، وعندما يشاء الله. وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها، فهم يتطلعون فحسب إلى «**نصر الله**»، لا إلى أي حل آخر، ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند الله، ولا نصر إلا من

عند الله. بهذا يدخل المؤمنون الجنة، مستحقين لها، جديرين بها، بعد الجهاد والامتحان، والصبر والثبات، والتجرد لله وحده، والشعور به وحده، وإغفال كل ما سواه وكل من سواه.

إن الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة، ويرفعها على ذواتها، ويطهرها في بوتقة الألم، فيصفو عنصرها ويضيء، ويهب العقيدة عمقًا وحيوية، فتتلألأ حتى في أعين أعدائها وخصومها، وعندئذ يدخلون في دين اللَّه أفواجًا كما وقع، وكما يقع في كل قضية حق، يلقى أصحابها ما يلقون في أول الطريق، حتى إذا ثبتوا للمحنة انحاز إليهم من كانوا يحاربونهم، وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين.

على أنه - حتى إذا لم يقع هذا - يقع ما هو أعظم منه في حقيقته.. ترتفع أرواح أصحاب الدعوة على كل قوى الأرض وشرورها وفتنتها، وتنطلق من إسار الحرص على الدعة والراحة، والحرص على الحياة نفسها في النهاية.. وهذا الانطلاق كسب للبشرية كلها، وكسب للأرواح التي تصل إليه عن طريق الاستعلاء.. كسب يرجح جميع الآلام، وجميع البأساء والضراء التي يعانيها المؤمنون المؤتمنون على راية اللَّه وأمانته ودينه وشريعته.

وهذا الانطلاق هو المؤهل لحياة الجنة في نهاية المطاف.. وهذا هو الطريق. إيمان وجهاد.. ومحنة وابتلاء.. وصبر وثبات.. وتوجه إلى اللَّه وحده.. ثم يجيء النصر.. ثم يجيء النعيم». اهـ. من الظلال (١/٢١٨، ٢١٩).

٥٤- قال - تعالَى -: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ **[آل عمران: ١٤٠، ١٤١].**

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ﴾: قال ابن عباس: إن يصبكم.

﴿قَرْحٌ﴾: قال مجاهد جراح وقتل. وقال قتادة: القرح: الجراحة، وهو قول ابن

إسحاق. قال الربيع: «**إن كان أصابكم قرح فقد أصاب عدوكم مثله**» يعزِّي أصحاب محمد ﷺ ويحثهم على القتال.

قال الحسن: إن يقتلوا منكم يوم «**أحد**» فقد قتلتم منهم يوم «**بدر**».

عن ابن عباس قال: نام المسلمون وبهم الكلوم يوم «**أحد**». قال عكرمة: وفيهم أُنزلت: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ وفيهم أنزلت: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾[النساء: ١٠٤].

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ نجعلها دولًا بين الناس، ويعني بالناس: المسلمين والمشركين، وذلك أن اللَّه ﷻأدال المسلمين من المشركين ببدر، فقتلوا منهم سبعين، وأسروا سبعين، وأدال المشركين من المسلمين بأحد، فقتلوا منهم سبعين سوى من جرحوا منهم.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وليعلم اللَّه الذين آمنوا منكم ـ أيها القوم ـ من الذين نافقوا. وليتخذ منكم شهداء؛ أي: ليكرم منكم بالشهادة من أراد أن يكرمه.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

إن الشدة بعد الرخاء، والرخاء بعد الشدة، هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس، وطبائع القلوب، ودرجة الغبش فيها والصفاء، ودرجة الهلع فيها والصبر، ودرجة الثقة فيها باللَّه أو القنوط، ودرجة الاستسلام فيها لقدر اللَّه أو البوم به والجموح!

ومداولة الأيام، وتعاقب الشدة والرخاء، محك لا يُخطئ، وميزان لا يظلم. والرخاء في هذا كالشدة، وكم من نفوس تصبر للشدة والتماسك، ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل. والنفس المؤمنة هي التي تصبر للضراء، ولا تستخفها السراء، وتتجه إلى اللَّه في الحالين وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فبإذن اللَّه.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾

وليمحص اللَّه الذين آمنوا؛ قال ابن عباس: يبتليهم، وهو قول مجاهد، والسدي.

قال ابن إسحاق: يختبر الذين آمنوا؛ حتى يخلصهم بالبلاء الذي نزل بهم. وكيف صَبْرُهم ويَقِينُهم.

﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: ينقصهم ويفنيهم. يقال منه: محق فلان هذا الطعام إذا نقصه أو أفناه. قال ابن عباس: ينقصهم.

قال ابن زيد: يمحق من محق في الدنيا، وكان بقية من يمحق في الآخرة في النار.

«والتمحيص درجة بعد الفرز والتمييز. والتمحيص عملية تتم في داخل النفس، وفي مكنون الضمير.. إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية وتسليط الضوء على هذه المكنونات؛ تمهيدًا لإخراج الدخل والدغل والأوشاب، وتركها نقية واضحة مستقرة على الحق بلا غبش ولا ضباب.

وكثيرًا ما يجهل الإنسان نفسه، ومخابئها ودروبها ومنحنياتها، وكثيرًا ما يجهل ضعفها وقوتها، وحقيقة ما استكنَّ فيها من رواسب لا تظهر إلا بمثير!

وفي هذا التمحيص الذي يتولاه اللَّه ـ سبحانه ـ بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء، يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير.. محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية.

ولقد يظن الإنسان في نفسه القدرة والشجاعة والتجرد والخلاص من الشح والحرص.. ثم إذا هو يكتشف ـ على ضوء التجربة العملية وفي مواجهة الأحداث الواقعية ـ أن في نفسه عقابيل لم تمحص، وأنه لم يتهيأ لمثل هذا المستوى من الضغوط! ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه ليعاود المحاولة في سبكها من جديد على مستوى الضغوط التي تقتضيها طبيعة هذه الدعوة، وعلى مستوى التكاليف التي تقتضيها هذه العقيدة!».

محص الله هذه الجماعة المختارة لقيادة البشرية، ورباها ومحَّصها هذا التمحيص الذي تكشَّفت عنه الأحداث في «**أُحُد**»؛ لترتفع إلى مستوى الدور المقدر لها، وليتحقق على يديها قدر الله الذي ناطه بها.

﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ تحقيقًا لسنته في دمغ الباطل بالحق متى استعلن الحق، وخلص من الشوائب بالتمحيص.

٥٤ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [**آل عمران: ١٤٢**].

قال ابن كثير (٣/ ٢٠٠): «أي: أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد. كما قال ـ تعَالَى ـ في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٤] الآية.

وقال ـ تعَالَى ـ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ١، ٢] الآية. ولهذا قال هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ أي: لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله، والصابرين على مقاومة الأعداء» اهـ.

وقال الطبري (٤/ ٧٠، ٧١): «أظننتم أن تدخلوا الجنة، وتنالوا كرامة ربكم وشرف المنازل عنده. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾: ولما يتبين لعبادي المؤمنين المجاهد منكم في سبيل الله على ما أمره به، ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: عند البأس على ما ينالهم في ذات الله من جرح وألم ومكروه».

قال ابن إسحاق: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وتصيبوا من ثوابي الكرامة ولم أختبركم بالشدة وأبتليكم بالمكارة؛ حتى أعلم صدق ذلك منكم الإيمان بي

والصبر على ما أصابكم فيَّ.

«في سؤال استنكاري يصحح القرآن تصورات المسلمين عن سنة اللَّه في الدعوات وفي النصر والهزيمة، وفي العمل والجزاء، ويبيِّن لهم أن طريق الجنة محفوف بالمكاره، وزاده الصبر على مشاق الطريق، وليس زاده التمني والأماني الطائرة التي لا تثبت على المعاناة والتمحيص.

إن صيغة السؤال الاستنكارية يقصد بها التنبيه بشدة إلى خطإ هذا التصور: تصور أنه يكفي الإنسان أن يقولها كلمة باللسان: أسلمت وأنا على استعداد للموت، فيبلغ بهذه الكلمة أن يؤدي تكاليف الإيمان، وأن ينتهي إلى الجنة والرضوان! إنما هو الجهاد وملاقاة البلاء، ثم الصبر على تكاليف الجهاد، وعلى معاناة البلاء.

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

ربما كان الجهاد في الميدان أخف من تكاليف الدعوة التي يطلب لها الصبر ويختبر بها الإيمان.. الصبر على الاستقامة على أفق الإيمان، والاستقرار على مقتضياته في الشعور والسلوك.. الصبر في أثناء ذلك على الضعف الإنساني في النفس وفي الغير.. فمن يتعامل معهم المؤمن في حياته اليومية... والصبر على الفترات التي يستعلي فيها الباطل وينتعش ويبدو كالمنتصر.. والصبر على طول الطريق وبُعد الشقة وكثرة العقبات.. الصبر على وسوسة الراحة وهفوة النفس لها في زحمة الجهد والكرب والنضال.. والصبر على أشياء كثيرة ليس الجهاد في الميدان إلا واحدًا منها، في الطريق المحفوف بالمكاره ـ طريق الجنة التي لا تنال بالأماني وكلمات اللسان!

أخي: من صبر ظفر، ومن ضجر في حَمْل ما لقي خَسِر.. ومن ظن أنه يصل إلى محل عظيم من دون مقاساة الشدائد ألقته أمانيه في مهواة الهلاك، ومن عرف مطلوبه سهل عليه بذل مجهوده.

إِذَا شَامَ الْفَتَى بَرقَ الْمَعَانِي فَأَهْوَنُ فَائِتٍ طِيبُ الرُّقَادِ

٥٥ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾.

«أي: قد كنتم أيها المؤمنون، قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو، وتتحرقون عليه، وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه، فدونكم فقاتلوا وصابروا.

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا اللَّه العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**»[1].

ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾؛ يعني: الموت، شاهدتموه في لمعان السيوف، وحدِّ الأسنة، واشتباك الرماح، وصفوف الرجال للقتال»[2].

إِذَا انسَكَبَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

وزن الحقيقة تُواجه في العيان:

يعلمهم اللَّه بهذا أن يحسبوا حسابًا لكل كلمة تطلقها ألسنتهم، ويزنوا حقيقة رصيدها الواقعي في نفوسهم، على ضوء ما واجهوه من حقيقتها حين واجهتهم! وبذلك يقدِّرون قيمة الكلمة، وقيمة الأمنية، وقيمة الوعد، في ضوء الواقع الثقيل! ثم يعلمهم أن ليست الكلمات الطائرة، والأماني المرفوفة هي التي تبلغهم الجنة، إنما هو تحقيق الكلمة وتجسم الأمنية، والجهاد الحقيقي، والصبر على المعاناة، حتى يعلم اللَّه منهم ذلك كله واقعًا كائنًا في دنيا الناس!

لقد كان اللَّه ـ سبحانه ـ قادرًا على أن يمنح النصر لنبيه، ولدعوته، ولدينه، ولمنهجه منذ اللحظة الأولى، وبلا كدٍّ من المؤمنين ولا عناء، وكان قادرًا على أن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨١٨، ٢٨٣٣، ٢٩٦٦، ٣٠٢٤، ٣٠٢٥، ٧٢٢٧)، ومسلم (١٧٤٢) من حديث عبدالله بن أبي أوفى.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٢٠٠).

ينزل الملائكة تقاتل معهم ـ أو بدونهم ـ وتدمر على المشركين، كما دمرت على عاد، وثمود، وقوم لوط.

ولكن المسألة ليست هي النصر ـ إنما هي تربية الجماعة المسلمة التي تُعَدُّ لتتسلم قيادة البشرية.. البشرية بكل ضعفها ونقصها، وبكل شهواتها ونزواتها، وبكل جاهليتها وانحرافها.. وقيادتها قيادة راشدة تقتضي استعدادًا عاليًا من القادة. وأول ما تقتضيه صلابة في الخُلُقُ، وثبات على الحق، وصبر على المعاناة، ومعرفة بمواطن الضعف ومواطن القوة في النفس البشرية، وخبرة بمواطن الزلل ودواعي الانحراف، ووسائل العلاج. ثم صبر على الرخاء كالصبر على الشدة، وصبر على الشدة بعد الرخاء، وطعمها يومئذ لاذع مرير.

وقَدَرُ اللَّه في إعداد الجماعة المسلمة للقيادة يمضي في طريقه بشتى الأسباب والوسائل، وشتى الملابسات والوقائع.. يمضي أحيانًا في طريق النصر الحاسم للجماعة المسلمة فتستبشر، وترتفع ثقتها بنفسها ـ في ظل العون الإلهي ـ وتجرِّب لذة النصر، وتصبر على نشوته، وتجرِّب مقدرتها على مغالبة البطر والزهو والخيلاء، وعلى التزام التواضع والشكر لله.. وتمضي أحيانًا عن طريق الهزيمة والكرب والشدة، فتلجأ إلى الله، وتعرف حقيقة قوتها الذاتية، وضعفها حين تنحرف أدنى انحراف عن منهج الله، وتجرِّب مرارة الهزيمة، وتستعلي ـ مع ذلك ـ على الباطل بما عندها من الحق المجرد، وتعرف مواضع نقصها وضعفها، ومداخل شهواتها، ومزالق أقدامها، فتحاول أن تصلح من هذا كله في الجولة القادمة.. وتخرج من النصر ومن الهزيمة بالزاد والرصيد.. ويمضي قدر اللَّه وفق سنته، لا يتخلف، ولا يحيد..

وقد كان هذا كله طرفًا من رصيد معركة «**أُحُد**»، الذي يحشده السياق القرآني للجماعة المسلمة ـ على نحو ما نرى في هذه الآيات ـ وهو رصيد مُدَّخر لكل جماعة مسلمة ولكل جيل من أجيال المسلمين»[1].

---

(١) الظلال (١/٤٨٣، ٤٨٤).

❑ **ودرس قبل ذلك من حياة بني إسرائيل وآيات عالية المقام بعيدة الغايات:**

٥٦ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦ـ ٢٥١].

يقص الله علينا في القرآن ـ كتاب هذه الأمة ورائدها الناصح، ومدرستها التي تلّقت فيها دروس تربيتها وإعدادها لقيادة الخليفة، وسنجد في القرآن عجائب لا تخطر على البال الساهي.. سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية تنبض وتتحرك

وتشير إلى معالم الطريق.. وهو دعوة للحياة.. الحياة الدائمة المتجددة.. لا الحياة التاريخية المحدودة في صفحة عابرة من صفحات التاريخ.. وهذا درس من بني إسرائيل لأمة محمد ﷺ بصفتها وارثة العقيدة، ووارثة التجارب في هذا الحقل الخصب.

والعبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها هي أن انتفاضة العقيدة على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف، ومن تخلى للقوم عنها فوجًا بعد فوج في مراحل الطريق - على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جدًّا.. فقد كان فيها النصر والعز والتمكين بعد الهزيمة المنكرة، والمهانة الفاضحة، والتشريد الطويل والذل تحت أقدام المتسلطين، ولقد جاءت لهم بمُلك داود، ثم ملك سليمان -، وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بني إسرائيل في الأرض، وهي عهدهم الذهبي.

وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لانتفاضه العقيدة من تحت الركام، وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت.

وفي خلال التجربة تبرز عظات أخرى جزئية؛ كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة في كل حين؛ من ذلك:

أن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها.. فيجب أن يضعوها على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة.. فقد تقدم الملأ من بني إسرائيل - من ذوي الرأي والمكانة فيهم - إلى نبيهم في ذلك الزمان، يطلبون إليه أن يختار لهم ملكًا يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم، فلما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال وثبات نيتهم قال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ إنها الكلمة اللائقة بنبي، والتأكد اللائق بنبي، فما يجوز أن تكون كلمات الأنبياء وأوامرهم موضع تردد أو عبث أو تراخ.

وهنا ارتفعت درجة الحماسة والفورة إلى الذروة، وذكر الملأ أن هناك من

الأسباب الحافزة للقتال في سبيل الله ما يجعل القتال هو الأمر المتعينَّ الذي لا تردد فيه. ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾؟

ونجد أن الأمر واضح في حسِّهم، مقرر في نفوسهم.. إن أعداءهم أعداء لله ولدين الله، وقد أخرجوهم من ديارهم، وسبوا أبناءهم .. فقتالهم واجب، والطريق الواحدة التي أمامهم هي القتال، ولا ضرورة إلى المراجعة في هذه العزيمة أو الجدل.

ولكن هذه الحماسة الفائرة البالغة في ساعة الرخاء ما لبثت أن انطفأت شعلتها ولم تدم، وتهاوت على مراحل الطريق.. وهذه ظاهرة بشرية، وسمة كل جماعة لا تنضج تربيتها الإيمانية، ولا تبلغ مبلغًا غاليًا في التدريب.

سمة بشرية عامة لا تُغَيِّر منها إلا التربية الإيمانية العالية، الطويلة الأمد، العميقة التأثير. وهي سمة ينبغي للقيادة أن تكون منها على حذر، وأن تحسب حسابها في الطريق الوعر، كي لا تفاجأ بها؛ فيتعاظمها الأمر! فهي متوقعة من الجماعات البشرية التي لم تخلص من الأوشاب، ولم تصهر ولم تطهر من هذه العقابيل.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وصم للكثرة التي تولَّت عن هذه الفريضة ـ بعد طلبها ـ وقبل أن تواجه الجهاد مواجهة عملية.. وصمها بالظلم ـ فهي ظالمة لنفسها، وظالمة لنبيها، وظالمة للحق الذي خذلته وهي تعرف أنه الحق، ثم تتخلى عنه للمبطلين!

ودرس آخر هو أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الفائر في نفوس الجماعات ينبغي أن لا يقف عند الابتلاء الأول.. فمع كثرة بني إسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد أن كُتب عليهم القتال استجابةً لطلبهم، ولم تبق إلا قلة مستمسكة بعهدها مع نبيها.. وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت بعد اللجاج والجدال حول جدارته بالملك والقيادة واختيار اللَّه له.

هاهم أولاء ينغضون رءوسهم، ويلوون أعناقهم، ويجادلون في اختيار اللَّه لطالوت ملكًا عليهم ـ ولقد كشف لهم نبيهم عن أحقيته الذاتية، وعن حكمة اللَّه

في اختياره.

إنه رجل قد اختاره اللَّه ـ فهذه واحدة.. وزاده بسطة في العلم والجسم ـ وهذه أخرى.. ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ فهو ملكه، وهو وحده صاحب التصرف فيه، وهو يختار من عباده من يشاء.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ليس لفضله خازن، وليس لعطائه حد.. وهو الذي يعلم الخير، ويعلم كيف توضع الأمور في مواضعها.

ثم آية آخرى خارقة «**الإتيان بالتابوت**» فانتهى القوم إلى اليقين.

وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة، وكلها واضحة في قيادة طالوت.. تبرز منها خبرته بالنفوس، وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة، وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة.

إن طالوت ـ الذي اصطفاه اللَّه ـ مقدم على معركة، ومعه جيش من أمة مغلوبة عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة، وهو يواجه جيش أمة غالبة، فلا بد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة.. هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة.. الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلى على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء.. فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه، وصموده وصبره؛ صموده أولًا للرغبات والشهوات، وصبره ثانيًا على الحرمان والمتاعب..

واختار هذه التجربة، وهم ـ كما تقول الروايات ـ عطاش؛ ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه ويؤثر العافية .. وصحت فراسته.

﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم، وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف؛ لأنهم

بذرة ضعف وخذلان وهزيمة.. والجيوش ليست بالعدد الضخم، ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الجازمة، والإيمان الثابت المستقيم.

ودلَّت هذه التجربة على أن النيَّة الكامنة وحدها لا تكفي، ولا بد من التجربة العملية، ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها، ودلت كذلك على صلابة عُود القائد المختار الذي لم يهزه تخلُّف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى.. بل مضى في طريقه.

وهنا كانت التجربة قد غربلت جيش طالوت ـ إلى حد ـ، ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾.

لقد صاروا قلة وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته، إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم، ولكنهم أمام الواقع الذي يرونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهة.. إنها التجربة الحاسمة.. تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور.. وهذه لا يصمد لها إلا من اكتمل إيمانهم.. فاتصلت قلوبهم بالله، وأصبحت لهم موازين يستمدونها من واقع إيمانهم غير الموازين التي يستمدها الناس من واقع حالهم!

وهنا برزت الفئة المؤمنة.. القليلة المختارة.. الفئة ذات الموازين الربانية.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

«ظَنَّ» إذا أتت بعدها «أَنَّ» تفيد اليقين ـ أي: أنهم متأكدون.

هكذا.. ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ﴾.. بهذا التكثير ـ فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقو الله. القاعدة: أن تكون الفئة المؤمنة قليلة؛ لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء

والاختبار، ولكنها تكون الغالبة؛ لأنها تتصل بمصدر القوى، ولأنها تُمثِّل القوة الغالبة؛ قوة اللَّه الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، محطم الجبارين، ومخزي الظالمين، وقاهر المتكبرين.

وهم يكلون هذا النصر لله؛ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ .. ويعلِّلونه بعلته الحقيقية: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ .. فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون من اللَّه لمعركة الحق، الفاصلة بين الحق والباطل.

ونمضي مع القصة فإذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله، التي تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء، وتستمد قواتها كلها من إذن الله، وتستمد يقينها كله من الثقة في الله، وإنه مع الصابرين.. إذًا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة الثابتة ـ التي لم تزلزها كثرة العدو وقوته.. مع ضعفها وقلتها.. إذًا هذه الفئة المؤمنة هي التي تقرر مصير المعركة، بعد أن تجدد عهدها مع الله، وتتجه بقلوبها إليه.. وتطلب النصر منه وحده، وهي تواجه الهول الرعيب.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ الآية.

هكذا.. ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضًا من اللَّه يفرغه عليهم فيغمرهم، وينسكب عليهم سكينةً وطمأنينةً واحتمالاً للهول والمشقة. ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ فهي في يده ـ سبحانه ـ يثبتها فلا تترحزح، ولا تتزلزل، ولا تميد. ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

فقد وضح الموقف.. إيمانٌ تجاه كفر.. وحقٌّ إزاء باطل، ودعوةٌ إلى اللَّه لينصر أولياءه المؤمنين على أعدائه الكافرين، فلا تلجلج في الضمير، ولا غبش في التصور، ولا شك في سلامة القصد ووضوح الطريق.

وكانت النتيجة هي التي ترقبوها واستيقنوها. ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

يؤكد النص هذه الحقيقة ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ ليعلمها المؤمنون، أو ليزدادوا بها علمًا، وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجري في هذا الكون، ولطبيعة القوة التي تجريه.

إن المؤمنين ستار القدرة، يفعل اللَّه بهم ما يريد، وينفذ بهم ما يختار .. بإذنه .. ليس لهم من الأمر شيء، ولا حول لهم ولا قوة.. ولكن اللَّه يختارهم لتنفيذ مشيئته .. فيكون منهم ما يريده بإذنه.. وهي حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين.. إنه عبد اللَّه .. اختاره اللَّه لدوره .. وهذه منة من اللَّه وفضل.. وهو يؤدي هذا الدور المختار، ويحقق قدر اللَّه النافذ، ثم يكرمه اللَّه ـ بعد كرامة الاختيار ـ بفضل الثواب، ولولا فضل اللَّه ما فعل، ولولا فضل اللَّه ما أُهيب.. ثم إنه مستيقن من نبل الغاية، وطهارة القصد، ونظافة الطريق.. فليس له في شيء من هذا كله أَرَبٌ ذاتي، إنما هو منفِّذ لمشيئة اللَّه الخيِّرة، قائم بما يريد ـ استحق هذا كله بالنيَّة الطيبة، والعزم على الطاعة، والتوجه إلى اللَّه في خلوص.

العبرة الأخيرة ـ التي تكمن في مصير المعركة ـ أن القلب الذي يتصل باللَّه تتغيَّر موازينه وتصوراته؛ لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود.

يوقن القلب المتصل باللَّه أن ميزان القوى ليس في أيدي الكافرين، إنما هو في يد اللَّه وحده، فيطلب منه النصر، ويناله من اليد التي تملكه وتعطيه.

هكذا تتغير التصورات والموازين عند الاتصال باللَّه حقًّا، وعندما يتحقق في القلب اليقين، وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد اللَّه الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون.

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾:

كان داود عليه السلام فتى صغيرًا من بني إسرائيل، وجالوت كان ملكًا قويًّا وقائدًا مخوفًا، ولكن شاء اللَّه أن يرى القوم أن الأمور لا تجري بظواهرها.. إنما تجري بحقائقها.. وحقائقها يعلمها هو.. ومقاديرها في يده وحده.. فليس عليهم إلا أن

ينهضوا هم بواجبهم، ويفوا لله بعهدهم، ثم يكون ما يريده اللَّه بالشكل الذي يريده.. واللَّه ما أحلى الإشارة في قول الشاعر:

لَا تُـدَبِّـرْ لَـكَ أَمْـرًا فَأُولُو التَّدْبِيرِ هَلْكَى
سَلِّمِ الْأَمْرَ تَجِدْنَا نَحْنُ أَوْلَى بِكَ مِنْكَا

ولقد أراد اللَّه أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير؛ ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف ضعاف، يغلبهم الفتية الصغار، حين يشاء اللَّه أن يقتلهم.

ويكون النصر الأخير للعقيدة الواثقة، لا للقوة المادية، وللإرادة المستعلية، لا للكثرة العددية.. حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى.. إنها ليست المغانم والأسلاب، وليست الأمجاد والهالات.. إنما هو الصلاح في الأرض، والتمكين للخير بالجهاد مع الشر.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾.

لقد كانت الحياة تأسن وتتعفَّن لولا دفع اللَّه الناس بعضهم ببعض.

قال ابن جرير: (٢/٤٠٣، ٤٠٤): «لولا أن اللَّه يدفع ببعض الناس - وهم أهل الطاعة له والإيمان به - بعضًا - وهم أهل المعصية لله والشرك به - كما دفع عن المتخلفين عن طالوت يوم جالوت بمن جاهد معه من أهل الإيمان باللَّه واليقين والصبر جالوت وجنوده - ﴿لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ لهلك أهلها بعقوبة اللَّه إياهم، ولكن اللَّه ذو مَنٍّ على خلقه وتطوُّل عليهم بدفعه بالبر من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي منهم، وبالمؤمن عن الكافر.

وهذه الآية إعلام من اللَّه - تَعَالَى ذكره - أهل النفاق الذين كانوا على عهد رسول اللَّه ﷺ المتخلفين عن مشاهده والجهاد معه؛ للشك الذي في نفوسهم، ومرض قلوبهم، والمشركين وأهل الكفر منهم، وأنه إنما يدفع عنهم معالجتهم العقوبة على كفرهم ونفاقهم بإيمان المؤمنين به وبرسوله الذين هم أهل البصائر والجد في

أمر الله، وذو اليقين بإنجاز اللَّه إياهم وعده على جهاد أعدائه وأعداء رسوله من النصر العاجل والفوز بجنانه في الآخرة.

قال مجاهد: «**ولولا دفع اللَّه بالبار عن الفاجر، ودفعه ببقية أخلاف الناس بعضهم عن بعض لفسدت الأرض بهلاك أهلها**».

● **قراءتان:** ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ﴾، **﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ﴾:**

قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب: ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ﴾، وقرأ الباقون: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ﴾.

واحتج أصحاب القراءة الأولى بأنه مصدر من قول القائل: دافع اللَّه عن خلقه، فهو يدافع مدافعة ودفاعًا، واحتجت لاختيارها بأن كثيرًا من خلقه يعادون أهل دين اللَّه وولايته والمؤمنين به، فهم بمحاربتهم إياهم ومعاداتهم لله مدافعون بباطلهم ومغلوبون بجهلهم، واللَّه مدافعهم عن أوليائه وأهل طاعته والإيمان به.

ومن قرأ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ﴾ فهو على وجه المصدر من قول القائل: دفع اللَّه عن خلقه، فهو يدافع دفعًا، واحتجت لاختيارها بأن اللَّه ـ تَعَالَى ذكره ـ هو المتفرد بالدفع عن خلقه، ولا أحد يدافعه فيغالبه.

قال ابن جرير: «وليس في القراءة بأحد الحرفين إحالة معنى الآخر، وذلك أن من دافع غيره عن شيء فدافعه عنه دافع، ومتى امتنع المدفوع عن الاندفاع فهو لمدافعة مدافع، ولا شك أن جالوت وجنوده كانوا بقتالهم طالوت وجنوده محاولين مغالبة حزب اللَّه وجنده، وكان في محاولتهم ذلك محاولة مغالبة الله، ودفاعه عما قد تضمن لهم من النصر، وذلك هو معنى مدافعة اللَّه عن الذين دافع اللَّه عنهم بمن قاتل جالوت وجنوده من أوليائه».

وتنتصر الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله، فهي الفئة الخيرة البانية، التي استجاش الجهاد أنبل ما فيها وأكرمه، وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة، فهي تمثل أعلى وأغلى غاية.

٥٧ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣﴾ [**محمد: ٢٠ ـ ٢٣**].

قال ابن كثير في «**تفسيره**» (٧٤/١٣):

«يقول ـ تَعَالَى ـ مخبرًا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وأمر به، نكل عنه كثير من الناس؛ كقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧﴾. وقال هاهنا: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ﴾؛ أي: مشتملة على حكم القتال؛ فلهذا قال: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾؛ أي: من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء».

ويقول الطبري:

«يقول الذين صدقوا اللهَ ورسولَهُ: هَلَّا نزلت سورة من اللَّه تأمرنا بجهاد أعداء اللَّه من الكفار، ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ﴾؛ يعني: أنها محكمة بالبيان والفرائض وَذُكِرَ فيها الأمر بقتال المشركين.

قال قتادة: كل سورة ذُكِرَ فيها الجهاد فهي محكمة وهي أشد القرآن على المنافقين.

فإذا أنزلت رأيت الذين في قلوبهم شك في دين اللَّه وضعف ينظرون إليك نظر

المغشي عليه من الموت؛ خوفًا أن تغريهم وتأمرهم بالجهاد مع المسلمين فهم - خوفًا من ذلك وتجبنًا على لقاء العدو - ينظرون إليك نظر المغشي عليه الذي قد صُرِعَ من خوف الموت».

وهو تعبير لا يمكن محاكاته ولا ترجمته إلى أي عبارة أخرى، وهو يرسم الخوف إلى حد الهلع، والضعف إلى حد الرعشة، والتخاذل إلى حد الغشية!!

وهي صورة لكل نفس خوَّارة لا تعتصم بإيمان، ولا بفطرة صادقة، ولا بحياء تتجمَّل به أمام الخطر..

وهي هي طبيعة المرض والنفاق..

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ :

قال ابن جرير: «﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ : وعيد تَوَعَّدَ اللَّه به هؤلاء المنافقين.

عن قتادة قال: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ قال: هذه وعيد فأولى لهم، ثم انقطع الكلام؛ فقال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ قبل وجوب الفرض عليكم، فإذا عزم الأمر كرهتموه وشق عليكم، وقوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ مرفوع بمضمر؛ وهو: قولكم قبل نزول فرض القتال: طاعة وقول معروف.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ : فإذا جَدَّ الأمر، وهو قول مجاهد والحسن.

﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ : فلو صدقوا اللَّه ما وعدوه قبل نزول القتال فوفوا له بذلك، لكان خيرًا لهم في عاجل دنياهم وآجل معادهم.

وقال قتادة: طاعة اللَّه وقول بالمعروف عند حقائق الأمور خير لهم».

وقال ابن الجوزي:

«﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ :

قال الأصمعي: معنى قولهم في التهديد: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ ؛ أي: وَلِيَكَ وَقَارَبَكَ ما تكره.

وقال ابن قتيبة: هذا وعيد وتهديد؛ تقول للرجل ـ إذا أردت به سوءًا ففاتك ـ: أولى لك. ثم ابتدأ، فقال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

وقال سيبويه والخليل: المعنى: طاعة وقول معروف أمثل.

وقال الفرَّاء: الطاعة معروفة في كلام العرب؛ إذا قيل لهم: افعلوا كذلك، قالوا: سمع وطاعة. فوصف اللَّه قولهم قبل أن تنزل السورة أنهم يقولون: سمع وطاعة. فإذا نزل الأمر كرهوا.

قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾:

قال الحسن: جَدَّ الأمر. وقال غيره: جَدَّ رسول اللَّه ﷺ وأصحابه في الجهاد، ولزم فرض القتال، وصار الأمر معروفًا عليه. وجواب «**إذا**» محذوف، تقديره: فإذ عزم الأمر نكلوا؛ يدل على المحذوف ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: في إيمانهم وجهادهم، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من المعصية»[1].

قال ابن كثير (١٣/٧٤): «قال مشجعًا لهم: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾؛ أي: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا؛ أي: في الحال الراهنة، ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: جَدَّ الحال وحضر القتال، ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: أخلصوا له النيّة، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾».

«أولى من هذه الفضيحة، ومن هذا الخور، ومن هذا الهلع، ومن هذا النفاق.. أولى لهم ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾... طاعة تستسلم لأمر اللَّه عن طمأنينة، وتنهض بأمره عن ثقة، وقول معروف يشي بنظافة الحس، واستقامة القلب، وطهارة الضمير. وأولى لهم إذا عزم الأمر، وَجَدَّ الجدُّ، وواجهوا الجهاد أن يصدقوا الله؛ يصدقوه عزيمةً، ويصدقوه شعورًا؛ فيربط على قلوبهم، ويشد من عزائمهم، ويثبت أقدامهم، وييسر المشقة عليهم، ويهون الخطر، ويكتب لهم إحدى الحسنيين: النجاة

(١) زاد المسير (٧/٤٠٦).

والنصر، أو الاستشهاد والجنة، هذا هو الأولى، وهذا هو الزاد الذي يقدمه الإيمان؛ فيقوي العزائم، ويشد القوائم، ويذهب بالفزع، ويحل محله الثبات والاطمئنان» اهـ. من الظلال. ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾:

قال ابن كثير: «**فهل عسيتم إن توليتم عن الجهاد ونكلتم عنه** ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾؛ أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء؛ تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام» اهـ.

٥٨ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [**محمد: ٣١**].

قرأ شعبة: ﴿**وليبلونكم**﴾ و﴿يَعْلَمُ﴾، و﴿يبلو﴾.

وقرأ رويس: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ و﴿نَعْلَمُ﴾، و﴿نبلوْ﴾.

وقرأ الباقون: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾، و﴿نَعْلَمُ﴾، و﴿نبلوَ﴾.

قال ابن جرير: «**ولنبلونكم أيها المؤمنون بالقتل وجهاد أعداء الله**؛ ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ﴾ يقول: حتى يعلم حزبي وأوليائي أهل الجهاد في الله منكم وأهل الصبر على قتال أعدائه؛ فيظهر ذلك لهم، ويُعْرَف ذَوُو البصائر منكم في دينه من ذوي الشك والحيرة فيه، وأهل الإيمان من أهل النفاق، ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾ فنعرف الصادق منكم من الكاذب».

نبلونكم: نختبركم. والبلوى: الاختبار.

وقال ابن الجوزي: «﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾؛ أي: ولنعاملنكم معاملة المُخْتَبِر بأن نأمركم بالجهاد؛ ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ العلم الذي هو علم وجود وبه يقع الجزاء.

قال أبو عبيدة: فَلَيُميزن؛ لأنه قد علم ذلك من قبل.

وقال الثعلبي: فليظهرن ذلك حتى يوجد معلومًا.

واللَّه ـ سبحانه ـ يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا مجمع عليه عند أهل السنة والجماعة.

﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾؛ أي: نظهرها ونكشفها بإباء من يأبى القتال ويصبر على الجهاد»[1].

وقال ابن كثير (١٣/٨٠):

«﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾؛ أي: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي؛ ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾، وليس في تقدم علم اللَّه ـ تَعَالَى ـ بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب؛ فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: إلا لنعلم؛ أي: لنرى».

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾...

هذا وعد من اللَّه بالابتلاء... ابتلاء الأمة الإسلامية كلها؛ لينكشف المجاهدون والصابرين، ويتميزوا، وتصبح أخبارهم معروفة، ولا يقع الالتباس في الصفوف، ولا يبقى مجال لخفاء أمر المنافقين ولا أمر الضعاف والجزعين.

واللَّه يعلم حقائق النفوس معادنها، ويطلع على خفاياها وخباياها، ويعلم ما يكون من أمرها، علمه بما هو كائن فعلًا فما هذا الابتلاء؟ ولمن يكون العلم من ورائه بما ينكشف عنه؟

إن اللَّه ـ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ ـ يأخذ البشر بما هو في طوقهم، وما هو من طبيعتهم واستعدادهم، وهم لا يعلمون عن الحقائق المستكنة ما يعلمه، فلا بد لهم من تكشُّف الحقائق؛ ليدركوها ويعرفوها ويستيقنوها ثم ينتفعوا بها.

والابتلاء بالسراء والضراء، وبالنعماء والبأساء، وبالسعة والضيق، وبالفرج والكرب، كلها تكشف عما هو مخبوء من معادن النفوس، وما هو مجهول من

---

(١) **انظر**: زاد المسير (٦/٢٥٥، ٧/٤١١).

أمرها حتى لأصحابها.

اللهم سترك، اللهم إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا، فاسترنا بسترك الجميل، واجعل تحت الستر ما تحب، فربما سترت على ما تكره.

٥٩ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾ [**محمد: ٤٠**].

قال ابن كثير: «يقول ـ تعَالَى ـ مرشدًا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾؛ أي: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدًا بالسيوف؛ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾؛ أي: أهلكتموهم قتلًا، ﴿فَشُدُّوا۟﴾ الأُسَارَى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيَّرون في أمرهم؛ إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أُسَارَاهُمْ مجانًا، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه.

والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر؛ فإن اللَّه ـ سبحانه ـ عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأُسَارَى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء، والتقلل من القتل يومئذ؛ فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾، ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية المخيِّرة بين مفاداة الأسير والمن عليه منسوخة بقوله ـ تعَالَى ـ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الآية، رواه العوفي عن ابن عباس، وقاله قتادة والضحاك والسدي وابن جريج.

وقال الآخرون ـ وهم الأكثرون ـ: ليست منسوخة.

ثم قال بعضهم: إنما الإمام مُخَيَّر بين المَنِّ على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله.

وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء؛ لحديث قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيط من أُسَارَى بدر.

وقال ثمامة بن أثال لرسول اللَّه ﷺ حين قال له: «**ما عندك يا ثمامة؟**» فقال: إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تمنن تمنن على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تُعْطَ منه ما شئت [(١)].

وزاد الشافعي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ فقال: الإمام مخيَّر بين قتله، أو المنِّ عليه، أو مُفَادَاتِهِ، أو اسْتِرْقَاقِهِ» [(٢)].

«**الوثاق**» اسم من الإيثاق؛ تقول: أوثقته إيثاقًا ووثاقًا، إذا شددت أسره؛ لئلا يفلت.

وهذه الآية محكمة عند عامة العلماء، وممن ذهب إلى أن حكم المنِّ والفداء باقٍ لم يُنْسَخْ: ابن عمر، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، وأحمد، والشافعي.

قال ابن جرير الطبري (٢٦/٢٧):

«والصواب من القول عندنا في ذلك أن هذه الآية محكمة غير منسوخة، وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المن والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ وإلى القائمين من بعده بأمر الأمة، وإن لم يكن القتل مذكورًا في هذه الآية؛ لأنه قد أذن بقتلهم في آية أخرى؛ وذلك قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الآية، بل ذلك كذلك؛ لأن رسول اللَّه ﷺ كذلك كان يفعل فيمن صار أسيرًا في يده من أهل

---

(١) حديث ثمامة رواه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤)، واختصره البخاري في مواضع من «صحيحه» (٤٦٢، ٤٦٩، ٢٤٢٢، ٢٤٢٣).

(٢) تفسير ابن كثير (١٣/٥٩، ٦٠).

الحرب؛ فيقتل بعضًا، ويفادي ببعض، ويمنّ على بعض؛ مثل يوم بدر؛ قتل عقبة بن أبي معيط وقد أُتيَ به أسيرًا، وقتل بني قريظة وقد نزلوا على حكم سعد وصاروا في يده سلمًا، وهو على فدائهم والمنِّ عليهم قادر، وفادى بجماعة أُسَارَى المشركين الذين أُسِرُوا ببدر، وَمَنَّ على ثمامة بن أثال الحنفي وهو أسير في يده، ولم يزل ذلك ثابتًا في سيره في أهل الحرب من لدن أَذِنَ اللَّه له بحربهم إلى أن قبضه إليه ﷺ دائمًا ذلك فيهم، وإنما ذكر ـ جل ثناؤه ـ في هذه الآية المنَّ والفداء في الأُسَارَى، فخصَّ ذكرهما فيها؛ لأن الأمر بقتلهما والإذن منه بذلك قد كان تقدم في سائر آي تنزيله مكررًا؛ فأعلم نبيه ﷺ بما ذكر في هذه الآية من المنِّ والفداء ما له فيهم مع القتل» اهـ.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: حتى تضع آثامها وأثقال أهلها المشركين باللَّه بأن يتوبوا إلى اللَّه من شركهم، فيؤمنوا به وبرسوله ﷺ.

وقيل: حتى تضع الحرب أوزار أهلها، وقيل: حتى يضع المحارب أوزاره.

قال مجاهد: ذلك ظهور للإسلام على الدين كله.

وقال قتادة: حتى لا يكون شرك.

وقالوا: عنى بالحرب مَنْ كان يقاتلهم سماهم حربًا:

عن قتادة ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ الحرب: من كان يقاتلهم، سماهم حربًا.

﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾: «ولو يشاء ربكم لانتصر من هؤلاء المشركين بعقوبة منهم لهم عاجلة، وكفاكم ذلك كله، ولكنه ـ تعَالَى ـ كره الانتصار منهم وعقوبتهم عاجلًا إلَّا بأيديكم أيها المؤمنون.

قال قتادة: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: واللَّه بجنوده الكثيرة، كل خلقه له جند، ولو سلط أضعف خلقه لكان جندًا.

﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾؛ أي: ليختبركم بهم؛ فيعلم المجاهدين منكم

والصابرين، ويبلوهم بكم؛ فيعاقب بأيديكم من شاء منهم، ويتعظ من شاء منهم بمن أهلك بأيديكم من يشاء منهم حتى ينيب إلى الحق.

قال ابن الجوزي في «**زاد المسير**» (٣٩٧/٧):

«﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قال ابن عباس: حتى لا يبقى أحد من المشركين.

وقال مجاهد: حتى لا يكون دين إلا دين الإسلام. وقال سعيد بن جبير: حتى يخرج المسيح. وقال الفراء: حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم» اهـ.

وهي مثل قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾؛ والفتنة هي الشرك.

﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾.

قال ابن كثير (٦٢/١٣): «أي هذا ولو شاء اللَّه لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده، ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء؛ ليختبركم، ويبلو أخباركم».

«إن هؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وأمثالهم في الأرض كلها في كل زمان من البغاة الطغاة المفسدين، الذين يَظْهَرُونَ في ثوب البطش والاستكبار، وَيَتَرَاءَوْنَ لأنفسهم وللضالين من أتباعهم قادرين أقوياء، إن هؤلاء جميعًا حفنة من الخلق تعيش على ظهر هذه الهباءة الصغيرة المسماة بالأرض، بين هذه الكواكب والنجوم والمجموعات الفلكية والمجرات والعوالم التي لا يعلم عددها ولا مداها إلا اللَّه في هذا الفضاء الذي تبدو فيه هذه المجرات والعوالم نُقَطًا متناثرة، تكاد تكون ضائعة، لا يمسكها ولا يجمعها ولا ينسقها إلا الله، فلا يبلغ هؤلاء ومن وراءهم من الأتباع ـ بل لا يبلغ أهل هذه الأرض كلها ـ أن يكونوا نمالًا صغيرة، لا بل إنهم لا يبلغون أن يكونوا هباءً تتقاذفه النسمات، لا بل إنهم لا يبلغون شيئًا أصلًا حين يقفون أمام قوة الله.

إنما يتخذ اللَّه المؤمنين حين يأمرهم بضرب رقاب الكفار وشد وثاقهم بعد

إثخانهم، إنما يتخذهم ـ سبحانه ـ ستارًا لقدرته، ولو شاء لانتصر من الكافرين جهرة؛ كما انتصر من بعضهم بالطوفان والصيحة والريح العقيم، بل لانتصر منهم من غير هذه الأسباب كلها، ولكنه إنما يريد لعباده المؤمنين الخير، وهو يبتليهم، ويربيهم، ويصلحهم، وييسر لهم أسباب الحسنات الكبار.

يريد ليبتليهم، وفي هذا الابتلاء يستجيش في نفوس المؤمنين أكرم ما في النفس البشرية من طاقات واتجاهات، فليس أكرم في النفس من أن يعزَّ عليها الحق الذي تؤمن به حتى تجاهد في سبيله، فَتقتل وتُقتل، ولا تُسَلِّمُ في هذا الحق الذي تعيش له وبه، ولا تستطيع الحياة بدونه، ولا تحب هذه الحياة في غير ظله.

ويريد ليربيهم؛ فيظل يخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة من أعراض هذه الأرض الفانية مما يعزُّ عليهم أن يتخلَّوا عنه، ويظل يقوي في نفوسهم كل ضعف ويكمل كل نقص، وينفي كل زغل ودخل، حتى تصبح رغائبهم كلها في كفة وفي الكفة الأخرى تلبية دعوة اللّٰه للجهاد والتطلع إلى وجه اللّٰه ورضاه، فترجح هذه وتشيل تلك.

ويعلم اللّٰه من هذه النفوس أنها خُيِّرتْ فاختارت، وأنها تربَّتْ فعرفت، وأنها لا تندفع بلا وعي، ولكنها تقدِّر وتختار.

ويريد ليصلحهم، ففي معاناة الجهاد في سبيل الله، والتعرض للموت في كل جولة، ما يعوِّد النفس الاستهانة بهذا الخطر المخوف، الذي يكلف الناس الكثير من نفوسهم وأخلاقهم وموازينهم وقيمهم ليتقوه، وهو هين هين عند من يعتاد ملاقاته، سواء سلم منه أو لاقاه، والتوجه به لله في كل مرة يفعل في النفس في لحظات الخطر شيئًا يقربه للتصور فعل الكهرباء بالأجسام!! وكأنه صياغة جديدة للقلوب والأرواح على صفاء ونقاء وصلاح.

ثم هي الأسباب الظاهرة لإصلاح الجماعة البشرية كلها، عن طريق قيادتها بأيدي المجاهدين الذي فرغت نفوسهم من كل أعراض الدنيا وكل زخارفها،

وهانت عليهم الحياة وهم يخوضون غمار الموت في سبيل الله، ولم يعد في قلوبهم ما يشغلهم عن اللَّه والتطلع إلى رضاه... وحين تكون القيادة في مثل هذه الأيدي تصلح الأرض كلها، ويصلح العباد، ويصبح عزيزًا على هذه الأيدي أن تسلم راية القيادة للكفر والضلال والفساد، وهي قد اشترتها بالدماء والأرواح، وكل عزيز وغال أرخصته لتتسلم هذه الراية لا لنفسها ولكن لله!!

ثم هو بعد ذلك كله تيسير الوسيلة لمن يريد اللهُ بهم الحسن؛ لينالوا رضاه وجزاءه بغير حساب، وتيسير الوسيلة لمن يريد اللهُ بهم السوء؛ ليكسبوا ما يستحقون عليه غضبه وعذابه وفق ما يعلمه من سره ودخيلته»[1] اهـ.

٦٠ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [**العنكبوت: ٦**].

قال ابن جرير الطبري (٢٠/٨٤): «ومن جاهد عدوه من المشركين فإنما يجاهد لنفسه؛ لأنه يفعل ذلك ابتغاء الثواب من اللَّه على جهاده والهرب من العقاب، فليس باللَّه إلى فعله ذلك حاجة؛ وذلك أن اللَّه غني عن جميع خلقه، له الملك والخلق والأمر».

«لا يقفن أحد في وسط الطريق، وقد مضى في الجهاد شوطًا، يطلب من اللَّه ثمن جهاده، ويمنُّ عليه وعلى دعوته، ويستبطئ المكافأة على ما ناله؛ فإن اللَّه لا يناله من جهاده شيء، وليس في حاجة إلى جهد بشر ضعيف هزيل؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وإنما هو فضل من اللَّه أن يعينه في جهاده، وأن يأجره في الآخرة بثوابه».

«من أحسن فنجاة نفسه طلبها وسعادة حاله حصَّلها، ومن أساء فعقوبة نفسه جلبها وشقاوة جدِّه اكتسبها؛ ثواب المطيعين إليهم مصروف، وعذاب العاصين

---

(١) الظلال (٦/٣٢٨٦).

عليهم موقوف، والحق عزيز لا يلحقه بالوفاق زَيْن، ولا يمسه من الشقاق شين».

قال ابن القيم: «جهادهم فيه، إنما هو لأنفسهم، وثمرته عائدة عليهم، وأنه غني عن العالمين، ومصلحة هذا الجهاد ترجع إليهم، لا إليه - سبحانه -، ثم أخبر أنه يدخلهم بجهادهم وإيمانهم في زمرة الصالحين»[1].

٦١- قال - تعالى -: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [**الفرقان: ٥٢**].

قال ابن جرير الطبري (١٩/١٥): «فلا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه من أن تعبد آلهتهم؛ فنذيقك ضِعف الحياة وضِعف الممات، ولكن جاهدهم بهذا القرآن جهادًا كبيرًا حتى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض الله، ويدينوا به، ويذعنوا للعمل بجميعه طوعًا وكرهًا؛ قال ابن عباس: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ قال: بالقرآن. وقال ابن زيد: الإسلام، وقرأ: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، وقرأ: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ وقال: هذا الجهاد الكبير».

- ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾:

قال القرطبي (٧/٧٤٧٤): لا يخالطه فتور.

وقال ابن الجوزي: ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾؛ أي: تامًّا شديدًا.

قال ابن القيم: «فهذه سورة مكية، أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة، والبيان، وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين، إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام»[2].

«إن في هذا القرآن من القوة، والسلطان، والتأثير العميق، والجاذبية التي لا تُقَاوَمُ ما كان يهز قلوبهم هزًّا، ويزلزل أرواحهم زلزالًا شديدًا، فيغالبون أثره بكل وسيلة

---

(١) زاد المعاد، لابن قيم الجوزية (١٧/٣).

(٢) زاد المعاد، لابن القيم (٥/٣).

فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلًا.

ولقد كان كبراء قريش يقولون للجماهير: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ وكانت هذه المقالة تدل على الذعر الذي تضطرب به نفوسهم ونفوس أتباعهم من تأثير هذا القرآن، وهم يرون هؤلاء الأتباع كأنما يُسحرون بين عشية وضحاها من تأثير الآية والآيتين، والسورة والسورتين، يتلوهما محمد بن عبدالله ﷺ فتنقاد إليه النفوس، وتهوي إليه الأفئدة، ولم يقل رؤساء قريش لأتباعهم وأشياعهم هذه المقالة وهم في نجوة من تأثير هذا القرآن، فلولا أنهم أحسوا في أعماقهم هزة روَّعتهم ما أمروا هذا الأمر، وما أشاعوا في قومهم بهذا التحذير الذي هو أدل من كل قول على عمق التأثير!!

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حُدِّثَ: أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمر بن وهب الثقفي حليف بني زهرة، خرجوا ليلة؛ ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسًا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرَّقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم، لأوقعتم في نفسه شيئًا!! ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرَّقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة!! ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرَّقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود!! فتعاهدوا على ذلك ثم تفرَّقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما

عرفت معناها، ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ واللَّه لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه!! قال: فقام عنه الأخنس وتركه».

فهكذا كانوا يغالبون أنفسهم أن تهفوا إلى هذا القرآن فتغلبهم، لولا أن يتعاهدوا وهم يحسون ما يتهدَّد زعامتهم، لو اطلع عليهم الناس، وهم مأخوذون شبه مسحورين!!

وإن في هذا القرآن من الحق الفطري البسيط لَمَا يصل القلبَ مباشرة بالنبع الأصيل؛ فيصعب أن يقف لهذا النبع الفوَّار، وأن يصدَّ عنه تدفق التيار، وأن فيه من مشاهد القيامة، ومن القصص، ومن مشاهد الكون الناطقة، ومن مصارع الغابرين، ومن قوة التشخيص والتمثيل لَمَا يهز القلوب هزًّا لا تملك معه قرارًا، وإن السورة الواحدة لتهز الكيان الإنساني في بعض الأحيان، وتأخذ على النفس أقطارها ما لا يأخذه جيش ذو عدة وعتاد!!

فلا عجب مع ذلك أن يأمر اللَّه نبيه ألا يطيع الكافرين، وألا يتزحزح عن دعوته، وأن يجاهدهم بهذا القرآن، فإنما يجاهدهم بقوة لا يقف لها كيان البشر ولا يثبت لها جدال أو محال»[1].

ولله در الإمام الصنعاني وهو يقول:

تلا «فُصِّلَتْ» لما أتاه مجادل[2] فأبلس حتى ما يكون جواب

أقرَّ بأن القول فيه طلاوة ويعلو ولا يعلو عليه خطاب

---

(١) الظلال (٥/٢٥٧١، ٢٥٧٢).

(٢) هو: الوليد بن المغيرة المخزومي.

وقام عتبة بن ربيعة لما تَلَا عليه رسول اللّه ﷺ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ فأمسك عتبة على فيه[1] وناشده الرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، واحتبس عنهم.

وفي رواية أنه رجع لقومه فقال: «**خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فواللّه ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ**».

لقد غلب القرآن عقولهم، وعجزوا عن مغالبة أثر القرآن في أنفسهم، وفرَّق بين الوالد وولده، والزوج وزوجه، لقد كان القرآن يفرِّق نَعَمْ؛ ولكن بفرقان اللّه بين الكفر والإيمان، والهدى والضلال، كان يستخلص القلوب له، فلا تحفل بوشيجة غير وشيجته؛ فكان هو الفرقان.

عجزوا عن مواجهته بالحجة والمقارعة بالبرهان، كانوا يلغون بالسجع والرجز، ولكن هذا كله ذهب أدراج الرياح وغلب القرآن؛ لأنه يحمل سر الغلب، إنه الحق.. والحق غالب مهما جهد المبطلون!!

٦٢ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [**محمد: ٧**].

قال ابن جرير الطبري في «**تفسيره**» (٢٦/٢٩):

«يقول ـ تعَالَى ذِكْرُهُ ـ: يأيها الذين صدَّقوا اللّه ورسوله، إن تنصروا اللّه بنصركم رسوله محمدًا ﷺ على أعدائه من أهل الكفر به وجهادكم إياهم معه لتكون كلمته العليا، ينصركم عليهم ويظفركم بهم؛ فإنه ناصِرُ دينِهِ وأوليائِهِ.

قال قتادة: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ ؛ لأنه حَقٌّ على اللّه أن يعطي من سأله وينصر من نصره.

﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ يقول: ويقوّكم عليهم ويجرئكم حتى لا تولوا عنهم وإن

(١) فم رسول اللّه ﷺ.

كثر عددهم وَقَلَّ عددكم» اهـ.

«كيف ينصرُ المؤمنون اللهَ، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت؟ إن لله في نفوسهم أن تتجرد له، وألا تشرك به شيئًا، شركًا ظاهرًا أو خفيًّا، وألا تستبقي فيها معه أحدًا ولا شيئًا، وأن يكون اللَّه أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى، وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها، وسرها وعلانيتها، ونشاطها كله وخلجاتها.. فهذا نصر اللَّه في ذوات النفوس.

وإن لله شريعةً ومنهاجًا للحياة، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة، ونصر اللَّه يتحقق بنصر شريعته ومنهاجه، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء، فهذا نصر اللَّه في واقع الحياة، ونقف لحظة أمام قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾، وفي كلتا الحالتين ـ حالة القتل وحالة النصرة ـ يشترط أن يكون هذا لله وفي سبيل الله، وهي لفتة بديهية، ولكن كثيرًا من الغبش يغطي عليها عندما تنحرف العقيدة في بعض الأجيال، وعندما تمتهن كلمات الشهادة والجهاد وترخص، وتنحرف عن معناها الوحيد القويم، إنه لا جهاد، ولا شهادة، ولا جنة، إلا حين يكون الجهاد في سبيل اللَّه وحده، والموت في سبيله وحده، والنصرة له وحده، في ذات النفس وفي منهج الحياة، لا جهاد ولا استشهاد ولا جنة إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة اللَّه هي العليا.

عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سُئِلَ رسول اللَّه ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء.. أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: **«من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل الله»**[١].

ليس هنالك راية أخرى أو هدف آخر يجاهد في سبيله من يجاهد، ويُستشهد

(١) أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي.

دونه من يُستشهد، فيحق له وعد اللَّه بالجنة إلا تلك الراية وإلا هذا الهدف من كل ما يرَوج في الأجيال المنحرفة التصور من رايات وأسماء وغايات!!

وَبَعْدُ، فهذا شرط اللَّه على الذين آمنوا؛ فأما شرطه لهم فهو النصر وتثبيت الأقدام وعد اللَّه لا يخلفه، فإذا تخلَّف فترة، فهو أجل مقدر لحكمة أخرى تتحقق مع تحقق النصر والتثبيت، ذلك حين يصح أن المؤمنين وفوا بالشرط ثم تخلف عنهم - فترة - نصر الله.

ثم نقف لحظة أمام لفتة خاصة في التعبير: ﴿يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ، إن الظن يذهب لأول وهلة أن تثبيت الأقدام يسبق النصر، ويكون سببًا فيه، وهذا صحيح، ولكن تأخير ذكره في العبارة يوحي بأن المقصود معنى آخر من معاني التثبيت، معنى التثبيت على النصر وتكاليفه؛ فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر والإيمان، وبين الحق والضلال، فللنصر تكاليفه في ذات النفس وفي واقع الحياة.. للنصر تكاليفه في عدم الزهو به والبطر، وفي عدم التراخي بعده والتهاون، وكثير من النفوس يثبت على المحنة والبلاء، ولكن القليل هو الذي يثبت على النصر والنعماء، وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر، ولعل هذا هو ما تشير إليه عبارة القرآن، واللَّه أعلم»[1].

نصرة اللَّه للعبد بإعلاء كلمته، وقمع أعداء الدين ببركات سَعْيِهِ وَهِمَّتِهِ.

﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ بإدامة التوفيق؛ لئلا ينهزم من صولة أعداء الدين.

٦٣- قال - تعالَى -: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤٤].

لا يقعدن بكم حب الحياة وحذر الموت عن الجهاد في سبيل الله.

قاتلوا في سبيل اللَّه لا في سبيل غاية أخرى، وتحت راية اللَّه لا تحت راية أخرى.

---

(١) الظلال (٣٢٨٩/٦).

والله يسمع ويعلم..

قاتلوا في سبيل الله، وليس هناك عمل ضائع عند الله واهب الحياة وآخذ الحياة.

ومن اللفتة الجميلة أن الله أفرد للجهاد سورة سماها سورة القتال أو سورة محمد؛ فهو نبي الملاحم ﷺ، وسورة أخرى هي الأنفال، وثالثة هي التوبة.. وفيها من الإشارة ما فيها، فليتعظ امرؤ ويثامن بنفسه ويبذلها في أعلى الغايات وأسمى الأمنيات؛ عساه يلحق بالركب والقافلة.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٣].

لقد جاءت هذه العقيدة في صورتها الأخيرة التي جاء بها الإسلام؛ لتكون قاعدة للحياة البشرية في الأرض من بعدها، ولتكون منهجًا عامًّا للبشرية جميعها، ولتقوم الأمة المسلمة بقيادة البشرية في طريق الله وفق هذا المنهج المنبثق من التصور الكامل الشامل لغاية الوجود كله ولغاية الوجود الإنساني، كما أوضحهما القرآن الكريم المنزل من عند الله؛ قيادتها إلى هذا الخير الذي لا خير غيره في مناهج الجاهلية جميعًا، ورفعها إلى هذا المستوى الذي لا تبلغه إلا في ظل هذا المنهج، وتمتيعها بهذه النعمة التي لا تعدلها نعمة، والتي تفقد البشرية كل نجاح وكل فلاح حين تحرم منها، ولا يعتدي عليها معتد بأكثر من حرمانها من هذا الخير والحيلولة بينها وبين ما أراده لها خالقها من الرفعة والنظافة والسعادة والكمال.

ومن ثَمَّ كان من حق البشرية أن تبلغ إليها الدعوة إلى هذا المنهج الإلهي الشامل، وألا تقف عقبة أو سلطة في وجه التبليغ بأي حال من الأحوال.

ثم كان من حق البشرية كذلك أن يُتْرَكَ الناسُ بعد وصول الدعوة إليهم أحرارًا في اعتناق هذا الدين؛ لا تصدهم عن اعتناقه عقبة أو سلطة، فإذا أبى فريق منهم أن يعتنقه بعد البيان، لم يكن له أن يصد الدعوة عن المضي في طريقها، وكان عليه أن يعطي من العهود ما يكفل لها الحرية والاطمئنان وما يضمن للجماعة المسلمة المضي في طريق التبليغ بلا عدوان.

فإذا اعتنقها من هداهم اللَّه إليها كان من حقهم ألا يُفتنوا عنها بأي وسيلة من وسائل الفتنة؛ لا بالأذى، ولا بالإغراء، ولا بإقامة أوضاع من شأنها صد الناس عن الهدى وتعويقهم عن الاستجابة، وكان من واجب الجماعة المسلمة أن تدفع عنهم بالقوة من يتعرض لهم بالأذى والفتنة؛ ضمانًا لحرية العقيدة، وكفالةً لأمن الذين هداهم الله، وإقرارًا لمنهج اللَّه في الحياة، وحمايةً للبشرية من الحرمان من ذلك الخير العام.

وينشأ عن تلك الحقوق الثلاثة واجبٌ آخرُ على الجماعة المسلمة؛ وهو: أن تحطم كل قوة تعترض طريق الدعوة وإبلاغها للناس في حرية، أو تهدد حرية اعتناق العقيدة، وتفتن الناس عنها، وأن تظل تجاهد حتى تصبح الفتنة للمؤمنين باللَّه غير ممكنة لقوة في الأرض، ويكون الدين لله، لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان، ولكن بمعنى استعلاء دين اللَّه في الأرض؛ بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول، ولا يخاف قوة في الأرض تصده عن دين اللَّه أن يبلغه، وأن يستجيب له، وأن يبقى عليه، وبحيث لا يكون في الأرض وضع أو نظام يحجب نور اللَّه وهداه عن أهله، ويضلهم عن سبيل اللَّه بأية وسيلة وبأية أداة.

وفي حدود هذه المبادئ العامة كان الجهاد في الإسلام.. وكان لهذه الأهداف العليا وحدها غير متلبسة بأي هدف آخر، ولا بأي شارة أخرى.

إنه الجهاد للعقيدة؛ لحمايتها من الحصار، وحمايتها من الفتنة، وحماية منهجها وشريعتها في الحياة، وإقرار رايتها في الأرض بحيث يرهبها من يهم بالاعتداء عليها

قبل الاعتداء، وبحيث يلجأ إليها كل راغب فيها لا يخشى قوة أخرى في الأرض تتعرض له أو تمنعه أو تفتنه.

وهذا هو الجهاد الوحيد الذي يأمر به الإسلام، ويقره، ويثيب عليه، وَيَعتبر الذين يُقتلون فيه شهداء، والذين يحتملون أعباءه أولياء»[1].

﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾.

إنه القتال لله، لا لأي هدف آخر من الأهداف التي عرفتها البشرية في حروبها الطويلة.

القتال في سبيل الله، لا في سبيل الأمجاد والاستعلاء في الأرض، ولا في سبيل المغانم والمكاسب، ولا في سبيل الأسواق والخامات، ولا في سبيل تسويد طبقة على طبقة أو جنس على جنس..

إنما هو القتال لتلك الأهداف المحددة التي من أجلها شُرِعَ الجهاد في الإسلام.

القتال لإعلاء كلمة اللّه في الأرض، وإقرار منهجه في الحياة، وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم، أو أن يجرفهم الضلال والفساد، وما عدا هذه فهي حرب غير مشروعة في حكم الإسلام، وليس لمن يخوضها أجر عند اللّه ولا مقام.

ومع تحديد الهدف تهديد المدى.

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾..

والعدوان يكون بتجاوز المحاربين المعتدين إلى غير المحاربين من الآمنين المسالمين الذين لا يشكلون خطرًا على الدعوة الإسلامية ولا على الجماعة المسلمة؛ كالنساء والأطفال والشيوخ والعباد المنقطعين للعبادة من أهل كل ملة ودين.. كما يكون بتجاوز آداب القتال التي شَرَعَهَا الإسلام وَوَضَعَ بها حدًّا للشناعات التي عرفتها حروب الجاهليات الغابرة والحاضرة على السواء.. تلك الشناعات التي ينفر منها

---

(١) الظلال (١/١٨٦، ١٨٧).

حس الإسلام، وتأباها تقوى الإسلام.

● **وهذه طائفة من أحاديث الرسول ﷺ ووصايا أصحابه، تكشف عن طبيعة هذه الآداب، التي عرفتها البشرية أول مرة على يد الإسلام.**

عن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: «**وُجِدَتْ امرأةٌ مقتولة في بعض مغازي رسول اللَّه ﷺ ؛ فنهى رسول اللَّه ﷺ عن قتل النساء والصبيان**»[١]...

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه**»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**بعثنا رسول اللَّه ﷺ فقال: إن وجدتم فلانًا وفلانًا - رجلين من قريش - فأحرقوهما بالنار. فلما أردنا الخروج قال: كنت أمرتكم أن تحرقوا فلانًا وفلانًا، وإن النار لا يعذب بها إلا اللَّه - تَعَالَى -؛ فإن وجدتموهما فاقتلوهما**»[٣].

وعن عبداللَّه بن يزيد الأنصاري رضي الله عنه قال: «**نهى رسول اللَّه ﷺ عن النُّهْبَى والمثلة**»[٤].

وعن بريدة قال: «**كان رسول اللَّه ﷺ إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى اللَّه - تَعَالَى -، وبمن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال له: اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا**»[٥].

وروى مالك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنه قال في وصيته لجنده: «ستجدون قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له، ولا تَقْتُلُنَّ

---

(١) أخرجه مالك والشيخان وأبو داود والترمذي.

(٢) أخرجه الشيخان.

(٣) أخرجه الشيخان، وأبو داود، والترمذي.

(٤) أخرجه البخاري.

(٥) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي.

امرأة ولا صبيًا ولا كبيرًا هرمًا».

فهذه هي الحرب التي يخوضها الإسلام.. وهذه هي آدابه فيها.. وهذه هي أهدافه منها.. وهي تنبثق من ذلك التوجيه القرآني الجليل.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾.

وقد كان المسلمون يعلمون أنهم لا يُنصرون بعددهم - فعددهم قليل -، ولا يُنصرون بعدتهم وعتادهم - فما معهم منه أقل مما مع أعدائهم -؛ إنما هم يُنصرون بإيمانهم وطاعتهم وعون اللَّه لهم، فإذا هم تخلوا عن توجيه اللَّه لهم وتوجيه رسول اللَّه ﷺ فقد تخلوا عن سبب النصر الوحيد الذي يرتكنون إليه؛ ومن ثَمَّ كانت تلك الآداب مرعية حتى مع أعدائهم الذين فتنوهم ومثلوا ببعضهم أشنع التمثيل.. ولما فَارَ الغضب برسول اللَّه ﷺ ؛ فأمر بحرق فلان وفلان - رجلين من قريش -، عاد فنهى عن حرقهما؛ لأنه لا يحرق بالنار إلا اللهُ.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٢﴾.

إن الفتنة عن الدين اعتداء على أقدس ما في الحياة الإنسانية؛ ومن ثَمَّ فهي أشد من القتل، أشد من قتل النفس وإزهاق الروح وإعدام الحياة، ويستوي أن تكون هذه الفتنة بالتهديد والأذى الفعلي، أو بإقامة أوضاع فاسدة من شأنها أن تضل الناس وتفسدهم وتبعدهم عن منهج الله، وتزين لهم الكفر به أو الإعراض عنه.

وأقرب الأمثلة على هذا هو النظام الشيوعي الذي يحرم تعليم الدين ويبيح تعليم الإلحاد، ويسن تشريعات تبيح المحرمات؛ كالزنا والخمر، ويحسنها للناس بوسائل التوجيه، بينما يُقَبِّحُ لهم اتباع الفضائل المشروعة في منهج الله، ويجعل من هذه الأوضاع فروضًا حتمية لا يملك الناس التفلت منها.

وهذه النظرة الإسلامية لحرية العقيدة، وإعطاؤها هذه القيمة الكبرى في حياة البشرية.. هي التي تتفق مع طبيعة الإسلام، ونظرته إلى غاية الوجود الإنساني؛ فغاية الوجود الإنساني هي العبادة ـ ويدخل في نطاقها كل نشاط خير يتجه به صاحبه إلى الله ـ، وأكرم ما في الإنسان حرية الاعتقاد؛ فالذي يسلبه هذه الحرية، ويفتنه عن دينه فتنة مباشرة أو بالواسطة يجني عليه ما لا يجني عليه قاتل حياته؛ ومن ثَمَّ يدفعه بالقتل..

لذلك لم يقل: وقاتلوهم، إنما قال: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾.. ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: حيث وجدتموهم في أية حالة كانوا عليها، وبأية وسيلة تملكونها، مع مراعاة أدب الإسلام في عدم المثلة أو الحرق بالنار.

ولا قتال عند المسجد الحرام، الذي كتب الله له الأمن، وجعل جواره آمنًا؛ استجابة لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام، وجعله مثابة يثوب إليها الناس؛ فينالون فيه الأمن والحرمة والسلام..

لا قتال عنه المسجد الحرام إلا للكافرين الذين لا يرعون حرمته، فيبدءون بقتال المسلمين عنده؛ وعند ذلك يقاتلهم المسلمون ولا يكفون عنهم حتى يقتلوهم؛ فذلك هو الجزاء اللائق بالكافرين، الذين يفتنون الناس عن دينهم، ولا يرعون حرمة للمسجد الحرام، الذي عاشوا في جواره آمنين.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾.

والانتهاء الذي يستأهل غفران الله ورحمته هو الانتهاء عن الكفر، لا مجرد الانتهاء عن قتال المسلمين أو فتنتهم عن الدين؛ فالانتهاء عن قتال المسلمين وفتنتهم قصاراه أن يهادنهم المسلمون، ولكنه لا يؤهل لمغفرة الله ورحمته؛ فالتلويح بالمغفرة والرحمة هنا يقصد به إطماع الكفار في الإيمان؛ لينالوا المغفرة والرحمة بعد الكفر والعدوان.

وما أعظم الإسلام، وهو يلوح للكفار بالمغفرة والرحمة، ويسقط عنهم

القصاص والدية بمجرد دخولهم في الصف المسلم، الذي قتلوا منه وفتنوا، وفعلوا بأهله الأفاعيل!!!

وغاية القتال هي ضمانة ألا يُفتن الناس عن دين الله، وألا يُصرفوا عنه بالقوة أو ما يشبهها؛ كقوة الوضع الذي يعيشون فيه بوجه عام، وتُسلط عليهم فيه المغريات والمضللات والمفسدات؛ وذلك بأن يعز دين الله، ويقوي جانبه، ويهابه أعداؤه؛ فلا يجرءوا على التعرض للناس بالأذى والفتنة، ولا يخشى أحدٌ يريد الإيمان أن تصده عنه قوة أو أن تُلْحِقَ به الأذى والفتنة..

والجماعة المسلمة مكلفة ـ إِذَنْ ـ أن تظل تقاتل حتى تقضي على هذه القوى المعتدية الظالمة، وحتى تصبح الغلبة لدين الله والمنعة..

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾.

وإذا كان النص ـ عند نزوله ـ يواجه قوة المشركين في شبه الجزيرة، وهي التي كانت تفتن الناس، وتمنع أن يكون الدين لله، فإن النص عام الدلالة، مستمر التوجيه، والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة؛ ففي كل يوم تقوم قوة ظالمة تصد الناس عن الدين، وتحول بينهم وبين سماع الدعوة إلى الله، والاستجابة لها عند الاقتناع، والاحتفاظ بها في أمان.. والجماعة المسلمة مكلفة في كل حين أن تحطم هذه القوة الظالمة، وتطلق الناس أحرارًا من قهرها، يستمعون ويختارون ويهتدون إلى الله.

وهذا التكرار في الحديث عن منع الفتنة بعد تفظيعها واعتبارها أشد من القتل.. هذا التكرار يوحي بأهمية هذا الأمر في اعتبار الإسلام؛ وينشئ مبدأ عظيمًا، يعني في حقيقته ميلادًا جديدًا للإنسان على يد الإسلام، ميلادًا تتقرر فيه قيمة الإنسان بقيمة عقيدته، وتوضع حياته في كفة وعقيدته في كفة؛ فترجح كفة العقيدة.

كذلك يتقرر في هذا المبدأ من هم أعداء الإنسان... إنهم أولئك الذين يفتنون مؤمنًا عن دينه، ويؤذون مسلمًا بسبب إسلامه.. أولئك الذين يحرمون البشرية

أكبر عنصر للخير ويحولون بينها وبين منهج الله.. وهؤلاء على الجماعة المسلمة أن تقاتلهم وأن تقتلهم حيث وجدتهم؛ ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾.

وهذا المبدأ العظيم الذي سَنَّهُ الإسلام في أوائل ما نزل من القرآن عن القتال ما يزال قائمًا، وما تزال العقيدة تواجه مَن يعتدون عليها وعلى أهلها في شتى الصور، وما يزال الأذى والفتنة تلم بالمؤمنين أفرادًا وجماعات وشعوبًا كاملة في بعض الأحيان.. وكل من يتعرض للفتنة في دينه والأذى في عقيدته في أية صورة من الصور، وفي أي شكل من الأشكال مفروض عليه أن يقاتل، وأن يحقق المبدأ العظيم الذي سَنَّهُ الإسلام؛ فكان ميلادًا جديدًا للإنسان..

فإذا انتهى الظالمون عن ظلمهم؛ وكفوا عن الحيلولة بين الناس وربهم، فلا عدوان عليهم - أي: لا مناجزة لهم -؛ لأن الجهاد إنما يُوَجَّهُ إلى الظلم والظالمين..
﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

ويسمى دفع الظالمين ومناجزتهم عدوانًا من باب المشاكلة اللفظية، وإلا فهو العدل والقسط ودفع العدوان عن المظلومين»[2].

٦٤- قال - تعالى -: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ **[آل عمران: ١٣]**.

قرأ نافع، ويعقوب، وأبو جعفر: ﴿تَرَوْنَهُم﴾.

وقرأ الباقون: ﴿يَرَوْنَهُم﴾.

قال ابن جرير في «**تفسيره**» (٣/١٢٩ - ١٣٣):

«قل: يا محمد للذين كفروا من اليهود الذين بين ظهراني بلدك: قد كان لكم

---

(١) نزل فيما بعد في سورة براءة الأمرُ بقتال المشركين كافة.

(٢) الظلال (١/١٨٩ - ١٩١).

علامة ودلالة على صدق ما أقول أنكم ستغلبون وعبرة».

«قد كان لكم آيةٌ يا معشر اليهود في فئتين التقتا؛ إحداهما تقاتل في سبيل اللَّه وأخرى كافرة يراهم المسلمون مثليهم رأي أعينهم، فأيدنا المسلمة ـ وهم قليلٌ عددُهُمْ ـ على الكافرة ـ وهم كثيرٌ عددُهُمْ ـ حتى ظفروا بهم، مُعْتَبَرٌ وَمُتَفَكَّرٌ، واللَّه يقوي بنصره من يشاء.

﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ قال ابن عباس: أصحاب رسول اللَّه ﷺ ببدر ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ فئة قريش الكفار. وبمثل هذا القول قال الربيع ومجاهد وعكرمة.

وعلى قراءة من قرأ: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ يرى المسلمون الذين يقاتلون في سبيل اللَّه الجماعةَ الكافرةَ مثليْ المسلمين في القدر».

قال عبداللَّه بن مسعود: «نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلًا واحدًا، وذلك قول اللَّه ﷻ: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ فهذا أحد معنيي التقليل، والمعنى الآخر منه التقليل الثاني، على ما قاله ابن مسعود، وهو أن أراهم عدد المشركين مثل عددهم لا يزيدون عليهم».

فالنصر راجع إلى تأييد اللَّه وتدبيره.. وفي هذا تخذيل للذين كفروا وتهديد، كما أن فيه تثبيتًا للذين آمنوا، وتهوينًا من شأن أعدائهم، فلا يرهبونهم.

وما يزال القرآن يعمل بحقيقته الكبيرة، وبما يتضمنه من مثل هذه الحقيقة.. إن وعد اللَّه بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج اللَّه قائم في كل لحظة، ووعد اللَّه بنصر الفئة المؤمنة ـ ولو قلَّ عددها ـ قائم في كل لحظة، وتوقف النصر على تأييد اللَّه الذي يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تُنسخ، وسنة ماضية لم تتوقف.

وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة، وتثق في ذلك الوعد،

وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة، وتصبر حتى يأذن الله، ولا تستعجل، ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب في علم الله، المدبر بحكمته، المؤجل لموعده.

٦٥ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

يقول ابن جرير في تفسيره: «الذين صدقوا اللَّه ورسوله وأيقنوا بموعود اللَّه لأهل الإيمان به ﴿يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ في طاعة اللَّه ومنهاج دينه وشريعته التي شرعها لعباده. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: والذين جحدوا وحدانية الله، وكذبوا رسوله وما جاءهم به من عند ربهم ﴿يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾؛ يعني: في طاعة الشيطان وطريقه ومنهجه الذي شرعه لأوليائه من اللَّه الكفر بالله.

﴿فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾: يقول اللَّه مقوِّيًا عزم المؤمنين من أصحاب رسول اللَّه ﷺ ومحرِّضهم على أعدائه وأعداء دينه من أهل الشرك به: فقاتلوا أيها المؤمنون أولياءَ الشيطان الذين يتولونه، ويطيعون أمره في خلاف طاعة اللَّه والتكذيب به، وينصرونه.

﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾؛ يعني: بكيده ما كاد به المؤمنين من تحزيبه أولياءه ـ من الكفار باللَّه ـ على رسوله. وأولياؤه: أهل الإيمان به.

يقول: فلا تهابوا أولياء الشيطان، فإنما هم حزبه وأنصاره، وحزب الشيطان أهل وهن وضعف، وإنما وصفهم اللَّه ـ جل ثناؤه ـ بالضعف؛ لأنهم لا يقاتلون رجاء ثواب، ولا يتركون القتال خوف عقاب، وإنما يقاتلون حمية، أو حسدًا للمؤمنين على ما آتاهم اللَّه من فضله. والمؤمنون يقاتلُ مَنْ قَاتَلَ منهم رجاء العظيم من ثواب الله، ويترك القتال إن تركه على خوف من وعيد اللَّه في تركه، فهو يقاتل على بصيرة بماله عند اللَّه إنْ قُتل، وبما له من الغنيمة والظفر إنْ سلم. والكافر يُقاتل على

حذر من القتل، وإياس من معاد، فهو ذو ضعف وخوف»[١].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لتحقيق منهجه، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾؛ لتحقيق مناهج شتى، وإقرار شرائع شتى غير منهج اللَّه وشريعته، وإقامة قيم شتى غير التي أذن اللَّه بها، ونصب موازين شتى غير ميزان الله!

وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد، مقتنعي الوجدان بأنهم يخوضون معركة لله، ليس لأنفسهم منها نصيب، ولا لذواتهم منها حظ، وليست لقومهم، ولا لجنسهم، ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شيء، إنما هي لله وحده، وأنهم يواجهون قومًا أهلَ باطل، يقاتلون لتغليب الباطل على الحق، ولتغليب شرائع البشر على شرع الله، ولتغليب ظلم البشر على عدل الله.

ومن هنا يتقرر مصير المعركة في حس المؤمنين، وتتحدد نهايتها قبل أن يدخلوها، سواء بعد ذلك استشهد المؤمن في المعركة - فهو واثق من النتيجة - أم بقي حتى غلب، ورأى بعينيه النصر، فهو واثق من الأجر العظيم.

من هذا التصور الحقيقي للأمر في كلتا حالتيه، انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التي حفظها تاريخ الجهاد في سبيل اللَّه في حياة الجماعة المسلمة الأولى، والتي تناثرت على مدى التاريخ في أجيال كثيرة.. ومن هذا التصور كان ذلك المد الإسلامي العجيب في أقصر فترة عُرفت في التاريخ، فقد كان هذا التصور جانبًا من جوانب التفوق الذي حققه المنهج الرباني للجماعة المسلمة - وبناء هذا التصور ذاته كان طرفًا من المعركة الكلية الشاملة التي خاضها القرآن في نفوس المؤمنين وهو يخوض بهم المعركة مع أعدائهم المتفوقين في العدد والعدة والمال، ولكنهم في هذا الجانب كانوا متخلفين، فأمسوا مهزومين.

---

(١) تفسير الطبري (٥/١٠٧، ١٠٨).

٦٦ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

قال ابن جرير: «يقول ـ تعَالَى ذكره ـ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ ﷺ، وأتباعه من أصحابه الذين هم على دينه ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾؛ غليظة عليهم قلوبهم، قليلة بهم رحمتهم، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾؛ يقول: رقيقة قلوب بعضهم لبعض، لينة أنفسهم لهم، هينة عليهم، ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا﴾ أحيانًا لله في صلاتهم، ﴿سُجَّدًا﴾ أحيانًا ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ يقول: يلتمسون ـ بركوعهم وسجودهم وشدتهم على الكفار ورحمة بعضهم بعضًا ـ ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وذلك رحمته إياهم بأن يتفضل عليهم فيدخلهم جنته».

هذه نقاط ارتكاز أصيلة في حياة المؤمنين، تبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة في الصور الوضيئة.. وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات، وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها.. التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة.

إرادة التكريم واضحة، وهو يسجِّل لهم في اللقطة الأولى أنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾. ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ وفيهم آباؤهم، وإخوانهم، وذو قرابتهم وصحبتهم، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعًا.

﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ وهم ـ فقط ـ إخوة دين.. فهي الشدة لله، والرحمة لله.. وهي الحمية للعقيدة، والسماحة للعقيدة، فليس لهم في أنفسهم شيء، ولا لأنفسهم فيهم شيء، وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها، يشتدون على أعدائهم فيها، ويلينون لإخوتهم فيها. قد تجردوا من الأنانية، ومن الهوى، ومن الانفعال لغير الله.

٦٧ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ [محمد: ٣٥].

قال ابن جرير: «يقول ـ تعَالَى ذكره ـ: فلا تضعفوا ـ أيها المؤمنون بالله ـ عن

جهاد المشركين وتجبنوا عن لقائهم.

عن مجاهد ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾؛ قال: لا تضعفوا. قال ابن زيد: لا تضعف أنت.

﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾؛ يقول: لا تضعفوا عنهم، وتدعوهم إلى الصلح والمسالمة وأنتم القاهرون لهم والعالون عليهم. ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾: والله معكم بالنصر لكم عليهم.

قال قتادة في قوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾؛ قال: لا تكونوا أولى الطائفتين صرعت لصاحبتها ودعتها إلى الموادعة، وأنتم أولى بالله منهم، والله معكم.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾؛ قال قتادة: أنتم أولى بالله منهم.

وقال مجاهد: الغالبون.

قال ابن زيد في قوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾: هذا منسوخ، قال: نسخه القتال والجهاد. يقول: لا تضعف أنت، وتدعوهم أنت إلى السلم وأنت الأعلى. قال: وهذا حين كانت العهود والهدنة فيما بينه وبين المشركين قبل أن يكون القتال.. يقول: لا تهن فتضعف، فيرى أنك تدعو إلى السلم، وأنت فوقه وأعزّ منه، ثم جاء القتال بعد فنسخ هذا أجمع، فأمره بجهادهم والغلظة عليهم.

وقد قيل: عنى بقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾: وأنتم الغالبون آخر الأمر وإن غلبوكم في بعض الأوقات وقهروكم في بعض الحروب.

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾؛ قال ابن عباس: لن يظلمكم أجور أعمالكم.

وقال مجاهد: لن ينقصكم، وعن قتادة مثله.

من قولهم: وترت الرجل إذا قتلت له قتيلًا، فأخذت له مالًا غصبًا»[١].

(١) تفسير ابن جرير (٢٦/٤٠).

❑ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم:**

هذا الذي يحذر المؤمنين إياه. وهذا التحذير يشي بوجود أفراد من المسلمين كانوا يستثقلون تكاليف الجهاد الطويل ومشقته الدائمة؛ وتهن عزائمهم دونه، ويرغبون في السلم والمهادنة؛ ليستريحوا من مشقة الحروب، وربما كان بعضهم ذوي قرابة ـ في المشركين ـ ورحم، أو ذوي مصالح وأموال؛ وكان هذا يجنح بهم إلى السلم والمهادنة، فالنفس البشرية هي؛ والتربية الإسلامية تعالج هذا الوهن وهذه الخواطر الفطرية بوسائلها، وقد نجحت نجاحًا خارقًا. ولكن هذا لا ينفي أن تكون هناك رواسب في بعض النفوس، وهذه الآية بعض العلاج لهذه الرواسب، فلننظر كيف كان القرآن يأخذ النفوس، فنحن في حاجة إلى تحري خطوات القرآن في التربية، والنفوس هي النفوس.

﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾.

أنتم الأعلون اعتقادًا وتصورًا للحياة، وأنتم الأعلون ارتباطًا وصلةً بالعلي الأعلى، وأنتم الأعلون منهجًا وهدفًا وغايةً، وأنتم الأعلون شعورًا وخلقًا وسلوكًا.. ثم أنتم الأعلون قوةً ومكانةً ونصرةً، فمعكم قوة الله ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾.. فلستم وحدكم.. إنكم في صحبة العليِّ الجبار، القادر القهَّار، وهو لكم نصير، حاضر معكم، يدافع عنكم، فما يكون أعداؤكم هؤلاء والله معكم؟ وكل ما تبذلون، وكل ما تفعلون، وكل ما يصيبكم من تضحيات محسوب لكم، لا يضيع منه شيء عليكم.

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.. لن يقطع منها شيئًا لا يصل إليكم أثره ونتيجته وجزاؤه.

فعلام يهن ويضعف ويدعو إلى السلم مَن يُقرِّر الله ـ سبحانه ـ له أنه الأعلى، وأنه معه، وأنه لن يفقد شيئًا من عمله، فهو مكرم منصور مأجور؟

﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾.

وخذ معها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

إلى الذين يثقل ضغط الواقع الحاضر على أرواحهم وعقولهم، ويستكثرون على دينهم ـ الذي لا يدركون حقيقته ـ أن يكون منهجه الثابت في مواجهة البشرية كلها بواحدة من ثلاث: الإسلام، أو الجزية، أو القتال، وهم يرون جمع الكافرين كلهم يحاربون الإسلام ويناهضونه.

إلى الذين ينتسبون إلى الإسلام، وهم لا يدركون حقيقته، ولا يشعرون بها شعورًا جدِّيًا، وهم ضعاف أمام جحافل أتباع الديانات الأخرى.

إلى أولئك الكتاب الذين يعمدون إلى ليِّ أعناق النصوص؛ ليؤولوها تأويلًا يتمشى مع ضغط الواقع وثقله.

إلى الذين يعمدون إلى النصوص المرحلية، فيجعلون منها نصوصًا نهائية، وإلى النصوص المقيدة بحالات خاصة، فيجعلون منها نصوصًا مطلقة الدلالة، حتى إذا وصلوا إلى النصوص النهائية المطلقة أوَّلوها وفق النصوص المقيدة المرحلية! وذلك كله كي يصلوا إلى أن الجهاد في الإسلام هو مجرد دفاع عن أشخاص المسلمين وعن دار الإسلام عندما تُهاجم! وأن الإسلام يتهالك على أيِّ عَرْضٍ للمسالمة.. والمسالمة معناها مجرد الكف عن مهاجمة دار الإسلام!

إن الإسلام في حسهم يتقوقع، أو يجب أن يتقوقع داخل حدوده ـ في كل وقت.

إلى الذين نسوا أن رسولنا بعث بالسيف.. وجعل رزقه تحت ظل رمحه.

إلى الذين نَسَوْا صوت المعركة؛ لميلهم إلى ظل الدعة الرقيق.. نذكرهم بهذا الصوت.. بالصهيل، والصليل، وغبار الحرب، و«**صوت المعركة**» الذي قال فيه الشاعر:

سَمِعْتُكَ تُوقِظُ الْمَوْتَى،

وَترعشُهُمْ..،
وتَنُشُرهُمْ..،
علَى خلَدِي!!
وتَقرَعُ رَاحتَاكَ الْبَابَ
حوْل سكينةِ الأبَد!!
تَدُقُّ. تدُقّ،
حتَّى تُورق الأكفانُ بين يَدَيْكْ!
وتنْزَعُ صَمْتَها أبديَّةٌ خرساءُ،
ساحَتُها تَطيرُ إليْكْ!
وتزرَعُ نفْسَها الأرواحُ،
فوق جُذوع رابيةٍ بلا أغصانْ
حدائقُها مسحرةٌ،
تفوحُ بعطرها النِّيرانُ!
.. يُطلُّ بزَهْرها الشُّهداءُ،
مِن ظمإٍ لنار صداكْ،
وتصرُخُ آهةٌ للصبر
هالعةٌ ليوم لقَاكْ!!

* * *

أنا قبلَ أنْ أطأَ الترابَ...،
.. سمِعْتُ صوتكَ هادِرًا،
كالموج، يصْرُخ في عروقي

.. وسمعتُ نَهْشَ صداكَ،
وهْو يَشُبُّ كالإعصار،
في أعماق ذاتي.. للتفجُّر والشُّروقِ!
.. وسمعتُ دَقَّ يديكَ،
في بابي المصفَّدِ بالْقيود،
وبالسُّدود الضاربات على رحيقي!
... وسمعتُ خطَوكَ كالرياح،
تُذيقُ صمتَ الذلِّ ما شاءَتْ،
من الندم العميقِ!
.. وسمعتُ كفَّكَ،
تلطِمُ الوجهَ المكفَّن بالهدوء،
على سفينٍ في سلاسله غريقْ!
... وسمعتُ نارك في الفضاءِ،
تذيق كلَّ صدىً سِوَاكَ،
مجازرَ العدم السَّحيقِ؛
.. وسمعْتُ زجْرَكَ لِلْهديلِ،
يَقُصُّ نَوْحَ حمامَة،
لسكينةِ الأقفاصِ جاثية الخُفوقِ!
... وسمعتُ جمرَكَ يلْسَعُ الأيَّامَ،
وهي تَسيرُ في خلَدي،
مُطَفأةَ البَريقِ!
شوهاءَ.. ثاكلةَ الوجود..،

تئنُّ ضاحكة..،
وترتعُ في الطريق.. بلا طريق!
بكْمَاءَ، غافلَةَ السكونِ،
تموت بين يديهِ،
وهي تعبُّ زمْزَمَةَ الحريقِ!!

* * *

.. زمجرْ على كبِدي،
على جَسَدِي،
على روحي المزنَّر ي خيالِكْ!
.. واعصف على قلبي،
على دربي،
على وتري المصَفَّد في حِبالِك!
.. وانْزِفْ لهيبَك،
في دمي، وعلى فَمي،
واصْهْر وجوديَ في اشتعالِك!!

* * *

... ...
من الله، أنت!
من الروح، أنت!
ومن كل صمتٍ يُنادي صَداكْ
وفي كل صوتٍ أبيٍّ أراكْ

وأسمع في كل شيءٍ مَداكْ..
فأسمعه في دمي ثورةً للضياءْ
من النار والثار تشعلُ فجرَ الإِباءْ
وفي خَلَدي نَبْضُهُ كاحتدام الرياحْ
وكالعاصف المنْبِري لاختراق الْبِطاح
.. وفي كبد، ماردٌ عبقريٌّ الجناح
يشدُّ من الليل نور الصَّباحْ
.. ويزأر بالثَّأر تحت العروقْ
ليَسْتَلَّ منها ضياء الشروقْ
.. وفي خطوتي درب عمر جديدْ
وفي نظرتي صحوة للوجودْ..
تُنفِّضُ عنه غبارَ الليالي السحيقَهْ
وتمضي به في هدير الحقيقةْ
جبيني جديدْ
ووجهي جديدْ
وإيماء عيني.. جديدْ
وإصغاء سمعي.. جديدْ
وذاتي شواظٌ على جلدها المستضام القديمْ
وكِبْرٌ من النور يسطع تحت الأديمْ
ينوِّر ليل الكهوف الضريرَهْ
ويلسعُ كلَّ بقايا الكرَى في السَّريرَهْ
ويُوقظُها كي تشُقَّ المصيرْ

وتوغلَ صامدةً في المسيرْ
وأسمعُهُ طارقًا من حديث السماءْ
يدقُّ على كل بابٍ بأعتى النداء..

... ...

فمن صوت جبْريلَ وهو يناجي «محمَّد»
ومن رعشة الوحي وهو لهيبٌ ومَوْقِدْ
ونار مجلْجلةٌ من سماء الغيوبْ
لمعركة الحق جاءت تشق الدروبْ
وتزأر في كل ليلٍ يتيم شليل الضياءْ
وفي كل يأس ذبيح الأمانِ جريح الرجاءْ..
وفي كل قيْد.. على الذلِّ أغفى وغنى حديدُهْ
وفي كل غُلٍّ. من القهر صلَّى عليه عبيدُهْ..
ومن عنكبوتٍ على الغار أرخى الستُورَا
بأوْهَى خيوطٍ، أدار الزمان، وأحْيا الدهورا..
.. ومن (بدْر).. وهْي تميمة كلِّ المعاركَ
وصوْتُكَ فيها من الحق.. نارٌ تُشارِكَ..
.. ومن كل خطو النبيِّينَ فوق الصحارى
وهُمْ يحصُدون الدجى، من وجوه الحيارَى..
مِن اللَّه أنت!
مِن الروح أنت!
ترنَّمْ.. وجلجِلْ
وبالنور.. أقبلْ..

ولِلَمْ زئيرَكَ من كلِّ ليلٍ توارَى بأرضِكْ
ومن كل كأسٍ سَقَتها الضحايا.. فداءً لعرضِكْ
ومن كل سيفٍ وضعنا مع البيد أنها شمسةْ
ودرنا نَشاوَى بهالات شِعْرٍ تُغَنَّى لبأسِهْ
ترَنَّمْ.. وجلجل
وبالنور.. أقبِلْ
وهاتِ الطبولَ، وهاتِ الخُيولَ
وهات البيارقْ
وهات الصدَى من مزامير «طارقْ»
وأيقظْ عموريَّةَ من كراها
وذق نارها، واسقني من لظاها
بقايا ضحاها
وخذ نغمةً من سماوات حِطِّينَ،
واخضِبْ نداءَكْ..
وأوغلْ مع الريح في كل أُفْقٍ،
وفَجِّرْ إباءكْ..
ودُرْ بالعصور، وبوق النشور،
على الهامِدين..
وأنشِبْ هديرك في كل كهفٍ على الشَّامِتِينْ
ولا تخْشَ ليْلًا بغَفْلاتنا في نسَجنا ظلامهْ
ورُحنا من الوهْم نشكو دجاه ونَبكي خيامهْ
ونحن الذين افترقنا فتُهنا ضياعًا بدربِهْ

وذُسْنا بأقدامنا كل نورٍ هدانا بركبةْ..
فكم صَحْوة للشعوب تردُّ من الموت صحو الحياةَ!
وكم يقظة من رمادِ الزوال!
هي الفجر تخْضَرُّ منهْا رُباهُ!
.. صَحَونا. ولا بد نسحق بالنور ليل الطريقْ
ونصمد، حتى نردَّ من الليل ضوءَ الشروقْ
فزِمجرْ كما كنتَ،
حتَّى تردَّ إباء السِّنينْ!
وشُقَّ الصدورَ،
وأضرمْ بها غفلَةَ الواقفِينْ!
وغَيِّرْ هوانا..
وغَيِّرْ رؤانا..
وأشعلْ منا ثورة لليقينْ
ولن يغسلَ العارَ،..
.. إلَّا امتدادك في كل شَي!
ولن يُرْجعَ الثارْ!..
.. إلا انتفاضك في كل حَي!
ولن يرجعَ الدارَ
.. إلَّا اقتحامكَ ذلَّ الخليَّهْ!
ومحْوُكَ لليأسِ من كل روع غبيَّهْ؛
فصوتُكَ في كل روح حياه
وصوتكَ للنصر أتْقَى صلاه

فقاتلْ به في العروق دم اليائسينْ
وأيْقظ به في الدماء رؤى الهامِدينْ
وأعجِلْ به النصرَ للصامِدينْ
ويوم نردُّ الترابَ الحبيب لأقدامنا
وصوتك بالنصر يجري نشيدًا لأيَّامِنا
ستسمع من كل أفق أذانا يهز الشهُبْ
ويخضرُّ في الأرض لحن البطوله..
نحن العربْ!!(١)

ومن الملائكة مقاتلون:

٦٨- **قال - تعالَى -:** ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [**آل عمران: ١٢٤-١٢٧**].

قال ابن كثير في تفسيره: «**اختلف المفسرون في هذا الوعد: هل كان يوم** «**بدر**» أو يوم «**أحد**»؟

على قولين:

أحدهما: أن قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وروي هذا عن الحسن البصري، وعامر الشعبي،

(١) قصيدة «صوت المعركة»، لمحمود حسن إسماعيل من ديوانه «صلاة ورفض» ص (١٥٤١ - ١٥٥٤) من الأعمال الكاملة، لمحمود حسن إسماعيل - دار سعاد الصباح.

والربيع بن أنس، وغيرهم، واختاره ابن جرير.

قال الحسن: هذا يوم بدر[1].

عن عامر الشعبي أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمدُّ المشركين، فشَقَّ ذلك عليهم، فأنزل اللَّه ـ تَعَالَى ـ: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾. قال: فبلغت كرزًا الهزيمة، فلم يمد المشركين، ولم يمد اللَّه المسلمين بالخمسة.

وقال الربيع بن أنس: أمد اللَّه المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية على هذا القول، وبين قوله في قصة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩، ١٠]؟

فالجواب أن: التنصيص على الأَلْفِ هاهنا لا ينافي الثلاثة آلاف فما فوقها؛ لقوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾؛ بمعنى: يردفهم غيرهم، ويتبعهم ألوف أخر مثلهم. وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران، فالظاهر أن ذلك كان يوم «**بدر**»، كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم «**بدر**». واللَّه أعلم.

وقال قتادة: أمدَّ اللَّه المسلمين يوم «**بدر**» بخمسة آلاف.

القول الثاني: أن هذا الوعد متعلق بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، وذلك يوم «**أحد**»؛ وهو قول مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والزهري، وموسى بن عقبة، وغيرهم، لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف؛ لأن المسلمين فروا يومئذ. زاد عكرمة: ولا بالثلاثة الآلاف؛ لقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾، فلم يصبروا، بل فرّوا؛ فلم يمدوا بملك

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/٥١٩) رقم (١٣٤٧)، وابن جرير (٧/١٧٤) رقم (١٧٤٥).

واحد.

﴿مُسَوِّمِينَ﴾ ؛ أي: معلمين - بالسيما.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان سيما الملائكة يوم «بدر» الصوف الأبيض؛ وكان سيماهم - أيضًا - في نواصي خيولهم(١).

وقال مجاهد: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ ؛ أي: محدقة أعرافها، معلمة نواصيها بالصوف الأبيض في أذناب الخيل.

وقال قتادة وعكرمة: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ ؛ أي: بسيما القتال. وقال مكحول: مسوِّمين بالعمائم.

قال ابن عباس: كانت سيما الملائكة يوم «بدر» عمائم بيض، قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم «حنين» عمائم حمر، ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم «بدر»، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عددًا ومددًا لا يضربون(٢).

وعن يحيى بن عباد: أن الزبير رضي الله عنه ، كان عليه يوم «بدر» عمامة صفراء معتجرًا بها، فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر(٣).

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ ؛ أي: وما أنزل الله الملائكة، وأعلمكم بإنزالهم، إلا بشارة لكم، وتطييبًا لقلوبكم وتطمينًا، وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائكم بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم؛

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ؛ أي: هو ذو العزة التي لا ترام، والحكمة في قَدَرِه والأحكام.

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/٥٢٠) رقم (١٣٥٠).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/٣٨٩) رقم (٢٠٨٥).

(٣) **إسناده صحيح**: أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/٥٢٨) رقم (١٣٧٤)، وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/١٨٨) رقم (٧٧٨٩) بإسناد حسن.

ثم قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾؛ أي: أمركم بالجهاد؛ لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار، فقال: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾؛ أي: ليهلك أمة من الذين كفروا. ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾؛ أي: يخزيهم ويردهم بغيظهم لما لم ينالوا منكم ما أرادوا؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟﴾؛ أي: يرجعوا. ﴿خَآئِبِينَ﴾؛ أي: لم يحصلوا على ما أمّلوا». اهـ(١).

٦٩ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ **[الأنفال: ٩، ١٠]**.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «**لما كان يوم «بدر»** نظر النبي ﷺ إلى **أصحابه،** وهم ثلاث مئة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مدَّ يديه وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «**اللهم، أين ما وعدتني. اللهم، أنجز لي ما وعدتني. اللهم، إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدًا**». قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فردَّاه، فألبسه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله؛ كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾. فلما كان يومئذ التقوا، فهزم الله المشركين، فقُتِل منهم سبعون رجلًا، وأُسِر منهم سبعون رجلًا...»(٢) الحديث.

دَعَا فَمَاجَتْ سَمَاءُ اللهِ وَانْطَلَقَتْ ... كَتَائِبُ النَّصْرِ مِلءَ الجَوِّ تَنْتَظِمُ
لَاهُمَّ غَوْثَكَ إِنَّ الحَقَّ مَطْلَبُنَا ... وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِالْقَوْمِ الْأُلَى ظَلَمُوا

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/١٧٤ ـ ١٧٨).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١/٣٠)، ومسلم برقم (١٧٦٣)، وأبو داود برقم (٢٦٩٠)، والترمذي برقم (٣٠٨١)، وابن جرير (١٣/١٥٧٣٤).

تِلْكَ الْعِصَابَةُ مَا لِلَّهِ إِنْ هَلَكَتْ ... فِي الْأَرْضِ مِنْ عَابِدٍ لِلْحَقِّ يَلْتَزِمُ
جَاءَ الْغِيَاثُ فَدِينُ اللَّهِ مُنْتَصِرٌ ... عَالِي اللِّوَاءِ وَدِينُ الشِّرْكِ مُنْهَزِمُ

ولله در القائل:

وَضَجَّ رَسُولُ اللَّهِ يَدْعُو إِلَهَهُ ... فَيَالَكَ مِنْ جُنْدٍ طَوَى الْجَوَّ جَافِلُهْ
تَنَزَّلَ يُزْجِي النَّصْرَ تَنْسَابُ مِنْ عَلٍ ... شَآبِيبُهُ نُورًا وَيَنْهَلُّ وَابِلُهْ[1]
أَحَيْزُومُ أَقْدِمْ إِنَّهُ الْجِدُّ لَنْ يُرَى ... سِوَاهُ عَدُوٌّ كَاذِبٌ الْبَأْسِ هَازِلُهْ
هُوَ اللَّهُ يَحْمِي دِينَهُ وَيُعِزُّهُ ... فَمَنْ ذَا يُنَاوِيهِ[2]؟ وَمَنْ ذَا يُصَاوِلُهْ؟

﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾؛ أي: يردف بعضهم بعضًا.

قال ابن عباس: متتابعين.

ويحتمل أن المراد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ لكم؛ أي: نجدة لكم، كما قال العوفي عن ابن عباس: ﴿مُرْدِفِينَ﴾: المدد. كذا قال مجاهد، وابن كثير القارئ، وابن زيد عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس؛ قال: وأمد اللَّه نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمس مئة من الملائكة مُجَنِّبة، وميكائيل في خمس مئة مجنبة.

عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: بينا رجل من المسلمين يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: «**أقدم حيزوم**». إذ نظر إلى المشرك أمامه، فخرَّ مستلقيًا، قال: فنظر إليه، فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدَّث ذلك رسول اللَّه ﷺ، فقال: «**صدقت، ذلك مدد من السماء الثالثة**». فقتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين»[3].

---

(١) الشآبيب: الدفعات من المطر، جمع شؤبوب. والوابل: المطر الشديد.

(٢) ناوأه: عاداه.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٢/١٥٧٣٤)، وهو عند مسلم في الجهاد والسير برقم (١٧٦٣).

عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقى عن أبيه ـ وكان أبوه من أهل «**بدر**» ـ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «**ما تعدون أهل بدر فيكم؟**» قال: «**من أفضل المسلمين**»، أو كلمة نحوها، قال: «**وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة**»(١).

وبلفظ آخر: «**جاء جبريل فقال: ما تعدون من شهد بدرًا فيكم؟ قلت: خيارُنا، قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة هم عندنا خيار الملائكة**»(٢).

حَيُّوا الْمَلَائِكَةَ الْأَبْرَارَ يَقْدُمُهُمْ ... جِبْرِيلُ فِي غَمَرَاتِ الْهَوْلِ يَقْتَحِمُ

الْأَرْضُ تَرْجُفُ رُعْبًا وَالسَّمَاءُ بِهَا ... غَيْظٌ يَظَلُّ عَلَى الْكُفَّارِ يَحْتَدِمُ

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾؛ أي: وما جعل اللَّه بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾، وإلا فهو ـ تَعَالَى ـ قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، كما قال ـ تعَالَى ـ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد: ٤ ـ ٦].

وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١].

فهذه حِكَمٌ شَرَعَ اللهُ جهادَ الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها. وقد كان ـ تَعَالَى ـ إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمة المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعادًا الأولى بالدبور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب شهود الملائكة بدرًا رقم (٣٩٩٢).

(٢) رواه أحمد والبخاري وابن ماجه عن رفاعة بن رافع الزرقي، وأخرجه أحمد وابن ماجه وابن حبان عن رافع بن خديج.

بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله ـ تَعَالَى ـ موسى، وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليم، ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ﴾ [القصص: ٤٣].

وقتل المؤمنين للكافرين أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال ـ تَعَالَى ـ للمؤمنين من هذه الأمة: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة: ١٤].

ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان، فقتْل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى أشد إهانة له من أن يموت على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب بالعَدَسة[1]، بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، وإنما غسَّلوه بالماء قذفًا من بعيد، ورجموه حتى دفنوه، ولهذا قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما، في الدنيا والآخرة، كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

﴿حَكِيمٌ﴾: فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقدرته ـ سبحانه وتعالى ـ»[2].

---

(١) العدسة: هي بثرة تشبه العدسة تخرج في مواضع من الجسد، من جنس الطاعون، تقتل صاحبها غالبًا.
انظر: النهاية، لابن الاثير (٣/١٩٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/٢٤ ـ ٢٩).

٧٠ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢].

قال الإمام ابن كثير: «هذه نعمة خفية، أظهرها اللَّه ـ تعالَى ـ لهم؛ ليشكروه عليها، وهو أنه ـ تعالَى وتقدَّس وتبارك وتمجَّد ـ أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا.

قال ابن إسحاق: وازروهم. وقال غيره: قاتلوا معهم. وقيل: كثِّروا سوارهم. وقيل: كان ذلك بأن الملَك كان يأتي الرجل من أصحاب النبيﷺ يقول: سمعتُ هؤلاء القوم ـ يعني: المشركين ـ يقولون: واللَّه لئن حملوا علينا لننكشفن، فيحدث المسلمون بعضهم بعضًا بذلك، فتقوى أنفسهم. حكاه ابن جرير، وهذا لفظه بحروفه.

وقوله: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ ؛ أي: ثبتوا أنتم المسلمين، وقووا أنفسهم على أعدائهم، عن أمري لكم بذلك، سألقي الرعب والمذلة والصغار على من خالف أمري، وكذَّب رسولي، ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ ؛ أي: اضربوا الهام فافلقوها، واحتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم، وهي أيديهم وأرجلهم.

وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ ؛ فقيل: معناه اضربوا الرءوس. قاله عكرمة.

وقيل: معناه: ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ ؛ أي: على الأعناق، وهي الرقاب، قاله الضحاك، ويشهد لهذا المعنى أن اللَّه ـ تعالَى ـ أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله ـ تعالَى ـ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

واختار ابن جرير أنها تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام.

وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم «بدر» يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم، بضرب فوق الأعناق وعلى البنان، مثل سمة النار قد أُحرق به.

وقوله: ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾؛ قال ابن جرير: معناه: واضربوا من عدوكم - أيها المؤمنون - كل طرف ومفصل، من أطراف أيديهم وأرجلهم.

والبنان: جمع بنانة.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾؛ يعني بالبنان: الأطراف، وكذا قال الضحاك، وابن جريج.

وقال عكرمة، وعطية العوفي، والضحاك: كل مفصل.

وقال الأوزاعي: ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾: اضرب منه الوجه والعين، وارمه بشهاب من نار، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك.

وقال العوفي عن ابن عباس، فذكر قصة «بدر» إلى أن قال: فقال أبو جهل: لا تقتلوهم قتلًا، ولكن خذوهم أخذًا، حتى تعرفوهم الذي صنعوا من طعنهم في دينكم، ورغبتهم عن اللات والعزى. فأوحى الله إلى الملائكة: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾. فقُتل أبو جهل - لعنه الله - في تسعة وستين رجلًا، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبرًا، فوفَى ذلك سبعين، يعني: قتيلًا»[١].

ولله در القائل:

اللَّه أَرْسَلَ فِي السَّحَابِ كَتِيبَةً ... تَهْفُو كَمَا هَفَتِ الْبُرُوقُ اللُّمَّحُ[٢]

تَهوِي مُجَلْجِلَةً تَلَهَّبُ أَعْيُنٌ ... مِنْهَا وتَقْذِفُ بِالْعَوَاصِفِ أَجْنُحُ[٣]

لِلْخَيْلِ حَمْحَمَةٌ تُرَاعُ لِهَوْلِهَا ... صِيدُ الفَوَارِسِ والعِتَاقُ القُرَّحُ[٤]

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/٣٢ - ٣٤).

(٢) الكتيبة: القطعة من الجيش. تهفو: تسرع.

(٣) مجلجلة: مرعدة. أجنح: جمع جناح.

(٤) القارح من الخيل: الذي شق نابه وطلع.

حَــيْـزُومُ أَقْـدِمْ إِنَّمَـا هِـيَ كَـرَّةٌ عَجْلَى تُجَاذِبُكَ الْعِنَانَ فَتَمْرَحُ[(١)]
جِبْرِيلُ يَضْرِبُ وَالْمَلَائِكُ حَوْلَهُ صَفٌّ تُرَضُّ بِهِ الصُّفُوفُ وَتُرْضَحُ[(٢)]
تِلْكَ الْحُصُونُ الْمَانِعَاتُ بِمِثْلِهَا تذري المعاقل والحصون وتذرح[(٣)]
للقوم من أعناقهم وبنائهم نَارٌ تُرِيكَ الدَّاءُ كَيْفَ يُبَرِّحُ[(٤)]
جَفَّتْ جُذُورُ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْتَوَى هَذَا النَّبَاتُ النَّاضِرُ الْمُسْتَرشِحُ[(٥)]
طَفِقَ الثَّرَى مِنْ حَوْلِهَا لَمَّا ارْتَوَى مِنْ ذَوْبِ مُهْجَتِهَا يَجِفُّ وَيَبْلَحُ[(٦)]
وَمِنَ الدَّمِ الْمَسْفُوحِ رِجْسٌ مُوبِقٌ وَمُطَهِّرٌ يَلِدُ الْحَيَاةَ وَيَلْقَحُ[(٧)]

❑ النصر من عند الله والمنة والفضل له:

٧١ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: **١٢٣**].

﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾؛ أي: قليل عددكم؛ لتعلموا أن النصر إنما هو عند الله، لا بكثرة العَدد والعُدد، ولهذا قال ـ تعالى ـ في الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ إلى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٧].

عن عياض الأشعري قال: شهدت «**اليرموك**» وعلينا خمسة أمراء: أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، وابن حسنة، وخالد بن الوليد، وعياض ـ وليس عياض هذا الذي حدث ـ قال: وقال عمر رضي الله عنه إذا كان قتالًا فعليكم أبو عبيدة. قال: فكتبنا إليه أنه: قد جاش إلينا الموت.

---

(١) حيزوم: اسم فرس جبريل.
(٢) ترضح: تكسر.
(٣) تذري وتذرح بمعنًى.
(٤) المبرح: المؤلم.
(٥) استرشح النبات: طال.
(٦) يبلح: ييبس.
(٧) موبق: مهلك.

واستمددناه، فكتب إلينا: إنه قد جاءني كتابكم تستمدونني، وإني لأدلكم على من هو أعزُّ نصرًا، وأحصن جندًا، اللَّه ﷻ، فاستنصروه، فإن محمدًا ﷺ قد نُصِر في يوم «بدر» في أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا فقاتلوهم، ولا تراجعوني.

قال: فقاتلناهم فهزمناهم أربعة فراسخ...»[1].

❏ وما رميت إذ رميت:

٧٢- قال - تعَالَى -: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ **[الأنفال: ١٧، ١٨]**.

قال الإمام ابن كثير - رحمه اللَّه -: «**يبين - تعَالَى - أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير؛ لأنه هو الذي وفَّقهم لذلك، وأعانهم عليه، ولهذا قال:** ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾؛ أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم، مع كثرة عددهم وقلة عددكم؛ أي: بل هو الذي أظفركم عليهم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال - تعَالَى -: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾**﴾ [التوبة: ٢٥]، يُعلم - تبارك وتعالى - أن النصر ليس عن كثرة العدد، ولا بلبس اللأمة والعُدَد، وإنما النصر من عند اللَّه - تعَالَى -، كما قال - تعَالَى -: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٤٩].

---

(١) **إسناده حسن:** أخرجه أحمد في «مسنده» (١/٤٩)، وابن حبان في «صحيحه» (١١/٨٣: ٨٥/ الإحسان) رقم (٤٧٦٦)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/٢١٦): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

ثم قال ـ تَعَالَى ـ لنبيه ﷺ أيضًا ـ في شأن القبضة من التراب، التي حصب بها وجوه المشركين يوم «**بدر**»، حين خرج من التراب ـ التي حصب بها وجوه المشركين يوم بدر ـ حين خرج من العريش، بعد دعائه وتضرعه واستكانته، فرماهم بها، وقال: «**شاهت الوجوه**»، ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا، فأوصل اللَّه تلك الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله! ولهذا قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾؛ أي: هو الذي بلَّغ ذلك إليهم وكبتهم بها، لا أنت.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: رفع رسول اللَّه ﷺ يديه ـ يعني يوم بدر ـ فقال: «**يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدًا**». فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب، فارم بها في وجوههم، فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين.

وقد روى في هذه القصة عن عروة بن الزبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وغير واحد من الأئمة أنها نزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر، وإن كان قد فعل ذلك يوم «**حنين**» أيضًا.

عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم «**بدر**» سمعنا صوتًا من السماء، كأنه صوت حصاة وقعت في طست، ورمى رسول اللَّه ﷺ تلك الرمية، فانهزمنا[1].

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾.

قال عروة بن الزبير: أي: ليعرِّف المؤمنين من نعمته عليهم، من إظهارهم على عدهم، مع كثرة عدوهم وقلة عددهم؛ ليعرفوا بلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته. وهكذا فسَّر ذلك ابن جرير أيضًا.

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير والأوسط»، وإسناده كما قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٨٤) حسن.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر الغلب.

قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾: هذه بشارة أخرى مع ما وصل من النصر، أنه أعلمهم ـ تَعَالَى ـ بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل، مصغِّر أمرهم، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار، ولله الحمد والمنة»[١].

هِيَ حِفْنَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ مِنَ الْحَصَى خَفَّ الْوَقُورُ بِهَا وَطَاشَ الْمِرْجَحُ[٢]
مِثْلُ الثَّمِيلَةِ مِنْ مُجَاجَةِ نَافِثٍ وَكَأَنَّمَا هِيَ صَيِّبٌ يَتَبَذَّحُ[٣]

قال الإمام ابن القيم: «اعتقد جماعة أن المراد بالآية: سَلْب فعل الرسول ﷺ، وإضافته إلى الرب ـ تَعَالَى ـ.

وجعلوا ذلك أصلًا في الجبر، وإبطال نسبة الأفعال إلى العباد، وتحقيق نسبتها إلى الرب وحده. وهذا غلط منهم في فهم القرآن.

فلو صحَّ ذلك لوجب طرده في جميع الأفعال، فيُقال: ما صليت إذ صليت، وما صمت إذ صمت، وما ضحيت إذ ضحيت، ولا فعلت كل فعل إذ فعلته، ولكن الله فعل ذلك، فإن طردوا ذلك لزمهم في جميع أفعال العباد ـ طاعتهم ومعاصيهم ـ إذ لا فرق، فإن خصوه بالرسول ﷺ وحده وأفعاله جميعها، أو رميه وحده؛ تناقضوا، فهؤلاء لم يوفقوا لفهم ما أريد بالآية.

وبعد، فهذه الآية نزلت[٤] في شأن رميه ﷺ المشركين يوم «بدر» بقبضة من

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/٤٠ ـ ٤٣).

(٢) المرجح: الحليم.

(٣) الثميلة: البقية. والصيب: المطر. وتبذح السحاب: أمطر.

(٤) **صحيح**: رواه ابن إسحاق (٢/٢٧٠)، والطبراني في «الكبير» (٣/٢٠٣) من حديث حكيم بن حزام، قال الهيثمي: (٦/٨٤): رواه الطبراني في «الكبير والأوسط»، وإسناده حسن. ورواه في «الكبير» أيضًا (١١/٢٨٥) عن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ. قال الهيثمي (٦/٨٤): ورجاله رجال الصحيح. وَصَحَّحَهُ الألباني كما في «فقه السيرة» ص (٢٣٩).

الحصباء، فلم تدع وجه أحد منهم إلا أصابته، ومعلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ.

فكان منه ﷺ مبدأ الرمي وهو الخذف، ومن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ نهايته، وهو الإيصال.

فأضاف إليه رمي الخذف الذي هو مبدؤه، ونفى عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته، ونظير هذا قوله في الآية نفسها: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾. ثم قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ فأخبره أنه وحده هو الذي تفرَّد بقتلهم، ولم يكن ذلك بكم أنتم، كما تفرَّد بإيصال الحصى إلى أعينهم، ولم يكن ذلك من رسوله، ولكن وجه الإشارة بالآية أنه ـ سبحانه ـ أقام أسبابًا ظاهرة، كدفع المشركين، وتولى دفعهم وإهلاكهم، بأسباب باطنة غير الأسباب التي تظهر للناس، فكان ما حصل من الهزيمة والقتل والنصرة مضافًا إليه وبه، وهو خير الناصرين»[1].

وقال ابن القيم ـ أيضًا رحمه اللَّه ـ: «وقد ظن طائفة من الناس أنَّ من هذا الباب قوله ـ تعَالَى ـ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

وجعلوا ذلك من أدلتهم على القدرية، ولم يفهموا مراد الآية.

وليست من هذا الباب، فإن هذا خطاب لهم في وقعة «**بدر**»، حيث أنزل اللَّه ـ سبحانه ـ ملائكته فقتلوا أعداءه، فلم يفرد المسلمون بقتلهم، بل قتلتهم الملائكة. وأما رميه ﷺ فمقدوره، كان هو الخذف والإلقاء، وأما إيصال ما رمى به إلى وجوه العدو مع البعد، وإيصال ذلك إلى وجوه جميعهم فلم يكن من فعله، ولكن فعل اللَّه وحده، فالرمي يراد به الخذف والإيصال، فأثبت له الخذف بقوله: ﴿إِذْ

---

(١) مدارج السالكين (٣/٤٢٦، ٤٢٧).

رَمَيْتَ﴾، ونفي عنه الإيصال بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾»[1].

فالبلاء الحسن هنا هو النعمة بالظفر والغنيمة والنصر على الأعداء، وليس من الابتلاء الذي هو الامتحان بالمكروه، بل من أبلاه بلاءً حسنًا إذا أنعم عليه.

قال: أبلاك اللَّه ولا ابتلاك، فأبلاه بالخير، وابتلاه بالمكاره، غالبًا[2].

❏ متى نصر الله:

٧٣ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ۝٣٨﴾ [الحج: ٣٨].

قرأ ابن كثير، وأبو عمر، ويعقوب: ﴿يَدْفَع﴾، وقرأ الباقون: ﴿يُدَٰفِعُ﴾[3].

قال ابن كثير: «**يخبر ـ تعالَى ـ أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم، كما قال ـ تعالَى ـ:** ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٖ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ۝٣٨﴾..

فقد ضمن للمؤمنين ـ إذن ـ أنه هو ـ تعَالَى ـ يدافع عنهم. ومن يدافع اللَّه عنه فهو ممنوع ـ حتمًا ـ من عدوه، ظاهرٌ ـ حتمًا ـ على عدوه.. **ففيم إذن يأذن لهم بالقتال؟ وفيم إذن يكتب عليهم الجهاد؟ وفيم إذن يقاتلون فيصيبهم القتل والجرح، والجهد والمشقة، والتضحية والآلام... والعاقبة معروفة، واللَّه قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا جهد، ولا مشقة، ولا تضحية ولا ألم، ولا قتل ولا قتال؟**

والجواب: أن حكمة اللَّه في هذا هي العليا، وأن لله الحجة البالغة.. والذي ندركه نحن البشر من تلك الحكمة، ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا

(١) شفاء العليل، لابن القيم ص (٥٩).
(٢) طريق الهجرتين، لابن القيم ص (٣٢٠).
(٣) القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة، لعلوي بن محمد بلفقيه.

أن اللَّه ـ سبحانه ـ لم يرد أن يكون حَمَلَةُ دعوته وحُمَاتُهَا من «**التنابلة**» الكسالى، الذين يجلسون في استرخاء، ثم يتنزل عليهم نصره سهلًا هينًا بلا عناء، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة، ويرتلون القرآن، ويتوجهون إلى اللَّه بالدعاء، كلما مسهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء!

نعم، إنهم يجب أن يقيموا الصلاة، وأن يرتلوا القرآن، وأن يتوجهوا إلى اللَّه بالدعاء في السراء والضراء. ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة اللَّه وحمايتها؛ إنما هي الزاد الذي يتزودونه للمعركة، والذخيرة التي يدخرونها للموقعة، والسلاح الذي يطمئنون إليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه، ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله.

لقد شاء اللَّه ـ تَعَالَى ـ أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم؛ كي يتم نضجهم هم في أثناء المعركةِ. فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات ـ المذخورة فيها ـ كما تستيقظ وهي تواجه الخطر؛ وهي تدفع وتدافع، وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة... عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد؛ لتؤدي دورها، ولتتساند مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة، ولتؤتي أقصى ما تملكه، وتبذل آخر ما تنطوي عليه، وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها وما هي مهيأة له من الكمال.

والأمة التي تقوم على دعوة اللَّه في حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها، واحتشاد كل قواها، وتوفز كل استعدادها، وتجمع كل طاقاتها؛ كي يتم نموها، ويكمل نضجها، وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها.

والنصر السريع لا يكلف عناء، والذي يتنزل هينًا لينًا على القاعدين المستريحين يعطل تلك الطاقات عن الظهور؛ لأنه لا يحفزها، ولا يدعوها.

وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه؛ أولًا: لأنه رخيص الثمن، لم تبذل فيه تضحيات عزيزة. وثانيًا: لأن الذين نالوه لم تدرب

قواهم على الاحتفاظ به، ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه، فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه.

وهناك التربية الوجدانية، والدربة العملية، تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة، والكر والفر، والقوة والضعف، والتقدم والتقهقر، ومن المشاعر المصاحبة لها.. من الأمل والألم، ومن الفرح والغم، ومن الاطمئنان والقلق، ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة... ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة، والتنسيق بين الاتجاهات في ثنايا المعركة، وقبلها، وبعدها، وكشف نقط الضعف ونقط القوة، وتدبير الأمور في جميع الحالات.. وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة وتقوم عليها وعلى الناس.

ومن أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله.. جعل اللَّه دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم، ولم يجعله «لقية» تهبط عليهم من السماء بلا عناء.

والنصر قد يبطئ على الذين ظُلِمُوا وأُخْرِجُوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله، فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدها الله.

● قد يبطئ النصر؛ لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع؛ لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات. فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكًا؛ لعدم قدرتها على حمايته طويلًا!

● وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزًا ولا غاليًا لا تبذله هينًا رخيصًا في سبيل الله.

● وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوة وحدها بدون سند من اللَّه لا تكفل النصر. إنما يتنزل النصر من عند اللَّه عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله.

● وقد يبطئ النصر؛ لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل، ولا تجد لها سندًا إلا الله، ولا متوجهًا إلا إليه وحده في الضراء. وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله. فلا تطغى، ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله.

● وقد يبطئ النصر؛ لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته، فهي تقاتل لمغنم تحققه، أو تقاتل حمية لذاتها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها. واللَّه يريد أن يكون الجهاد له وحده، وفي سبيله؛ بريئًا من المشاعر الأخرى التي تلابسه. وقد سئل رسول اللَّه ﷺ: الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليُرَى. فأيها في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل الله**»[1].

● كما قد يبطئ النصر؛ لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير، يريد اللَّه أن يجرد الشر منها؛ ليتمحض خالصًا، ويذهب وحده هالكًا، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار!

● وقد يبطئ النصر؛ لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تمامًا. فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارًا من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله؛ فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة. فيشاء اللَّه أن يبقى الباطل حتى يتكشف عاريًا للناس، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية!

وقد يبطئ النصر؛ لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة. فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار؛ فيظل الصراع قائمًا حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر،

---

(١) رواه الشيخان.

ولاستبقائه!

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله، قد يبطئ النصر، فتتضاعف التضحيات، وتتضاعف الآلام، مع دفاع اللَّه عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية.

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن اللَّه به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

فوعد اللَّه المؤكد لوثيق المتحقق الذي لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره.. فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله، فيستحقون نصر الله، القوي العزيز الذي لا يهزم من يتولاه؟ إنهم هؤلاء:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.. فحققنا لهم النصر، وثبتنا لهم الأمر.. ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾... فعبدوا الله، ووثقوا صلتهم به، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين.. ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.. فأدوا حق المال، وانتصروا على شح النفس، وتطهروا من الحرص، وغلبوا وسوسة الشيطان، وسدوا خلة الجماعة، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج، وحققوا لها صفة الجسم الحي ـ كما قال رسول اللَّه ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**».. ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.. فدعوا إلى الخير والصلاح، ودفعوا إليه الناس.. ﴿وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.. فقاوموا الشر والفساد، وحققوا ـ بهذا وذاك ـ صفة الأمة المسلمة التي لا تُبقي على منكر وهي قادرة على تغييره، ولا تقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه.

هؤلاء هم الذين ينصرون الله، إذ هم ينصرون نهجه الذي أراده للناس في الحياة، معتزين باللَّه وحده دون سواه. وهؤلاء هم الذين يعدهم اللَّه بالنصر على

وجه التحقيق واليقين. فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته، المشروط بتكاليفه وأعبائه.. والأمر بعد ذلك لله، يصرفه كيف يشاء، فيبدل الهزيمة نصرًا، والنصر هزيمة، عندما تختل القوائم، أو تهمل التكاليف ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ .

إنه النصر الذي يؤدي إلى تحقيق المنهج الإلهي في الحياة؛ من انتصار الحق والعدل والحرية المتجهة إلى الخير والنصر، المنظور فيه إلى هذه الغاية التي يتوارى في ظلها الأشخاص والذوات والمطامع والشهوات.. وهو نصر له سببه، وله ثمنه، وله تكاليفه، وله شروطه، فلا يُعطي لأحد جزافًا أو محاباة، ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه»[١] .

مراتب الجهاد

قال الإمام ابن القيم: «لما كان جهاد أعداءِ اللهِ في الخارج فرعًا على جهادِ العبد نفسه في ذاتِ اللهِ، كما قال النبيُّ ﷺ: **«المجاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ في طَاعَةِ الله، والمُهاجِرُ مَنْ هَجَرَ ما نَهَى اللهُ عنه»**[٢] . كان جهادُ النفس مُقدَّمًا على جِهَادِ العدوِّ في الخارجِ، وأصلًا له، فإنه ما لم يُجاهِدْ نفسه أَوَّلًا؛ لِتفعل ما أُمِرَتْ به، وتتركَ ما نُهيتْ عنه، ويُحارِبْهَا في الله، لم يُمكِنْهُ جهادُ عدوه في الخارجِ، فكيف يُمكِنُهُ جهادُ عدوه والانتصاف منه، وعدوُّه الذي بين جنبيه قاهرٌ له، متسلِّطٌ عليه، لم يُجاهده، ولم يُحاربه في الله، بل لا يُمكنه الخروجُ إلى عدوِّه، حتى يُجاهِدَ نفسَه على الخروج.

فهذان عدوَّانِ قد امْتُحِنَ العبدُ بجهادهما، وبينهما عدوٌّ ثالث، لا يمكنه

(١) الظلال (٤/٢٤٢٥ - ٢٤٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (٦/٢١) من حديث فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ مَنْ أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب» وسنده جيد، وَصَحَّحَهُ ابن حبان (٢٥)، والحاكم (١/١١)، ووافقه الذهبي.

جهادُهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يُثَبِّطُ العبدَ عن جهادهما، ويُخذِّله، ويُرجِفُ به، ولا يزالُ يُخَيِّل له ما في جهادهما مِن المشاق، وتركِ الحظوظ، وفوتِ اللذاتِ، والمشتهيات، ولا يُمكنه أن يُجاهِدَ ذَيْنِكَ العدوَيْنِ إلا بجهاده، فكان جهادُه هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان، قال - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. والأمر باتخاذه عدوًا تنبيه على استفراغ الوُسع في مُحاربته ومجاهدته، كأنَّهُ عدو لَا يَفْتُر، ولا يُقصِّر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس.

فهذه ثلاثة أعداء، أُمِرَ العبدُ بمحاربتها وجهادها، وقد بُلي بمحاربتها في هذه الدار، وسُلِّطَتْ عليه؛ امتحانًا من اللَّه له وابتلاء، فأعطى اللهُ العبدَ مددًا وعُدَّةً وأعوانًا وسلاحًا لهذا الجِهَادِ، وأعطى أعداءه مددًا وعُدَّةً وأعوانًا وسِلاحًا، وبَلَا أحدَ الفريقين بالآخر، وجعل بعضهم لبعض فتنة؛ لِيَبْلُوَ أخبارهم، ويمتحِنَ من يتولَّاه ويتولَّى رسُلَهُ ممن يتولَّى الشيطانَ وحزبه، كما قال - تَعَالَى -: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال - تَعَالَى -: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، وقال - تَعَالَى -: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١]. فأعطى عباده الأسماعَ والأبصارَ، والعُقول والقُوى، وأنزل عليهم كُتُبَه، وأرسلَ إليهم رسُلَه، وأمدَّهم بملائكته، وقال لهم: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢]، وأمرهم من أمره بما هو مِن أعظم العونِ لهم على حرب عدوهم، وأخبرهم أنَّهم إن امتثلوا ما أمرهم به؛ لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوِّهم، وأنه إن سلَّطه عليهم، فلتَرْكِهم بعضَ ما أُمروا به، ولمعصيتهم له، ثم لم يُؤَيِّسْهُم، ولم يُقنِّطْهُمْ، بل أمرهم أن يستَقْبِلُوا أمرهم، ويُداووا جِراحَهُم، ويَعُودوا إلى مُناهضةِ عدوهم؛ فينصرَهم عليهم، ويُظفرَهم بهم، فأخبرهم أنه معَ المتقين مِنهم، ومعَ المحسنينَ، ومع الصابرين، ومعَ المؤمنين، وأنه يُدافع عن عباده المؤمنين ما

لا يدافعون عن أنفسهم، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوِّهم، ولولا دفاعُه عنهم، لتخطَّفهم عدوُّهم، واجتاحهم.

وهذه المدافعةُ عنهم بحسب إيمانِهم، وعلى قَدْرِهِ، فإنْ قَوِيَ الإيمانُ، قويتِ المُدافعة، فمن وجد خيرًا، فليحمَدِ الله، ومن وجد غيرَ ذلِكَ، فلا يلومنَّ إلا نفسه.

وأمرهم أن يُجاهدوا فيه حقَّ جهاده، كما أمرهم أن يتَّقوه حقَّ تُقاته(١)، وكما أن حقَّ تُقاته أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكَرَ فلا يُنسى، ويُشكَر فلا يُكفر، فحقُّ جهاده أن يُجاهِدَ العبد نفسَه؛ لِيُسْلِم قلبه ولِسانه وجوارِحه لِلَّهِ، فيكون كُلُّه لله، وباللهِ، لا لنفسِهِ، ولا بنفسه، ويُجاهدَ شيطانه بتكذِيبِ وعدِهِ، ومعصيةِ أمرِهِ، وارتكابِ نهيه، فإنه يَعِدُ الأمانيَّ، ويُمنِّي الغُرورَ، ويَعِدُ الفقرَ، ويأمرُ بالفحشاء، وينهى عن التُّقى والهُدى، والعِفة والصبرِ، وأخلاقِ الإيمان كُلِّهَا، فجاهده بتكذِيبِ وعده، ومعصيةِ أمره، فينشأْ له من هذين الجهادين قوةٌ وسلطان، وعُدَّة يُجاهد بها أعداءَ اللَّه في الخارج بقلبه ولسانه ويده ومالِهِ، لِتكونَ كلمةُ اللَّه هي العليا.

واختلفت عباراتُ السلف في حقِّ الجهاد:

فقال ابن عباس: هو استفراغُ الطاقة فيه، وألا يَخافَ في اللهِ لومةَ لائم.

وقال مقاتل: اعملوا للهِ حقَّ عمله، واعبدُوه حقَّ عِبادته.

وقال عبداللَّه بنُ المبارك: هو مجاهدةُ النفس والهوى.

ولم يُصِبْ من قال: إن الآيتين منسوختان؛ لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يُطاق.

وحقُّ تُقاته وحق جهاده: هو ما يُطيقه كلُّ عبد في نفسه، وذلك يختلِف باختلافِ أحوال المكلفين في القُدرةِ، والعجزِ، والعلمِ، والجهلِ. فحقُّ التقوى،

---

(١) وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٧٨].

وحقُّ الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء، وتأمل كيف عقَّب الأمر بذلك بقوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] والحَرَج: الضِّيقُ، بل جعله واسعًا يسَعُ كُلَّ أحد، كما جعل رِزقه يسع كُلَّ حي، وكلَّف العبدَ بما يسعه العبدُ، ورزق العَبدَ ما يسعُ العبد، فهو يسعُ تكليفَه، ويسعه رزقُهُ، وما جعل على عبده في الدين من حرج بوجه ما، قال النبيُّ ﷺ: «**بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**»(١)؛ أي: بالملة: فهي حنيفيَّة في التوحيد، سمحَةٌ في العمل.

وقد وسَّع اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده غايةَ التَّوسِعة في دينه، ورِزْقه، وعفوه، ومغفرتِهِ، وبسط عليهم التوبةَ ما دامت الروحُ في الجسد، وفتح لهم بابًا لها لا يُغْلِقُهُ عنهم إلى أن تَطْلُعَ الشمسَ مِن مغربها، وجعلَ لِكلِّ سيئة كفارةً تُكفرها من توبة، أو صدقة، أو حسنة ماحية، أو مُصيبة مكفرة، وجَعل بكل ما حرَّم عليهم عِوضًا مِن الحلال أنفعَ لهم منه، وأطيَب، وألذَّ، فيقومُ مقامه؛ لِيستغني العبدُ عن الحرام، ويسعه الحلال، فلا يضيقُ عنه، وجعل لِكل عُسْرٍ يمتحنُهم به يُسرًا قبله، ويُسرًا بعده، «**فلن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسرَيْنِ**»(٢). فإذَا كان هذا شأنه ـ سبحانه ـ مع عباده، فكيف يُكلِّفُهم ما لا يسعهم، فضلًا عما لا يُطيقونه ولا يقدِرُونَ عليه؟!

إذَا عُرِفَ هذا، **فالجهادُ أربع مراتب**: جهادُ النفس، وجهادُ الشيطان، وجهادُ الكفار، وجهادُ المنافقين.

فجهاد النفس أربعُ مراتب ـ أيضًا ـ:

إحداها: أَنْ يُجاهِدَها على تعلُّم الهُدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخه» (٧/٢٠٩) من حديث جابر بلفظ: «بعثت بالحنيفية السمحة، ومن خالف سنتي، فليس مني» وسنده ضعيف.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/٥٢٨) عن الحسن في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ قال: خرج النبي ﷺ مسرورًا فرحًا وهو يضحك وهو يقول: «لن يغلب عسرٌ يسرين؛ إن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا» ورجاله ثقات، لكنه مرسل.

سعادة - في معاشها ومعادها - إلا بِهِ، ومتى فاتها عِلمُه، شقيت في الدَّارين.

الثانية: أن يُجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرَّدُ العلم بلا عمل إن لم يَضُرَّها لم ينفعْها.

الثالثة: أن يُجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمِهِ مَنْ لا يعلمهُ، وإلا كان مِن الذين يكتُمون ما أنزل اللَّه مِن الهُدى والبينات، ولا ينفعُهُ علمُهُ، ولا يُنجِيه مِن عذاب اللهِ.

الرابعة: أن يُجاهِدَها على الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمَّل ذلك كله لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الرَّبَّانِيينَ، فإن السلفَ مُجمِعُونَ على أن العَالِمَ لا يَستحِقُّ أن يُسمى ربانيًّا حتى يَعرِفَ الحقَّ، ويعملَ به، ويُعَلِّمَه. فمن علم وعَمِلَ وعلَّمَ فذاكَ يُدعى عظيمًا في ملكوتِ السماوات»[(١)].

❑ أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك:

٧٤- قال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾

الجهاد قسمان: جهاد الظاهر مع الكفار، وجهاد الباطن مع النفس والشيطان.

وكما أن في جهاد الكفار غنيمة عند الظفر، ففي **جهاد النفس** غنيمة، وهو أن يملك العبد نفسه التي كانت في يد العدو (الهوى والشيطان)، فبعد أن كانت ظواهره مَقرًّا للأعمال الذميمة، وبواطنه مستقرًّا للأحوال الدنيَّة يصير محلُّ الهوى مسكنَ الرضا، ومقرُّ الشهوات والمُنى مُسَلَّما لِما تَرِد عليه من مطالبات المولى، وتصير النفس مستلبةً من أَسْرِ الشهوات، والقلب مُختَطَفًا من وصف الغَفَلات، والروح منتزعة من أيدي العلاقات، والسِّر مصونًا عن الملاحظات، وتصبح غاغة النفس منهزمة، ورياسة الحقوق بالاستجابة لله خافقة.

---

(١) زاد المعاد، لابن القيم (٣/٦ - ١٠).

وكما أن من جملة الغنيمة سهمًا لله وللرسول، وهو الخُمْس. فمما هو غنيمة على لسان الإشارة ـ سهم خالص لله؛ وهو ما لا يكون للعبد فيه نصيب، لا من كرائم العقبى، ولا من ثمرات التقريب، ولا من خصائص الإقبال، فيكون العبد عند ذلك مُحَرَّرًا عن رق كل نصيب، خالصًا لله وبالله، يمحو ما سوى الله».

وأما **جهادُ الشيطان**، فمرتبتان:

إحداهما: جهادُه على دفع ما يُلقي إلى العبد مِن الشبهات والشُّكوكِ القادحة في الإيمان.

الثانية: جِهادهُ على دفع ما يُلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهواتِ؛ فالجهادُ الأول يكون بعده اليقين، والثاني يكون بعدَه الصبر. قال ـ تعالَى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]؛ فأخبر أن إمامة الدين، إنما تُنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقينُ يدفع الشكوكَ والشبهات.

وأما **جهادُ الكفار والمنافقين**، فأربع مراتب: **بالقلب، واللِّسان، والمالِ، والنفسِ**، وجهادُ الكفار أخصُّ باليد، وجهادُ المنافقين أخصُّ باللسان.

وأما **جهادُ أرباب الظلم، والبدعِ، والمنكرات**، فثلاث مراتبَ:

الأولى: باليدِ إذا قَدَرَ، فإن عَجزَ، انتقل إلى اللسان، فإن عَجزَ، جاهد بقلبه، فهذِهِ ثلاثةَ عشرَ مرتبةً من الجهاد، و«**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالغَزْوِ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ**»[(١)].

ولا يَتِمُّ الجِهادُ إلا بالهِجْرَةِ، ولا الهِجْرة والجهادُ إلا بالإيمَانِ، والرَّاجُونَ رحمة اللَّه هم الذين قاموا بِهذِهِ الثلاثة؛ قال ـ تعالَى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١٠) في الإمارة: باب ذم من مات ولم يحدث نفسه بالغزو من حديث أبي هريرة، وأخرجه أبو داود (٢٥٠٢) في الجهاد: باب كراهية ترك الغزو، والنسائي (٣٠٩٩) في الجهاد: باب التشديد في ترك الجهاد.

هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

وكما أن الإيمان فرضٌ على كل أحد، ففرضٌ عليهِ هِجرتان في كل وقت: هجرةٌ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالتوحيدِ، والإخلاص، والإنابة، والتَّوكُّلِ، والخوفِ، والرَّجاءِ، والمحبةِ، والتوبةِ، وهِجرةُ إلى رسوله بالمُتابعة، والانقيادِ لأمره، والتَّصديقِ بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيرِهِ وخبره؛ «**فمن كانت هجرتُهُ إلى اللهِ ورسُولِهِ، فَهِجْرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ، ومن كانت هِجْرتُهُ إلى دُنيا يُصيبها، أو امرأةٍ يتزوَّجُهَا، فَهِجْرته إلى ما هاجر إليه**».

وفرضَ عليه جهادَ نفسه في ذات الله، وجِهادَ شيطانه، فهذا كُلُّهُ فرضُ عينٍ لا ينوبُ فيه أحدٌ عن أحد.

وأما جِهَادُ الكُفار والمنافقين، فقد يُكتفى فيه ببعض الأُمَّةِ إذا حَصَلَ منهم مقصود الجهاد». اهـ كلام الإمام ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ.

* * *